اقرأ

د. أحمد عبد الحميد يوسف

مصر فى القرآن والسنة

اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

د. أحمد عبد الحميد يوسف

مصر في القرآن والسنة

اقرأ ٣٧٣

دار المعارف بمصر

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

م. سرمد حاتم شكر

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

«تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»

(هود ٤٩)

إلى العقاد رحمه الله

هول كين مصر رواية لا تنتهى   منها يد الكتاب والشراح

فيها من البردى والمزمور والتـــــوراة   والفرقان والأصحاح

ومنا وقمبيز إلى إسكندر   فالقيصرين فذى الجلال صلاح

شوقى

١

مقصد الأنبياء

قد تبدو للمؤمن بالغيب من التقاة الورعين من أحداث التاريخ أسرار يردها إلى حكمة لله عز وجل وأمر منه كتب منذ الأزل فى اللوح المحفوظ .

لأمر ما قدر الله للمصطفين من أنبيائه ورسله مقادير يجتمعون عليها ويشتركون فيها ، وموارد إليها يردون ومنها يأخذون . ولأمر ما شاء رب العرش لأنبيائه أن يخرجوا من تلك البقعة الوسطى من شرق الأرض فيبشروا فيها بما نزل عليهم من كتب الدين ورسالات السماء ، ولأمر ما شاء رب العرش أن يقبل أنبياؤه على مصر ويردوها فيقيموا فيها ما شاء لهم أن يقيموا أو يكون لهم بها سبب يعظم أو يهون .

فإذا سلكنا سبيل المؤمنين المستسلمين ونظرنا فى هذا نظر الثقاة الممتثلين قلنا إن لله حكمة هو بالغها فيما قدر لأنبيائه ومرسليه . وبمثل هذا تحدث إنجيل متى عن رحلة المسيح :

« إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا : « قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر . . . لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى » (٢ : ١٣ ــ ١٥) . فهو قضاء سابق أن يدعى يسوع من مصر ، فليكن إذن رحيله إليها قضاء لأمر من الله سابق سوف يكون .

ولئن بدت الأمور كذلك للمتقين المستمسكين بالإيمان ، دون غيره فقد يجد المؤرخون أنفسهم ــ مع إيمانهم ــ من وقائع التاريخ حيال أحداث متشابهات وظواهر متكررات تفرض على عقولهم ومناهجهم التساؤل والاستقصاء ، وتخرج بهم من معلول يستظهرونه إلى علة يطمئنون إليها وإليها يركنون .

على أن سنة القرآن فيما روى من القصص واستعرض من الأحداث أنه إنما ينتقى منها من الشواهد ما يدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، مخلداً إلى الإيجاز معبراً فى القصص عما يريد من اللباب الذى يتعمق إلى الأغوار ، محققاً بذلك العظة التى أراغها وقصد إليها من السيرة وروايتها . فلم يكن كتاب الله إذن سجلا للأحداث ولا كتاباً للتاريخ بمعناه المفهوم ، ولا هو صحيفة من صحائف الأمم ولا شعب من الشعوب ، ولذلك فلسنا نأنس فيه الأسماء الكثيرة ولا تفرع الأنساب والسلالات ، ولا نجد فيه استقصاء الأحداث معدودات مفصلات ، وهو مع ذلك على إيجازه وبيانه خليق أن يحفز على البحث والاستقصاء ، خليق بالنظر فيما أورد من أخبار الأيام والتحقق من أحداث التاريخ .

أخرج جلال الدين السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » عن ابن زولاق أن مصر ذكرت فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعاً ، وقال بل أكثر من ثلاثين وقع فيها ذكر مصر من القرآن صريحاً أو كناية ، ونقل عن الكندى تعليقه على طائفة من آياته فيها قوله : « لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر » .

أجل ، فلقد كانت مصر فصلا فى تاريخ كل دين .
على أرضها كلم الله موسى وبعثه لهداية العالمين .
وأقبل عليها يسوع فى المهد وكانت به أسبق المؤمنين .
ثم صارت من بعد حصن الإسلام ومعقله الحصين .

* * *

ومن قبل ذلك أقبل عليها أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ، فأقام بين أهلها يقول لهم ويسمع منهم ثم يخرج بجارية مصرية تكون أماً لبكر بنيه . لقد كانت هاجر مصرية تحمل اسماً مصرياً ورد فى الآثار المصرية

بما لا يدل على غير تصحيف يسير . إذ نقرؤه فى المصرية هاقر وهاقرة [١] .

وتلد هاجر المصرية إسماعيل الذى باركه ربه فكان صديقاً نبياً ، ومن إسماعيل تخرج أمة عظيمة هى أمة العرب المستعربين ومنها كانت قريش زعيمة العاربين والمستعربين أجمعين .

وقد شاء الله أن يشرف الأصل بالفرع فتشرف هاجر بمولد إسماعيل ، بل يشاء تخليداً لتلك الفتاة المصرية فيفرض على عباده السعى — كما سعت — بين الصفا والمروة حاجين أو معتمرين . إذ تأذن ربك للآلاف من خلقه أن يطوفوا بين الجبلين إذ يتدافعون ما دارت الشمس كل عام مسبحين مهللين ، وملبين مكبرين ، وأن يظلوا على تدافعهم حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ؛ وأن يكون فرضه هذا من أركان دينه الذى أنزله وارتضاه كافة للعالمين .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما » .

(البقرة ١٥٨)

وكأنما كان خليل الرحمن يدعو لذريته فى أرض الحجاز بمثل الذى رأى من الخير فى مصر حين هبط إليها زائراً ، ثم متخذاً من بناتها زوجة تكون أماً لولده إسماعيل بكر بنيه ، وأماً للعرب ونبعة لسيد الأنبياء والمرسلين ، وكأنما تمثل له حين دعا فى الحجاز لهاجر ما كانت اعتادت فى بلادها التى هجرتها وأقبلت منها :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

(إبراهيم ٣٧)

---

(١) H. Ranke, Die Ägyptischen Personennamen, (Glückstadt 1935 & 1952) Band I, S. 231.

بمثل الذى رأى فى مصر تفكر ، حين دعا ، إبراهيم .
وادكان وما زال ذا زرع وخير عميم .
تهوى إليه مع ذلك أفئدة من الناس بالتجارة والسياحة غادين رائحين ورزقهم من الثمرات فكانوا — بأسلوبهم وملتهم — شاكرين .
ومن بعد إبراهيم جاء يوسف إذ حمل إليها صبياً فعاش فيها حياته حتى توفاه الله فى أرضها حيث حنط ودفن إلى حين [١] .

وقد كان هبوط يوسف مصر مكانة ونعمة من الله يمن بهما عليه ، ولو جاء إليها فى مهانة العبودية وذل الإسار ، لأن الله إنما حمله إليها « مبعوثاً » يتعلم العلم فى أرضه التى أقام فيها العلم منذ غابر الأحقاب والدهور قال عز من قائل :

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
(يوسف ٢١)

ونشأ فيها موسى حيث ربى وليداً ولبث فيها من عمره سنين « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين » ... « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله أنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى أنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين »
(القصص ١٤ ... ، ٣٠)

وأما يسوع فقد أتت به مريم تحمله حيث أقامت كما حدث الرواة ما بين عين شمس وبابليون وقال تعالى :

---

(١) سفر التكوين ٥٠ : ٢٦

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين »
(المؤمنون ٥٠)

وكان لرسول الله محمد بن عبد الله — كما كان لأبيه إبراهيم — زوجة مصرية أو قبطية هى مارية التى أنجبت له ولده إبراهيم ، كما كان له صلى الله عليه وسلم فيها من أحاديثه الشريفة ما وصى بها الناس بأهلها وذكر أنهم يكونون على الأعداء نعم الأعوان .

صدق رسول الرحمن .

كذلك كانت مصر التى كان لها نصيب من الذكر الحكيم جليل ، وحسبها من شرف أنها أثنى عليها رب العرش فى الذكر المبين ، وأنها كانت قبلة الأنبياء والمرسلين .

ومن قبل الأنبياء ومن بعدهم كانت قبلة لمن جاورها من أمم الأرض وشعوبها ، ومن وفد عليها من التجار وطلاب المعرفة والحكماء . أولئك يطلبون الرزق بالبيع والشراء ، وهؤلاء يقصدون الحكمة ويتلمسون السناء .

فكان لها دائمًا فضل المتفضل على الطالبين والقاصدين ، فلا جرم تكون مدرسة تلقى فيها فلاسفة الإنسانية وأنبياء الرحمن المرسلين إذ بعثوا إليها متعلمين قبل أن يبعثوا معلمين ، ولا جرم يكون لها النصيب الأوفى من عناية الكتاب والمؤرخين .

وسبحان ربك الأكرم الذى أنبت فى مصر القرطاس والقلم وجعلها المدرسة التى فيها علم الإنسان بهما ما لم يعلم . إذ تأذن لأهلها فجعلهم أول من يكتبون ، وعنهم أخذ الناس القلم وما يسطرون .

٢

إبراهيم

وقد كان إبراهيم عليه السلام أقبل من حيث يقيم فى فلسطين على مصر يطلب فيها الشبع والرى من بلاد ضربها القحط والجفاف . وقد تحدثت التوراة فى ذلك قالت: « وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً» (تكوين ١٢ : ١٠)، وكان مجيئه إليها على الأرجح والمشهور أيام الأسرة الثانية عشرة من ملوك الدولة الوسطى فى القرن العشرين من قبل مولد المسيح ، حيث هبط على طريق ممهد من علائق قديمة بآسيا منذ أقدم العصور ، إذ كانت قوافل التجارة ترد على مصر وتصدر عنها بما تحمل من العروض التى تحتاج إليها مصر أو تطلبها سوريا وفلسطين ، ولقد كانت حاجة مصر إلى الجيد من الأخشاب خاصة دافعاً لأهلها على تلمسه من مظانه فى فينيقيا (لبنان) منذ طلائع تاريخهم ، حتى لقد تسمت بعض أنواع سفنهم بحكم انتظام الرحلات إلى فينيقيا باسم ميناء جبيل هناك فسميت الجبيلية ، ومن أنباء سنفرو رأس الأسرة الرابعة أنه أرسل قافلة من أربعين سفينة لجلب خشب الأرز منها [١] . كذلك كان العثور منذ فجر التاريخ على الحلى من اللازورد الكريم فى مصر ، حيث لا يتوفر ، دليلا على اتصالها بغيرها من الأقطار منذ ذلك الأمد البعيد [٢] .

---

(١) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt (Chicago 1962), Vol. I, § 146.

(٢) H. Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography (1961), p. 126.

ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين مصادر ما يطلبون من المواد والطرق إليها ، وسلكوا لذلك طريق الحرب وسبيل السلام على سواء .

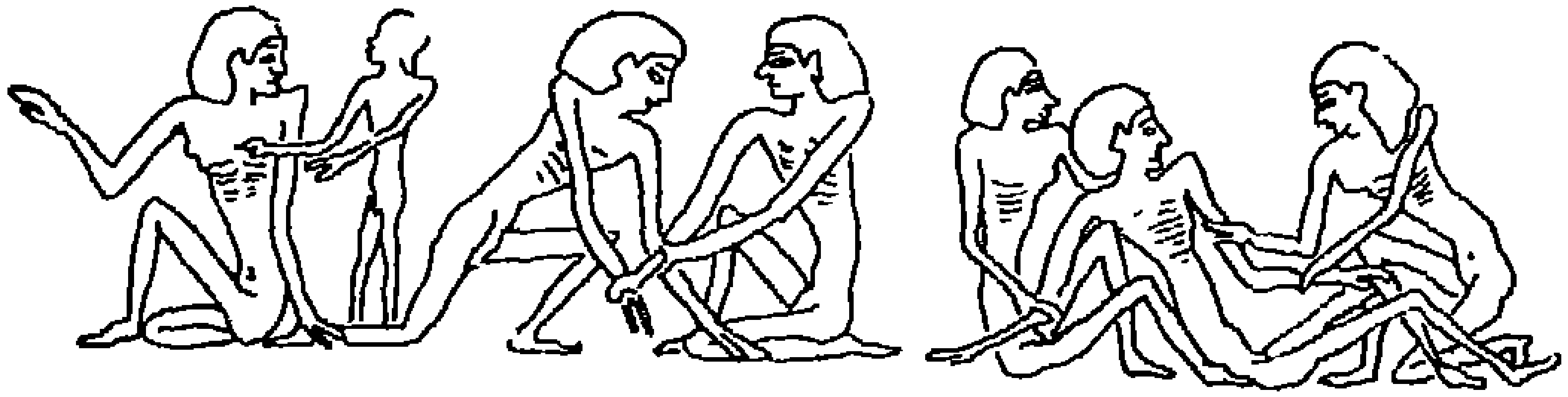

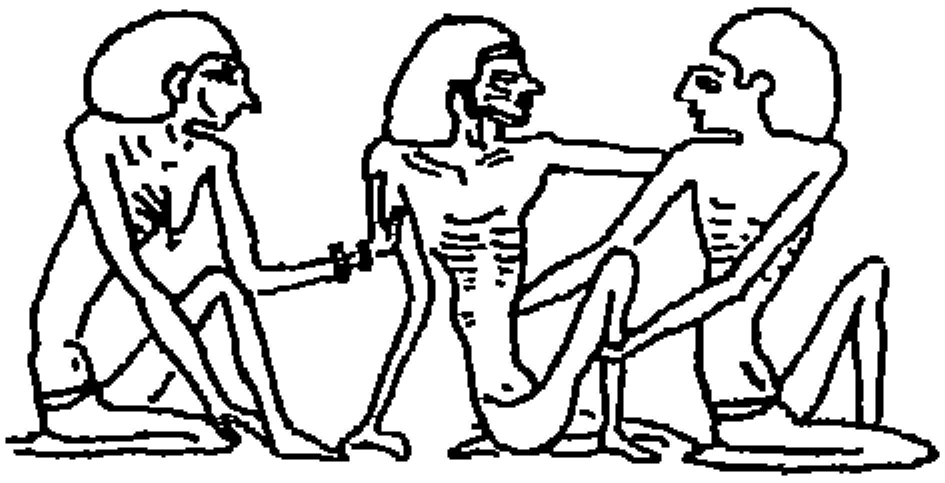

(شكل ١)

وقد كان من وراء تخوم مصر مفاوز مرهقة وأقاليم مملقة قد علموا من أمر سكانها ما صوروه فى آثارهم أحسن تصوير . فعلى الطريق الصاعد بين هرم ونيس عاهل الأسرة الخامسة وبين معبده فى سقارة ، صورة لطائفة من هؤلاء البدو نزلت بهم مجاعة أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقت العظم (شكل ١) وقد كانوا بحكم ماتنزل بهم من نوازل القحط ، يندفعون ما سنحت فرصة إلى الروابى الخضر فيما وراء الآفاق من بواديهم يتلمسون فى مصر الرزق محاسنين أو مخاشنين ، فمنهم من كان يتسلل فيدخل فى طاعة المصريين طاعماً فى خدمتهم من عمل يده ، ومنهم من إذا اشتدت به الفاقة لم يبال إذا انقض فى قومه على التخوم أن تأخذه نصال النابلة من حرس الحدود فى صياصيهم .

وقد كان تجاور الأضداد على التخوم من الجفاف والرى ومن الفقر المدقع واليسر الممتع خطراً مقيما على حدود مصر فرض على ملوكها التحفز الدائم لحمايتها من غارات المغيرين وعدوان المعتدين ، وكانت طوائف منهم تتعرض

لما ترسل مصر إلى طورسيناء من بعثات التعدين ، بل لقد أوشكت غارات البدو وحملات تأديبهم أن تكون من الأعمال الدورية على مر العصور منذ مطلع التاريخ المصرى .

وقد تختلف الحملات من السرايا الصغيرة التى تخرج لإقرار الأمن والإرهاب إلى الكتائب الكبيرة التى تشتبك فى المعارك وتقاتل فى الحروب ، حيث توغل فى تقدمها إلى ما يلى سيناء من غربى آسيا . ثم لم تلبث السياسة المصرية كما قدمنا أن حرصت على بسط نفوذها على تلك البقاع وضمها إلى مصر .

ومن أنباء تلك الحروب ما تواتر عن عاهل الأسرة السادسة پيپى الأول من أنه أنفذ حملات خمساً بقيادة وزيره أونى لتأديب الآسيويين فتعقبهم حتى فلسطين ؛ فدمر حصونهم ، ودك قلاعهم وحرق دورهم واقتلع مالهم من زروع وكروم ، ثم عاد بالألوف منهم أسارى ، وكانت خامس هذه الحملات بحرية خرج فيها أونى بالأسطول المصرى فى البحر المتوسط فنزل بفلسطين حيث قضى على الخوارج فى موقعة سميت « شرت تپ جحس » بمعنى أنف رأس الغزال . ومن أنباء الأسرة الثانية عشرة أن « سنوسرت » الثالث شخص إلى فلسطين فى جيشه فقاتل العصاة حيث أخضعهم فى منطقة ذكرتها المصادر باسم « سكمم » ورجحها المؤرخون بأنها شكيم الفلسطينية التى ذكرت فى التوراة ، ثم عاد إلى مصر بعد أن أعاد النفوذ المصرى إلى هناك .

على أن القبضة ما إن تتراخى فى عصور التفرق والضعف السياسى حتى تنشط القبائل من حولها إلى الضغط والغارة ، ثم إلى الزحف على الدلتا فى سبيل عيش لين ومقام كريم ، وذلك حين يستنيم ولى الأمر وتتحطم مواقع الحراسة وتنهار المقاومة . وقع ذلك على مدى عصور التاريخ مرات ومرات . فكان أواخر الأسرة السادسة حين طفقت عناصر من الآسيويين تتسرب إلى الدلتا حتى غمروها وتغلغلوا فيها ، ثم عاد فوقع فى أعقاب الدولة

الوسطى فى صورة غارة هائلة حملت اسم « الهكسوس » الذين دخلوا مصر بالحرب والقتل والتدمير ، ثم شهدته مصر بعد ذلك من قبل الليبيين فى الغرب والنوبيين فى الجنوب وشعوب البحر المتوسط فى الشمال . لذلك كله فقد حرص ملوك مصر على التدبير لأمن تخومها وسلامة حدودها .

وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة — التى عاصرها إبراهيم عليه السلام — من أحرص الفراعين وأنشطهم فى حماية الحدود وحراسة التخوم ، فكان لهم فى الجنوب ما بين سمنة عند الشلال الثانى وبين الفنتين عند أسوان ثلاث عشرة قلعة ، يبدو من أسمائها ما أريد لها من وظيفة الأمن والدفاع ، مثل « رادة القبائل » و « مخضعة الصحارى » . وكان « سنوسرت » الثالث من أنشط هؤلاء الفراعين فيما أرسى لتلك الحماية وبذل لها من جهود الحرب والإنشاء ؛ إذ ينطق عن سياسته فى ذلك ما أقام عند سمنة من قلعة وشاهد يبين حدود مصر الجنوبية وما وصى به أخلافه من بنيه بالحفاظ عليها وحمايتها حيث يقول :

« أيما ولد لى يرعى تلك الحدود التى أقامها جلالتى فإنه (بحق) ولدى الذى ولد لجلالتى ... . أما من سوف يتخلى عنها ويتقاعس عن القتال فى سبيلها فليس لى ولداً ولا هو وُلِدَ لى »(١) .

ومع ذلك فما كان لتلك الحدود أن تكون مانعًا ولا حائلا فى سبيل التجارة وسفارات السلام ، إذ كان الملك مع حرصه على تأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها حريصًا على رفاهية شعبه وتنشيط تجارته وتوفير احتياجاته ، فأصدر مرسومًا أعلنه على بعض شواهد الحدود تلك يبين فيه مع الحدود نظام المرور ويعين أسواق التجارة جاء فيه :

« الحد الجنوبى الذى أقيم عام ثمانية فى عهد جلالة ملك الجنوب والشمال خع كاورع (سنوسرت الثالث) الموهوب الحياة أبداً وأزلا لمنع أى زنجى أن يعبره بحراً أو براً بسفينة أو فى جماعات من الزنوج ، وذلك

---

(١) Breasted, op. cit., § 659

فيما عدا زنجيًّا يأتى للتجارة فى « يكن » أو سفارة ، فيؤدى له كل شىء طيب ، وذلك بدون السماح لسفينة للزنوج بتجاوز « حح » هابطة التيار إلى الأبد »[١] .

وكذلك حظيت مصر على جبهتها الشرقية بما عرف منذ الدولة الوسطى بحائط الأمير ، حيث قامت القلاع والحصون ومواقع الحراسة التى يقوم عليها الجنود المنوبون الذين لا يمكنون لدخيل من تجاوزها أو عبورها إلا أن يؤذن له ويمنح جوازاً بذلك ، وذلك فى أقدم ما عرف من جوازات السفر فى التاريخ . وفى قصة « سانوهى » التى انحدرت إلينا من ذلك العصر أنه خرج من مصر هاربـًا من فتنة ظن أنها واقعة بها لا محالة ، وأنه إن أقام غير ناج منها ، فولى وجهه — فى طريقه إلى سوريا — شطر الشرق عند البحيرات المرة ، فلما انتهى عندها هناك إلى «حائط الأمير» الذى شيد لرد البدو ، كان عليه أن ينحنى بين الشجيرات من حول القلاع أن تناله عيون الرقباء من صياصيهم . كذلك روى أنه لما عفا الملك عنه وآن له أن يرجع إلى الوطن أقبل على مصر شيخـًا طاعنـًا فى السن ، حيث أقام عند تخومها الشرقية على طريق حور منتظراً — ولم يدخل — حتى أرسل قائد الحدود إلى الملك بمقدمه وعاد الرسول بالإذن للأمير العائد بالدخول .

ومهما يكن من شىء ، فلقد كشفت الأحافير على كل حال فى مصر والشام وتحدثت الأخبار يومئذ كذلك بما يشهد لمصر بما كان لها فى تلك الربوع من النفوذ السياسى والمنزل التجارى جميعـًا . فقد عثر من عهد الأسرة الثانية عشرة تحت معبد لها فى الطود بصعيد مصر — فضلا عن تمائم من لازورد . وأختام أسطوانية بابلية — على ودائع من حلى الذهب والفضة وسبائك منهما فى أربعة من صناديق البرونز عليها اسم امنمحات الثانى ، وكلها بحكم طرزها الإيجية والبابلية إنما تنطق عما كان لمصر من علائق قد

---

(١) Breasted, op. cit., § 653.

تكون امتداداً لنفوذها على تلك البقاع [١]. كذلك عثر على طائفة من آثار تحمل أسماء ملوك هذه الدولة الوسطى وأفراد أسرهم فى جبيل وبيروت وأوجاريت (رأس شمرا الآن) على الساحل الفينيقى ، وفى قطنة شمالى سوريا. كما عثر فى مجدو الفلسطينية على قاعدة لتمثال جحوتى حتب بن كاى وسات خبركا حاكم إقليم الأرنبة والكاهن الأكبر لمعبودها جحوتى فى الأشمونين. ولا شك أن وجود تمثال لمثل ذلك الرجل فى سوريا وفلسطين وهذه منزلته إنما يدل كما قدمنا على علائق متينة بين مصر وآسيا. وغير بعيد أن يكون وأقران له قائمين بأعمال دبلوماسية هناك أو مندوبين فى مواقع لمصر فيها مصالح تجارية كبرى [٢]، ومع ذلك فلدينا من أخبار ذلك العصر — عصر الدولة الوسطى — شواهد تحدث عن موظف مصرى كان مقيماً فى مجدو وكان يجلب العجول منها ويصدرها إلى مصر [٣].

ولم تكن الوفود من مصر وإليها لتنقطع عنها طوال تاريخها القديم ، حتى عمت أخبارها وتفشت لغتها فى أنحاء البلاد من غرب آسيا. وفى قصة سانوهى وما كان من فراره من مصر أنه لجأ إلى بعض مدائن سوريا حيث كتب إليه أميرها يدعوه إلى الإقامة عنده حيث الأمن والدعة وحيث يسمع لسان مصر.

وكان صوت مصر وصيتها يومئذ — بحكم ما قدمنا — قوياً فى الأسماع مهيباً فى النفوس ، حيث تولى الحكم فيها ملوك حرصوا على توفير الكفاية والعدل فى البلاد ، وقد سبق عصر هؤلاء الملوك عصر نادى الناس فيه بالعدل والحق والمساواة ، وعبروا عما فى أعماقهم من مشاعر الشوق إلى العدل ، فلما

---

(١) مصر ص ٢٨٤ — ٢٨٥ تأليف اتين دريوتون وجاك ڤانديه وتعريب عباس بيومى

(٢) Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (*3rd* edition, Princeton 1969), p. 228.

(٣) Montet, L'Egypte et la Bible, (Neuchatel 1959), p. 19.

جاءوا إلى العرش أخذوا أنفسهم بتحقيق الرفاهية وإرساء العدل للأرباب والناس .

ومن المحقق أن مصر كانت تصدر مع ما كانت تصدر من عروض التجارة إلى تلك الربوع ما اهتدت إليه من العلم والفكر والأخلاق ، وأنها مهدت هناك بتعاليمها لتعاليم من ظهر من الأنبياء والمرسلين وأقامت أساساً من الفكر والضمير الحي الذي أرهص لما بشروا به وهيأ لاستقبال ما نزل عليهم من العقائد والرسالات .

وكانت الأسرة الثانية عشرة يومئذ قد بلغت من القوة واليقظة ومن الثقة والنظام أن سمحت لمن شاء ممن جاورها من الشعوب أن يقبل عليها موغلا إلى حيث يستطيع من أقاليم الصعيد ، وكان منظر القوافل من البدو مما راق لشريف من بني حسن وراق لفنانه الذي أعد له قبره فصور قافلة منها فيه . إذ نشهد في قبر خنوم حتب منظراً (في شكل ٢) لقافلة أو قبيلة من سبعة وثلاثين نفساً من رجل وامرأة وغلام ، أقبلوا بقيادة زعيمهم أو شيخهم إبشا (أو إبشاى كذكره في التوراة) يبيعون الكحل ويحملون القسي والسهام ويروجون لذلك بما يعزفون من نغم على الطنبور ؛ وذلك بما عليهم من مآزر مبرقشة ولحى كثيفة تملأ العوارض وشعر على الرءوس طويل .

ولم يكن أبيشاى رأس تلك القبيلة السامية أو حاكم البلد الأجنبي كما وصفته النصوص المصرية ليدخل مصر فيجوس خلال الديار بغير إذن الملك ولا إذن السلطات المصرية كما يقال ، فلقد رصد الفراعنة على التخوم من شرقي مصر — كما قدمنا — قلاعاً عليها الرماة من العسكر يرقبون السفر داخلين خارجين ، ولم يكن لغريب أن يدخل إلا أن يقف عند ثارو حيث القنطرة الآن فلا يواصل المسير حتى تعرف هويته وتتكشف نيته ويتضح مبتغاه . وقد روينا عن سانوهي أنه في فراره من مصر قد حرص على التخفي بين الشجيرات حتى لا يراه الرقباء من فوق القلاع ، وأنه في أوبته إلى الوطن شيخاً طاعناً في السن قد توقف عند ثارو وهو الأمير المصري المعروف حتى جاءه إذن الملك بالدخول .

وفى هذه الفترة من حول القرن العشرين من قبل مولد المسيح على عهد هذه الأسرة المالكة المصرية — على المشهور — أقبل إبراهيم أبو الأنبياء عليهم السلام . وأكبر الظن أن إبراهيم قد هبط مصر مع إحدى قوافل البدو تلك

(شكل ٢)

التى كانت تقبل بائعة لها وباتعة منها كما رأينا فى قافلة أبيشاى . ولقد كان حلول إبراهيم بمصر كما روى الأصحاح الثانى عشر من سفر التكوين فراراً من قحط وجوع لم يكن إلى احتماله بفلسطين من سبيل : « وحدث جوع

فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً » ، ومن المحقق أنه إنما أقبل على مصر وقد تسامع الناس فى بلاده بما كان فى مصر يومئذ من الرخاء ورغد العيش ولين المقام ، وما كان يسودها من الأمن والدعة والسلام . ومهما يكن من تقدير المؤرخين والكتاب فى تاريخ هبوطه مصر واختلافهم فيه ، فإن الأحوال المواتية التى كانت خليقة أن تجذبه إليها وتغريه بالإقبال عليها والإقامة فيها إنما تهيأت واستقرت على عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة ولم تتهيأ قبلها ولا استمرت طويلا بعدها كما نوشك أن نفصل بعد قليل ، وظاهر من رواية التوراة والمشنا[1] وما أيدهما من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى هريرة أن إبراهيم إنما دخل مصر جهرة ولم يدخلها تسللا ، وأنه لم يدخل فى عهد من عهود الفوضى والاضطراب التى سبقت الأسرة الثانية عشرة أو لحقت بها أيام الهكسوس . بل أقبل — وهو يعلم — على دولة مستقرة منظمة سوف يسأل عند الحدود فيها عن هويته وهوية من معه من رجال ونساء ؛ فكان منه ما كان من حديثه إلى امرأته سارة فيما اتصلت روايته فى الأصحاح الثانى عشر من سفر التكوين :

« وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » (١٠ — ١٣) .

ويستخلص كذلك من أحاديث المشنا فيما كان من دخول إبراهيم مصر مع سارة أن التخوم المصرية قد كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصى السَّفْر فيما يحملون فى أمتعتهم من عروض . إذ روت أن إبراهيم

---

(١) المشنا القديمة أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة ، فالمقرا هو ما يحفظ بالقراءة فى الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة والمشنا هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ومنه التلمود على نشأته الأولى .

خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة فحملها في تابوت وهم يعبرون تخوم الديار ، وسأله عمال المكوس عما في التابوت فأنبأهم أنه شعير ، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح قال خذوا ماتشاءون فعادوا يطلبون الضريبة على بهار فأجابهم إلى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهباً فقبل فأعطاهم سؤلهم ، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ففتحوا التابوت عنوة فإذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون .

على أن إبراهيم لم تكن به من حاجة إلى الخوف على حياته من أهل مصر ولا من ملكها على امرأته أن تغصب منه ويقتل من أجلها . ولعل الذى راود صدره من خوف لم يجاوز الوهم كما ساور يعقوب الوهم من حسد بنيه الاثنى عشر إن دخلوا من باب واحد ولم يدخلوا من أبواب متفرقة (١) ، ولعل إبراهيم عليه السلام إنما صدر فيما صدر عن استشعار مما عهد من غصب النساء والاحتيال على اقتناصهن من أزواجهن فى بلاده التى أقبل منها ، بل ومن بوائق أسوأ سوءاً وأعظم نكراً بلاً بعضها فى سدوم ابن أخيه لوط من قومه ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وأخبر الله بها إبراهيم .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط » . .

الآية (هود ٦٩ — ٧٠ ، ٧٧ — ٨٢)

---

(١) «وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لايعلمون » .
(يوسف ٦٧ — ٦٨)

بوائق بلغ من شيوعها أن تواترت إلى كاتب التوارة لاحقة بالأنبياء والمرسلين وهونت عليه نسبة الزنا والغصب إليهم . فذكر أن لوطًا سكر وزنى بابنتيه فحملتا منه (تكوين ١٩ : ٣٠ — ٣٨) وأن داود رأى من سطح بيته امرأة أوريا تستحم « فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه واضطجع معها » ثم كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب فى المكتوب يقول اجعلوا أوريا فى الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت » .

(صموئيل الثانى ١١ : ٢ — ١٦)

على أن ملك مصر — على كل حال — ما إن عرف مكان سارة من إبراهيم حتى تذمم — بحكم ما كان يسود مجتمعه من مكارم الأخلاق — مما أوشك أن يقع فيه من اتخاذ زوجة غيره زوجة له ، واستنكر ما ألقى إليه إبراهيم أو نقل عنه من خبر مكذوب وما كان من زعمه أنها أخته ، فتقول التوراة .

« فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة حسنة جدًا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيرًا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال » .

(تكوين ١٢ : ١٤ — ١٧)

ونريد قبل المضى فى هذا الحديث أن نستطرد قليلا فيما ذكرت التوراة من جمال نالها إبراهيم فى مصر مصححين . ذلك أن كاتب التوراة — فى معرض التعبير عما لقى إبراهيم من كرم فرعون إنما كان يحدد على أسلوبه وبيئته ما عسى أن يتلقى — فى مفهومه — من ملك مصر ، فذكر الغنم والبقر والحمير والعبيد والإماء والأتن ، ثم أضاف إليها الجمال ، وإن ظلت الإبل غريبة لا يعرفها المصريون يومئذ على التحقيق ، بل لقد كانت غريبة على من أقبل على مصر يومئذ من قبائل البدو الساميين ، فلقد أقبلت قبيلة

إبيشاى أو قافلته تسوق الحمر لا الجمال كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء من ذلك العهد صور للجمال .

ونعود إلى رواية التوراة التى تتصل فتقول :

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة إبرام ، فدعا فرعون إبرام وقال ما هذا الذى صنعت بى ، لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك ، لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى ، والآن هو ذا امرأتك . خذها واذهب فوصى عليه فرعون رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له » .
(تكوين ١٢ : ١٢ — ٢٠)

وقد وافق حديث الرسول عن أبى هريرة رضى الله عنه خبر الخليل فى التوراة قال عليه الصلاة والسلام :

« لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين فى ذات الله فى قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأجيبيه إنك أختى ، فإنك أختى فى الإسلام ، فإنى لا أعلم فى الأرض مسلماً غيرى وغيرك . فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه ، فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة . فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين ، فقال ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله ألا أضرك ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذى جاء بها فقال له إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان فأخرجها من أرضى وأعطها هاجر . . . فأقبلت تمشى فلما رآها إبراهيم عليه السلام . . قال مهيم قالت خيراً كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً . قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بنى ماء السماء » .

« لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات » ، ومع ذلك فقد حرص مفسرو الإسلام على نفي الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه . وقالوا إن الكذب حرام إلا إذا عرض . ومن أمثلة العرب قولهم إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب ، ولذلك فقد ذكر المفسرون أن الذى قاله إبراهيم فيما ورد بسورة الصافات « إنى سقيم » إنما هو معراض من الكلام أى سأسقم ، أو أنه من الموت في عنقه سقيم ، أو أراد إنى سقيم النفس لكفركم (١) ، وأما الثانية فقد وقعت فيما كان منه بأصنامهم « وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين . فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون .

« قالوا مِن فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »(٢) .

وقد ذكر النسفي في تفسيره أن إبراهيم إنما نسب الفعل إلى كبيرهم وقصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي تبكيتاً لهم وإلزاماً للحجة عليهم . وقال أبو السعود مشيراً إلى الذى لم يكسره : « سلك عليه السلام مسلكاً تعريضياً يؤديه إلى مقصده الذى هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب ، حيث أبرزه في ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس في عنقه . وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه ، وكأن غيظ

---

(١) تفسير النسفي لآية ٧٩ .

(٢) الأنبياء ٥٧ — ٦٣ .

كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحاصل عليه ، وهو على كل حال إنما قصد بمقالته تلك إلى تبكيتهم بما يعبدون من صنم لا يسمع ولا يقول » ، وأما البيضاوى فقد ذكر أنه إنما « أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياه وتقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيت على أسلوب تعريضى كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبته بخط رشيق أأنت كتبت هذا فقلت بل كتبته أنت » .

* * *

وبعد ، فما بال إبراهيم فى الثالثة يزعم للمصريين أن سارة أخته؟! أتراه اضطر هذه المرة إلى الكذب والمين فلا منتدح ولا محيص إلى التعريض ؟ !

لعل دراسة الحضارة المصرية ولغتها أن تقدم إلينا فى قصة إبراهيم سبيلا إلى إعفائه مما قيل إنه وقع فيه ، وأن تسهم مع المفسرين فيما أرادوا لإبراهيم من تنزيه عن الكذب الذى قيل إنه اضطر إليه فمال عنه إلى التعريض .

فغير بعيد أن كان إبراهيم عليه السلام يعرف اللغة المصرية القديمة ويعبر بلسانها ، أو أنه على الأقل ، بل لا أكاد أشك ، أنه قد كان يعرف منها بحكم انتشارها فى بلاده كما قدمنا طائفة من عبارات وألفاظ تعينه على شئونه فى مصر حين أقبل عليها . لذلك فلم يكذب إبراهيم ولم يخرج على مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون . فلقد كانوا يطلقون على الزوجة فى لغتهم ــ فضلا عن لفظ المرأة حمة و « سة حمة » (أو هيمه وسهيمة) ــ لفظ الأخت « سونة »[١] ، وكان ذلك نوعاً من التعبير عن المحبة والإعزاز . وما ندرى لعل إبراهيم حين أقبل على مصر فالتى الناس من آل فرعون وملئه قد آثر التورية والتعريض فوصف زوجته سارة على مألوفهم بأنها « سونة » بمعنى الزوجة أو الأخت ، حيث وقع أو أوقع فى روع المصريين بلكنته

---

(١) تشبه اللفظ العربى « صنو » .

الأجنبية ، وما عسى أن رأوا من معاملته لسارة أنه إنما قصد إلى المعنى الأصيل للفظ الأخت لا إلى المعنى المجازى له ، ولعله قال لسارة فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك فإن سألك فأجيبيه أنك لى "سونة" أو "سونى" » .

عدل المصريين وتقديس الحرمات

وظاهر من سياق الرواية أن إبراهيم لم يكن مضطرًّا — لو عرف المصريين بحق — إلى الخوف على امرأته ونفسه من بطش الملك . فلقد كان الملك ، كما فعل من بعد ، خليقًا أن يحترم حرمة الزوجة لو كان أخبر بذلك من قبل ، فلقد كان المصريون يقدرون الحرمات ويقدسونها ويرعونها أشد الرعاية ويبجلونها أعظم تبجيل .

فلم يكد فرعون يتبين مكان سارة من إبراهيم حتى ردها إليه معتذراً عما أوشك أن يفرط عن غير علم منه محتجًّا على ما أبلغ إليه من خبر مكذوب أو مدخول ، متفضلا بما أهدى إليها من جارية هى هاجر أو هاقر إن شئنا أن ننطق باسمها المصرى بغير تصحيف ولا تحريف . وقد كان فراعين مصر من ذلك العصر يحيون فى ظل مبادئ من الحق والعدل فرضها المجتمع المصرى يومئذ للناس أجمعين ، وحرصوا هم على أن يتمتع بها الصغير مقامًا والكبير منصبًا ، فلا فضل لشريف على غيره لشرفه ولا لغنى على فقير لغناه ، بل لا فضل لحاكم على محكوم بحق ادعاه ، ولعلهم بما اتخذوا لأنفسهم من الأسماء والألقاب إنما كانوا يعلنون للناس ويلزمون أنفسهم بما دلت عليه ألقابهم تلك من المعانى والمثل العليا ، فقد اتخذ أمنمحات الأول رأس الأسرة لقب « المولد المتكرر » أو النهضة كأنما كان يدل على ما فى ضميره من حرص على أنه بعهده إنما يبدأ عهداً جديداً يعيد به إلى مصر مجدها القديم . وحرص أخلافه على أن تشمل ألقابهم التى يتخذون معنى العدل والحق

والمساواة والقانون وهى المعانى التى يشتمل عليها كلها لفظ « ماعت» المصرى فاتخذ أمنمحات الثانى لقباً يعنى السعيد بالعدل وعادل الصوت ، وتسمى سنوسرت الثانى «مظهر العدل» وأمنمحات الثالث «العدل لرع » ، وأمنمحات الرابع « عادل الصوت رع » . وفيما بلغنا من آثارهم الأدبية شواهد ممتعة ومثل رائعة بما استطاع هؤلاء القوم إرساءه من قواعد الحق والعدل والمساواة ؛ وما أقاموا من معانى الخير والبر والإحسان . فقد ذاعت أيام تلك الدولة قصة نعرفها اليوم بعنوان : « قصة القروى الفصيح» وهو الذى تعرض لظلم حاكم الإقليم بغصبه حميراً له . ولكن بطل القصة أبى ورفض الاستسلام فطفق يشكو ويجأر بالدعاء حتى بلغت شكواه مسامع الملك أمنمحات الثانى فأنصفه وأكرمه . وقد استهدفت القصة فيما استهدفت الإعلاء من كلمة الحق والعدل ، وما ينبغى أن يكون عليه من السيادة والقوة التى تشمل صاحب السلطان الذى يتسلط على الناس ، كما تشمل العاطل من السلطان الذى لا يتسلط على أحد من الناس ، بحيث يكون الناس جميعاً سواسية أمام القانون . وقد قدمت هذه القصة فى ختامها دليلاً على رعاية العدل والانتصاف من الظالم للمظلوم ، ودلت على مجتمع يستطيع فيه القروى المسكين الدفاع عن حقه والمثابرة عليه والإلحاح فى طلب الإنصاف من ظالمه ، مبينة عن شجاعة فى الطلب وجرأة فى مخاطبة الحاكم بل تعنيفه بدون خوف أو وجل من أذاه ، وذلك فضلا عما اشتملت عليه من نقد لاذع ونبش لما فى المجتمع من العلل والعيوب ، فلقد خرج القروى عن أمر المطالبة بحميره إلى الحديث عن جشع كبار الموظفين وانحراف القضاة وفساد الذمم ، وتستر الحاكم عليهم واشتراكه معهم فيما ينهبون ، فكأن القصة تعلّم للناس حقوقهم فى العدل والمساواة وفى حرية الكلمة والتعبير، وواجب الشجاعة فى إبلاغها . وفضلا عن ذلك فقد شاء الكاتب على لسان القروى أن يبسط للناس مكارم الأخلاق وفضل الحياة الصالحة النقية وما شاع فى عصره من زهد فى الدنيا وزخرفها فإن

الآخرة خير وأبقى ، وماذا عسى أن يجنى الحاكم أو غيره من المال على سوء الخلق وفساد الضمير وأكل السحت وقول الزور ، ومن ورائه حساب ينتظره يوم تجزى كل نفس ما عملت ، وحسبه إبريق من جعة ورغفان ثلاثة ، وذلك لأن العدل باق خالد وهو ينزل مع من يقيمه كما قال ، وكما قيل من قبل للملك مريكارع . « بأن فضيلة من يؤثر العدل والحق أحب (عند الرب) من الثور الذى يقدم قربانـًا » ، وهو المثل الذى انتقل إلى التوراة فى أمثال سليمان (٢١ : ٣) فى قوله : « فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة » ، كذلك فلم يعمد ملوك هذه الأسرة إلى إيثار أنفسهم بالأضرحة الفخمة والأهرام الضخمة ، بل آثروا إنشاءها من اللبن وتوجيه جهودهم إلى رفاهية الشعب وسعادة الرعية ، ولئن كانوا قد نشأوا من طيبة ووجهوا بحكم تلك النشأة بعض عنايتهم إليها ، فلقد نقلوا عاصمة ملكهم إلى مدخل الفيوم فى مكان يقال اليوم اللشت غير بعيد من واسط الأرض منف . هناك أقاموا فى تلك البقعة الشاسعة الخصيبة من أرض مصر من مشروعات الرى الهائلة ما غمر خيره البلاد والعباد ، حيث أنشأوا عند مدخل ذلك المنخفض سدًّا هائلا خلقوا به خزانـًا ضخمـًا يدخرون فيه مياه الفيض التى تنحدر على مصر أمواهها ، فما تلبث أن تنصب وتزول فى البحر هباء ، فكانوا أن أضافوا إلى حقول مصر زهاء سبعة وعشرين ألف فدان من أرض تزرع عند الفيوم ، كانت من غير شك مصدراً من مصادر الرفاهية فى بلد تعتمد رفاهيته على الزراعة والرى . ولقد كان ادخار ماء النيل والحكمة فى الإفادة منه إنما يقتضى علمـًا واعيـًا بمواقيت فيضه ومناسيب دفقه ، وكان فراعين هذه الأسرة حكماء ، اتبعوا فى ذلك سبيل الحكمة والتدبير ، فكان لهم فى أقصى الجنوب عند الشلال الثانى رجال يرقبون المناسيب على الصخور ، فإذا ما أبلغ ولى الأمر بما يرون من « نيل منخفض » أو « مبكر أو مستأخر » اتخذ ما يضمن الإنتاج الأكبر وتجنيب البلاد ما عسى أن تتعرض له من أخطار . وكذلك فقد استغل ملوك هذه الأسرة مناجم سيناء

استغلالا طيبًا ، ثم أولوا بعد ذلك التجارة الخارجية جهد استطاعتهم من الوشائج المتينة والأمن والسلام ، حيث تمتعت مصر – كما قدمنا – بنفوذ سياسى ومركز تجارى وسلطان ثقافى متين فى غرب آسيا بنوع خاص ، فلا جرم يفخر أمنمحات الأول بألا جائع فى عهده ، ولا جرم تكون مصر قبلة لطلاب الرزق والعلم حيث تقدم لهم ما يشاءون من غذاء البدن والروح جميعًا .

ولم يصل هذا الشعب إلى ما وصل إليه من ذلك ، إلا بعد كفاح اجتماعى وصراع طويل امتد من تاريخ مصر أجيالا منذ الدولة القديمة أواخر الأسرة الرابعة فى القرن السابع والعشرين من قبل مولد المسيح ، حتى مطالع الدولة الوسطى فى القرن العشرين . صراع ركب السياسة وركبته السياسة فأديل فيه من حكومة إلى حكومة ومن دين إلى دين ، ثم عج عجاجه واصلخم عبابه بسقوط الدولة القديمة فى أعقاب الأسرة السادسة بالعنف والهدم وسفك الدماء ، وذلك فى أول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ .

كان الملك فى عيون المصريين الأقدمين منذ مطلع الصبح من تاريخهم إنما يحكم البلاد باسم إلههم حور ، ولقد بدا سلطان الملكية وسطوتها منذ مشرق الدولة القديمة فيما أنشأ الملوك لأنفسهم من أبنية كالجبال اتخذوها قبوراً وأضرحة تستقر فيها جسومهم بعد الموت ، وفيما جندوا وحبسوا لتلك المنشآت الباذخة من الأموال والعمال والكهان ، ولنا فيما نشهد من أهرام زوسر وسنفرو وخوفو وخفرع دليل ناطق وبرهان مبين . ثم كان أن طفق سلطان الملوك العارم ينحسر عن النفوس وبأسهم يتقلص فى العيون ، واهتزت هيبة الملكية أواخر الأسرة الرابعة منذ طفق كهان الشمس يبشرون بدينهم ويدعون لدولتهم التى يقبض زمامها – فيما رووا – ملوك زعموا أنهم يولدون لإله الشمس من امرأة من الشعب يقال لها رد جدت .

ثم كان خليقًا بملوك الأسرة الخامسة أن يسيروا فى الناس سيرة تتفق وما كسبوا من تأييدهم فى الوصول إلى الملك ، فبذلوا الأموال والمناصب عن

سخاء لأهل الطبقة العليا — فضلا عن كهان الشمس — حرصًا على استبقاء ولائهم وتأييدهم ، بل زادوا ففتحوا لهم سبيل المصاهرة يزوجونهم ويتزوجون منهم ، ففتحوا للناس بذلك سبيل الإحساس بكيانهم وسبيل الإيمان بالمساواة ، ولم يكن قليلا ولا هينًا يومئذ أن يعتذر ملك لرجل من رجاله ، فلا يتحرج نفرا يركارع ، وقد أصابت عصاه ساق « رع ور » ، من أن يعتذر له ويعلن أن « رع ور » أحب الناس إليه وآثرهم عنده ، بل لم يكتف بذلك فأذن للرجل بتسجيل تلك الواقعة وذلك الاعتذار فى قبره لتقرأها الأجيال من بعدهما ، ولنقرأها ثم نوردها فى هذا الكتاب ، كما ترد فى كتب أخرى بعد نيف وأربعين قرنًا من الزمان .

ولئن ظل الملوك من أخلاف الأسرة الرابعة ينشئون الأهرام أضرحة لهم ، فلقد بدا واضحًا صغر حجمها وضعف بنائها وتواضع مظهرها بالنسبة إلى أهرام أسلافهم ، ولا شك أن ذلك إنما يترجم عن قلة فى الموارد وانحسار فى النفوذ وانصراف الناس إن لم يكن كفرهم بحق الملك فى استنزاف أموال البلاد من أجل ضريح له وحده دون سواه ، حيث طفقت أفكار الناس تتحول عن المادية وسيلة إلى السعادة فى الدار الآخرة وزاداً لها ، إلى أفكار أخرى تؤمن بالتقوى وصالح الأعمال . ولم يعد مصير الإله أوزيريس — رب الموتى — حقًا للملك وحده ، بل شاركه فى ذلك الأشراف أولا ، ثم لم يلبث العامة أن دخلوا معهم وشاركوهم فى ذلك المصير .

ولم يكن « پيپى » الثانى آخر ملوك الأسرة السادسة بالرجل القوى الحازم الذى « يقبض » زمام الأمور ، ولا كان بالملك الذى يحفظ بسلوكه للعرش هيبته ، ثم كان لشيخوخته الطويلة — إذ بلغ المائة — الأثر الحاسم فى انقضاض صرح الدولة وانحسار نفوذها ، حيث اضطرب الأمن واضطرمت فى البلاد ثورة فكرية اجتماعية لم تعرفها منذ اتحادها على يد نعرمر ، فتزعزعت عقائد واهتزت مثل وقيم قدسها المصريون من قبل ، فانهارت فى عيونهم قيمة القصور المنيفة والمقابر الضخام ، فكان أن انطلقت الألسنة المعقولة ونطقت

الأفواه المكمومة ، وذلك فيما صور لنا حكيم ذلك الزمان ابيوور ، الذى اقتحم على الملك سكينته التى أخلد إليها واستنام لها ، فطفق يصف فى أسلوب رائع حزين حال البلاد وما تردت فيه من اضطراب وإفلاس ، وما حل بالناس من محن وخطوب ، فذل العزيز وعز الذليل . ولقد تمثلت الثورة فيما وصف ابيوور بعدوان الناس على الناس وأملاك الناس ، بل بعدوان من يفترض فيهم صون الأمن على الأمن ، وبسوء استخدام المسلحين لأسلحتهم وإضراب العاملين عن العمل ، وبالعداء للأغنياء والشماتة فيهم بما أصابهم من إدبار الزمان واختلال موازين الثراء ، حيث أثرى الفقير وأملق الغنى ، وبتدمير المنشآت وتدهور الاقتصاد والصحة العامة ، وعجز الناس عن دفن موتاهم فإذا بهم يلقون بهم فى النيل حتى صار مدفناً كما قال . بل لقد بلغ البؤس والشقاء بهم مبلغاً حملهم على التخلص من الحياة بالانتحار ، فإذا البلاد من ذلك كله فى حالة من الركود والانحلال أطمعت فيها البدو فنزحوا إليها لا يجدون من يردهم ويدافع عن مصر ، فانتشروا فى الدلتا زرافات وأفواجاً .

ولذلك فلم يكن إبراهيم عليه السلام ليأتى إلى مصر فى ذلك الزمان ، فإن هذه الأحوال التى نستطيع اتخاذها — فضلا عن حساب السنين من قرائن التحديد لعصره — لمانعة رجلا مثله أن يهجر جوعاً إلى جوع وإملاقاً إلى إملاق ، بل يهجر أمناً وإملاقاً إلى اضطراب وإملاق .

تطور الفكر المصرى الذى شهده إبراهيم

ومهما يكن من شىء ، فلقد نتج عن تلك المحن التى نزلت بالبلاد كثير من التأملات والأفكار ، فمن الناس من اهتز يقينه بالدين على عمق يقين الناس بالدين ، فأنكر الإله واستخف بالآخرة والحساب ، فمنهم من قال فيما روى إيپوور : « لو أنى عرفت أين الإله لقدمت إليه القربان » ، أو كعازف الجونك الذى حض الناس على الملذات واقتناص المسرات ، « فإن

أحداً ممن قضى نحبه لم يعد ليحدثنا بما وقع له » .

على أن منهم من لم يرض عما آل إليه حال البلاد ولا هو سكت عما نزل بها من الكوارث والمحن ، فانطلقت الأفواه والأقلام بما أتيح لها من التعبير عن الشوق إلى العدل وعودة البلاد إلى النظام والأمن ، وذاعت فى الناس فضلاً عن ذلك الكهانات التى تبشر بالمخلص المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وتسامع الناس بظهور « ابن الإنسان » الذى يقيل البلاد من عثرتها وينقذها من محنتها ، فكأن الناس ، بما أشاعوا من ذلك قد وضعوا أسس الحكم وقرروا الشرائط التى تسوغ للحاكم حكمه والدستور الذى يقيم عليه الملك ملكه ؛ ثم ما لبثت تلك الأفكار أن تبلورت نصوصاً مكتوبة فيما صدر من نصائح جرت على لسان « خيتى » أحد ملوك أهناسيا من ذلك العصر إلى ابنه « مريكارع » ، حيث بسط أصول الحكم الصالح وأعباء الحاكم الرشيد ، وشرح حق الرعية عليه وواجبه نحوها .

وقد كانت الأفئدة يومئذ قد تحولت إلى معان جديدة ومبادئ جليلة فغلبت فيها على المادة الروح ، إذ رأت السعادة فى صالح الأعمال وفيما يكتسب المرء من الفضائل ، فأشادت الأقلام بالنظام والعدالة وبشرت بأن الخلود لا تسوغه وجاهة أو ثراء وإنما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات ، وهى بهذا قد أرهصت بما علم الأنبياء ، وأعدت الناس لما يبعثون به كافة للناس من رسالة ودين ، بل نطقت بما ثبته الأنبياء بعد عصرها بلفظه ومعناه .

ولا شك أن إبراهيم قد أفاد مما رأى وسمع ، حيث طفق يتأمل ويسائل نفسه فيما شهد من سيرة الناس وليتبين الهدى فيما يعبدون من نجم وقمر وشمس .

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن

لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »

(الأنعام ٧٥ــ ٧٩)

٣

يوسف

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » .

كان دخول يوسف مصر على المشهور أيام احتلال الهكسوس مصر . وقد كانوا قوماً آسيويين ساميين أو تغلب فيهم العناصر السامية من سوريا وفلسطين . دخلوا مصر أواخر الأسرة الرابعة عشرة غزاة فاتحين يغريهم ضعف البلاد السياسى وتغريهم ثروتها وخصب أرضها ، وتدفعهم من مواطنهم فى ذلك العصر ظروف طبيعية صعبة ساد فيها الجفاف وصوح الزرع وقلت الموارد ، وحل القحط الذى بلغ ذروته ثم امتد حتى شمل مصر فى أعقاب مجىء يوسف بسنين .

ولقد ترك فتح الهكسوس مصر أثراً لا يمحى فى نفوس المصريين . تحدث عنه المؤرخ المصرى « مانيتون » فيما روى عنه مؤرخ اليهود يوسف ، فيقول : « وكان هناك ملك لنا يدعى « تيماوس » وقع فى عهده — لا أدرى كيف — أن غضب الله علينا فجاء على حين غفلة قوم من أصل وضيع من ربوع الشرق ، كان فيهم من الجرأة أن حملوا على بلادنا وبسهولة أخضعوها بالقوة ، وإن كان ذلك بغير الالتحام فى معركة معهم ، فلما أخذوا حكامنا تحت سلطانهم عمدوا بعد ذلك فأحرقوا مدننا ونقضوا معابد الآلهة واستغلوا الناس استغلالا وحشياً ، إذ قتلوا بعضهم وساقوا أبناءهم وأزواجهم أسرى » .

وتحدثت « حاتشبسوت » من بعد انحسار دولتهم وانقضاء زمانهم بنيف وسبعين عاماً تشير إلى ما أوقعوا بمصر بقولها :

« لقد أصلحت الخراب وأتممت ما كان ناقصاً قبل مجىء الآسيويين إلى هوارة فى الأرض الشمالية ، وكان بينهم يومئذ من البرابرة من وجهوا

جهدهم إلى تخريب العمائر جهلا منهم بوجود رع » .

ثم لم تلبث حياة الاستقرار أن هذبت الهكسوس فأخلدوا إلى ما وجدوا من المدنية والحضارة المترفة التى أتاحتها الحياة المصرية إذ ذاك . فاتخذ ملوكهم ألقاب الملوك المصريين وآلهتهم وأطرافًا من حضارتهم ؛ وتسموا ببعض أسمائهم ، واتبعوا فيما بعد نوعًا من التعايش السلمى مع عواهل مصر وأقيالها الوطنيين فى أقصى الصعيد ، ولقد صورت لنا ذلك وثيقة بردية تحدثت يومئذ عن ملك طيبة « كاموسى » أنه لما عزم على إجلاء الهكسوس واستئناف القتال معهم قال : « وددت لو أعلم فائدة قوتى ، وفى هوارة أمير وفى النوبة آخر . إننى لأجلس هنا بين آسيوى ونوبى ، حيث يقبض كل منهما جزءاً من مصر ويشركنى الأرض ، إننى لن أتركه . . . انظروا إنه يحتل خمونو (الأشمونين) » ، فقال بعض جلسائه من الأشراف : « أجل ، لئن كان الهكسوس قد أدركوا القوصية وأخرجوا لنا جميعًا ألسنتهم فما زلنا نملك نصيبنا من مصر هانئين ، فالفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية ، وأحسن حقولها تحرث من أجلنا وثيراننا ترعى فى الشمال والحبوب ترسل إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا » .

ومهما يكن من شىء ، فقد اتخذ الهكسوس عاصمة ملكهم فى شرق الدلتا فى مدينة حوت وعرت (هوارة) حيث فتحوا أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بنى جلدتهم فدخلوها أفواجًا لا يصدون عنها ، وكان منهم من غير شك الرعاة الذين أقبلوا على مصر يطلبون الحياة السهلة والإقامة الناعمة والمرعى الغزير ، ولعل ذلك ما حدا بالمؤرخ المصرى « مانيتون » إلى تفسير اسم الهكسوس بملوك الرعاة .

وفى هذا الزمان الذى أظل مصر ، أقبل يوسف عليها . وكان ملوك الهكسوس من غير شك قد أدخلوا بعض المصريين من أهل الدلتا المحتلة فى خدمتهم وانتحلوا بعض عادات المصريين وبعض أسمائهم ، وربما دل على ذلك اسم العزيز الذى اشترى يوسف وأدخله فى خدمته « فوطيفارع »

وهو اسم مصرى مصحوف عن « پادى پارع » بمعنى عطية رع .

* * *

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكل وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

(يوسف ٧ — ٩)

بدأت قصة يوسف بالحقد الذى ثار فى نفوس إخوته لما رأوا من حب أبيه إياه وإيثاره عليهم ، فاجتمعوا على النيل منه وتآمروا على المباعدة بينه وبين أبيه ، أو فليكن قتله حلا لحب يفتقدونه فى أبيهم وضغن استقر فى نفوسهم لا يكاد يريم . ومع ذلك فقد كانت للقتل بشاعة ترهق نفوس الإخوة وتردها عن اقترافه والتورط فيه واحتماله ، فلينصرفوا عن قتل أخيهم وليؤثروا المباعدة بينه وبين أبيه بإلقائه فى البئر حيث يلقى ما قدر عليه من مصير لا يستثنى منه الموت .

« قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

(يوسف ١٠)

وقد قدر ليوسف أن يدخل مصر عن هذا الطريق . إذ استأذن إخوته أباهم يعقوب فى اصطحابه إلى حيث يرتعون ويلعبون زاعمين .

« قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » (١٢) .

وظاهر أنهم كانوا تقدموا إلى أبيهم من قبل فى اصطحابه والخروج به فأظهر الخوف عليه والشك فيهم ، وقد كان يعلم أن فى نفوسهم وقلوبهم ذئباً ضارياً يتربص به ريب المنون .

« قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » (١٣) .

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . . . (١٥)

« وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين (٢٠)

ولقد حمل يوسف إلى مصر حيث كانت تجارة الرقيق من البنين والبنات الآسيويين تلقى يومئذ من الرواج مايدل عليه ما كشفت عنه بردية فى متحف بروكلين بنيويورك الآن(١) . فقد جاء فيها ذكر مايربو على أربعين آسيوياً من نيف وثمانين كانوا يعملون خدماً فى بيت واحد فى عصر الأسرة الثالثة عشرة قبيل مجيء الهكسوس . ولم يكن من سبيل بحكم ما هو معروف من تاريخ تلك الفترة وأحوال مصر المتواضعة أن يكون هؤلاء مع إخوان لهم فى بيوت أخرى ، من أسرى الحروب فى زمان لم تقع فيه حروب .

بيع يوسف إذن فى مصر لعزيز مصر « فوطيفارع » ، حيث أنزله منزلا طيباً ببيته وأوصى به امرأته .

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزى المحسنين »

(٢١ – ٢٢)

على أن الأيام لم تشأ أن تصفو ليوسف على طول المدى ، فقد أقام فى بيت العزيز مكرماً متمتعاً بثقة سيده الذى عهد إليه بشئون بيته وماله ،

---

(١) Pritchard, op., cit, p. 553;
William C. Hayes, A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum (Brooklyn Museum 1955).

ولكنه كان فى أثناء ذلك ينمو ويتفجر جسده بالقوة الناضجة والشباب الزاخر ، فيروق امرأة العزيز .

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب »

(٢٣ – ٢٥)

هنالك ادعت عليه السوء ورمته بالعدوان واتهمته عند زوجها بالخيانة والغدر واستعدته عليه وطالبت بتعذيبه وسجنه .

« قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسْجَنَ أو عذابٌ أليم » (٢٥) .

فما كان من الزوج حين دفع يوسف عن نفسه التهمة عليها حين « قال هى راوَدتْنِى عن نفسى » إلا أن يحقق قولهما .

« وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت وهو الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصَه قُدَّ من دُبُر » ، وتحقق من كذب امرأته وخيانتها ولاح نصب عينيه شبح الفضيحة والذل : « قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

(يوسف ٢٨ – ٢٩)

غير أن أنباء الفضيحة سرعان ما تترامى إلى الناس ، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز ويتناقلنها بينهن .

« وقال نسوة فى المدينة امرأةُ العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنا لنراها فى ضلال مبين » (٣٠) .

وأى ضلال أشد ومصيبة أنكى من أن تراود سيدة من نساء الحكام

عبداً لها وفتى من خدمها يصغرها سناً ومنزلة ومكانة إن كان له أو لمثله فى المجتمع مكانة . ولكنها مع ذلك قد كانت تتلمس لنفسها العذر فيه ، وترى ألا قِبَل لها ولا لامرأة تراه بغير ما فعلت .

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم » .

(يوسف ٣١ — ٣٤)

فقد تحولت الأمور إذن إلى صراع بين المرأة والفتى ودخلت كما يقال فى دور من العناد والمغالبة غريب . هى بتهالكها الذى انكشف عن تبجح سافر وكبر خائر ؛ وهو بإصراره الذى لاسبيل له إلا إلى المضى فيما بدأ وأعلن للناس . ولكنه مع ذلك لم ينج منهم ومن كيدهن وتحالفت عليه قوى البغى فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الأبلج وأساء إلى الخلق المتين .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » .

* * *

صورة دقيقة لمجتمع فاسد آثم ، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس فى مصر من فساد وانحلال ، ولو لم يكن لدينا عن مصر فى ذلك الزمان سوى تلك القصة لاتخذناها وحدها دليلا على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء ، ولنفيناها عن المصريين ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبى مطمئنين ، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء فى مصر وتخرج عن سليقة المصرى بما ركب فيه من الأنفة والحمية والكرامة والكبرياء ،

ولقد نظرنا — كما قدمنا — إلى بعض قصص التوراة لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصصها وأدنى إلى مجتمعها ، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الأصيل وتخالف تقاليدهم وأذواقهم خلافاً كل خلاف . فما كان لمصرى أن يحتمل أو يسكت كما أراد يعقوب وقد تعرضت ابنته دينة لاغتصاب شكيم ابن حمور. (تكوين ٣٤ : ١ — ٣٠) أو يصبر عن مثل ما روى عن بكر بنى إسرائيل راءوبين إذ : « ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع إسرائيل » (تكوين ٣٥ : ٢١) . ولا كان المجتمع المصرى ليطيق ما فعل داود مع أوريا وزوجه كما قدمنا ، ولا ما اقترف ابنه أمنون بن داود وقد احتال حتى اغتصب أخته ثامار بنت أبيه داود اغتصاباً (صموئيل الثانى ١٣ : ١ — ٢١) فلقد كان المجتمع المصرى القديم مجتمع التقوى ومكارم الأخلاق ، وكان حكمه على مثل تلك الجرائم عنيفاً قاسياً ، فلم يكن المصرى ليقبل فى الخيانة والخنا هوادة ولا ليناً ، وكان « اسم الزوجة حين تتهم بالإفك عند زوجها » مضرب المثل فى البشاعة والمقت كما ورد فى قصيدة المصرى الذى كره الحياة وحدث نفسه بالانتحار وانحدرت إلينا بالخط الهيرطي من عصر الدولة الوسطى على بردية يحفظها اليوم متحف برلين [١] .

قصص المصريين وآدابهم مرآة لخلقهم القويم

ومما يروى من قصص المصريين ما يصور مثلهم العليا التى كانوا بها يستمسكون ، ويصور ما تغلغل منها فى حياتهم وأحاديثهم ولو جرت للتسلية وإزجاء الفراغ . روى عن خوفو صاحب الهرم الأكبر فى بردية وستكار [٢] أنه جلس يوماً وحوله الأمراء من بنيه يتحدثون إليه ويسمرون

(١) A. Erman, Gespräch eines Lebensmüden mit Seiner Seele (1896).

(٢) A. Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar (1890) 1, 20-4, 10; G. Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949), p. 70 - 77.

معه ، فحدثه « خفرع » من عهد سلف له من الملوك عن كاهن من حاشيته المقربين يدعى أوبا أوْنر ، كانت زوجه تعلقت بفتى من أهل المدينة كان ينسل إلى قصر ذلك الكاهن فينفق معها — فى غياب زوجها — سحابة النهار فى كوخ منعزل فى حديقة القصر عند البحيرة فيها . حيث ينزل الفتى ليغتسل فى أعقاب خلوته . على أن ناظر الحديقة ، وقد سدرت المرأة فى غيها ومضت فى ضلالها زمناً ، قد عمد فمشى بخبرها إلى زوجها ، الذى صنع من الشمع كهيئة التمساح فألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم ، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى الماء . ثم تحدث الكاهن بخبر زوجته الخاطئة إلى الملك ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكى التمساح ، هنالك وقف الملك على حافة البحيرة مع الكاهن الذى نادى التمساح فخرج إليهما بفريسته ، وأمره الملك — وقد فزع من منظره — أن « خذ مالك » فنزل به التمساح إلى الماء « ولم يعرف له أحد بعد ذلك من مصير » ثم طلبت الزوجة الخائنة بخيانتها فاقتيدت إلى ساحة شمالى القصر حيث أحرقت علناً وألقى رمادها فى النهر ، وذلك عقاب الزانية المحصنة فى ذلك الزمان .

وثمة قصة أخرى من قصص المصريين بدا حرصهم فيها على رفع سلطان العدل وحرمة الأخلاق ، إذ انحدرت إلينا على بردية استقرت اليوم فى المتحف البريطانى باسم بردية « تسشتر بيتى » الثانية (١) . قصة بطلها الحق والباطل ورد فيها أن الحق كان له ولد من زواج لم يشهر للناس ، فلما أرسل إلى المدرسة سمع من أترابه غمزاً فى نسبه وتساؤلا عن أبيه المجهول ، فعاد الولد إلى أمه يسألها عن أبيه قال : « ما اسم أبى حتى أخبر به زملائى فإنهم يقولون فى خبث أين أبوك . كذلك يقولون ويؤلموننى » . ولقد أوجب

---

(١) Hieratic Papyri in the British Museum, *3rd* series, Vol. I, p. 2 - 6 & Vol. II, pls 1 - 4 (London 1935); Lefebvre, op. cit., p. 159 - 168.

الولد – مع صغر سنه – على أمه الموت حين أوشك أن يتهمها ويظن بها الظنون ، وحكم بما نستنتج أنه عرف المصريين يومئذ وتقاليدهم ، بأن يدعى رجال أسرتها ليجبهوها بذنبها وليلقوا بها إلى الهلاك فى النهر إلى تمساح يفترسها جزاء وفاقاً لما اقترفت . وفى ذلك حكم من المجتمع المصرى شاء مصنف القصة أن يجرى به لسان صبى على من كانت له الردء والسند والحنان ؛ حكم يصدر من ولد على أمه إعلاء لما لا يجاوزه ولا يعلوه شىء من دعائم الفضيلة والأخلاق ، ولا شفيع عنده فى ذلك ولو كان البر بالأمهات .

ولقد حفظت لنا فضلا عن ذلك قصة كانت أقرب شبهاً بقصة يوسف وإن خالفتها فى موقف الزوج المخدوع . تلك هى قصة الأخوين التى يحفظها المتحف البريطانى على ما يسمى ببردية دور بينى (١) . وهى تجرى – كما شاء لها المصنف – فى ريف مصر حيث الزراعة عماد الحياة ، وحيث النظام الاجتماعى الذى يوجب على الأخ الأكبر القوامة على أخيه اليتيم ، فيضمه – كما فعل العزيز – فى بيته بينه وبين زوجته ، حيث كانا له بمثابة الأب والأم . والرجل يعتمد فى ذلك على ما ساد المجتمع يومئذ من إخلاص الزوجة وأمانة الأخ وعرفانه ، ثم لا عاصم أو رقيب بعد ذلك إلا الفطرة السليمة والخلق القويم ؛ وقد مضت القصة فروت أن الأيام قد تتابعت على الأخ الصغير ، وهو يشب وينمو ويتفجر جسده بشباب ناضج وقوة عارمة ؛ وتنظر الزوجة إلى سلفها فيعجبها شبابه الفائر العنيف فتراوده عن نفسه – كما فعلت امرأة العزيز – غير أن الفتى يغضب لما تردت فيه زوج أخيه التى كانت له – كما قال لها – بمثابة الأم ، من الخيانة والإسفاف ؛ وينتهرها انتهاراً عنيفاً ، ولكنه يعدها بكتمان أمرها عن أخيه الذى قام منه بمنزلة الأب . على أنها تخشى علم زوجها بما وقع منها فتبيت فى نفسها أمراً .

---

(١) Möller, Hieratische Lesestücke II (Leipzig 1927) pl. 1 - 20; Gardiner, Late Egyptian Stories (Bruxelles 1932), p. 9 - 76; Lefebvre., op. cit. ,p. 137 - 158.

فإذا عاد زوجها إلى البيت مع المساء ألفى البيت مظلماً وألفاها راقدة تتأوه من مرض وألم مزعوم ، فلم تنهض لاستقباله أو إنارة البيت وصب الماء له . ثم زعمت له حين سألها أنها تعرضت من أخيه بعد أن راودها عن نفسها للعدوان ومحاولة الغصب ثم الضرب . وإذا بالأخ الأكبر يثور ثورة هائلة كأنه الفهد الضارى ويشحذ خنجره ليفتك بأخيه ، ثم طفق يطارده حتى كاد أن يدركه لولا أن حال بينهما نهر غاص بالتماسيح فوقفا على ضفتيه يتحدثان . واستطاع الفتى أن يشرح لأخيه الحق ويبرئ نفسه ، وإن كان قد أعلن إليه أنه لن يساكنه ولن يقيم فى بلد هو فيها بعد اليوم ، ثم رحل عنه إلى وادى الأرز فى لبنان . وعاد الأخ الأكبر حزيناً كاسف البال إلى بيته ، حيث انتقم من زوجته بقتلها وإلقاء جثتها للكلاب ، وذلك أبشع صور الانتقام فى نظر المصرى القديم ، حيث الحرمان من الدفن والشعائر الجنزية حرمان من الحياة الأخرى وقضاء بالفناء الأبدى الذى كان يفرق منه كل مصرى ويخشاه على الجسد والروح جميعاً .

كان ذلك فعل الفلاح المصرى — ومعه رأى المؤلف المصرى والمجتمع المصرى — حين تلقى النبأ بخيانة زوجته ، وشتان بينه وبين عزيز المكسوس حين تلقاه عن زوجته هادئاً وقد شهد شاهد من أهلها ، فما زاد على أن قال : « استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » . وقد كان من أمثلة المصريين السائرة ما يدل على مسئولية الرجل عن بيته ووجوب اليقظة لزوجه حتى يجنبها مواطن الزلل ، فإن زلت كان ذلك عن إهمال أو تراخ منه ، فكأنما وقع برغبته ورضاه إذ قالوا فى أمثالهم : « إنما تنكح المرأة برغبة زوجها» وفى ذلك المثل من البشاعة والتحريض ما يثير الرجل — أى رجل — ويقميه على التحفز لكل شبهة تحوم من حول زوجه أو تنال من سمعتها وسمعته أجمعين ، ولذلك كانت قسوة العقوبة التى لم تأخذهم فيها شفقة أو رحمة

وحرضت عليها تعاليم عنخ شاشانقى[١] فى قوله : «لا تقتل حية وتترك ذيلها» .

وفضلا عن ذلك فقد كان المصرى أدنى إلى الطهر والتعفف بحكم ورعه وتقواه وبحكم وثيق إيمانه بأن الجريمة لا تفلت بغير عقاب ، وأن الجزاء عاجل من جنس العمل ، إذ رسخ فى أعماقه من قبل المسيح ما قال المسيح عليه السلام : « بالكيل الذى تكيلون به يكال لكم ويزاد » ، وعن تلك العقيدة صدرت تعاليم عنخ شاشانقى فى قوله : « من نكح زوجة على سريرها نكحت زوجته على الطين » و« من نكح زوجة قتل على عتبة دارها »[٢] .

ولم يكن المجتمع المصرى أيام الفراعنة — على كل حال — مجتمعاً من الملائكة والأولياء الذين لا يقترفون إثماً أو يرتكبون سوءاً ، ولن نعدم المارق ولا الخارج فى مجتمع أنّى كان . ولكن الحديث إنما يعالج صبغة المجتمع الغالبة وخصائصه البارزة وتقاليده السائدة وموقفه من المارقين . وشتان بين مجتمع يرضى أو يتغاضى عن السوء ومجتمع يرفضه ويأباه ويعاقب عليه .

ومن شواهد الحفاظ على الفضيلة والحياة السوية ما كتبه رجل إلى زوجته المتوفاة التى كانت فيما يبدو أسنّ منه قال :

لقد اتخذتك زوجة حين كنت يافعاً

وظللت معك وقد تقلدت وظائفى

ظللت معك ولم أبعدك ولم أحزن قلبك

فعلت ذلك وقد كنت شاباً أتقلد كل خطير من المناصب لفرعون دون أن أبعدك

قائلا لقد ظللت معى (دائماً)

---

(١) Glanville, Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum Vol. II. The Instructions of Onkhshashanky (Londou 1955).

(٢) op. cit., p. 49, 53.

فما وجدتنى أهملتك بدخولى منزلا آخر
ولما مرضت . . . طلبت طبيبًا ماهراً بمرضك
ثم بكيتك مع أهلى
وها قد أمضيت ثلاثة أعوام مقيمًا (وحدى)
لا أدخل بيتًا (أى لا يتزوج)
برغم أنه لا يصح لمثلى أن يفرض عليه ذلك (١) .

وإذ قال آنى لابنه وهو يعظه :
احذر المرأة الغريبة المجهولة فى بلدتها
لا توجه إليها لحاظك ولا تقارف إثمًا معها
إن البعيدة عن بعلها لتقول دائمًا لك إنى جميلة
وفى غيبة الرقباء تتصدى لك بشباكها
ما أشدها من خطيئة تستحق الموت إذا المرء استجاب لها .

تلك دعائم المجتمع المصرى من رفض الزلل والحملة على السوء ، حيث قامت من نفس المصرى فى مواقع العقيدة التى ألهمته القوة فيما حل به من ملمات وما نزل به من نوازل وخطوب ، فكانت له الذخيرة التى أخرجته من المحنة بعد المحنة واجتازت به النكسة بعد النكسة .

وحسبنا من دليل على أصالة نفسه ونبل مشاعره ما انتهى إلينا من فيض آثاره وآيات فنه على مدى الأجيال والقرون وتقلب الأحقاب والعصور ، فإذا بها على سمت من الجلال والوقار حتى لتكاد تخلو مما ينبو عن الذوق السليم أو يند عن الخلق القديم .

ولقد أقام المصرى تاريخه كله على رفض ما لا يستقيم مع خلقه والحملة عليه والتحذير منه ، حريصًا على ما وجد آباءه عليه من العادة والتقليد

---

(١) Gardiner-Sethe, Egyptian Letters to the Dead (London 1928), p. 8 f.

عاكفين ، فكان استمساكه بذلك أمانًا يقيله من محنته وقاءً يرده عن عثراته .

ونستطيع أن نتبين هذه القيم الأخلاقية الرفيعة فيما تواتر إلينا من نصائح الآباء إلى الأبناء وما كانوا ينقشون فى قبورهم من إشادة بصلاحهم فى القول والعمل وبرهم بالناس واحترام حقوقهم ، وما ينبغى أن يتزود به الرجل من دنياه لأخراه من صالح الأعمال . وما من شك فى أن المصريين منذ الدولة القديمة قد كانوا يؤمنون بالأجر والمثوبة فى الآخرة على ما قدم الإنسان فى الدنيا من خير ، ويؤمنون بما سوف يتولاه « الإله العظيم » فيهم من الحساب أو « فصل الخطاب » على حد تعبيرهم . ولقد كان الوازع الدينى وإيمان الناس بالحساب عميقًا فى النفوس ، وكان المصريون فى معاملاتهم بعضهم مع بعض يعتمدون فى ضمان حقوقهم وسلامة أملاكهم وقبورهم على ذلك الوازع الخلقى والدينى ، وعلى استشعار الخوف من الحساب فى الآخرة ، ولذلك فقد كان ديدنهم فى القبور منذ الأسرة الرابعة تذكير الناس ممن تسول له نفسه الاعتداء على القبر بذلك الحساب الذى سوف يتولاه العظيم فى مكان الحساب فى الآخرة . ويبين لنا ما لهذا الإيمان من وازع فى النفوس ما حدث به « رمنوكا » من الأسرة الرابعة عن ورعه وتقواه بأنه إنما امتنع عن أن يرزأ أحداً فيما يملك لأنه تذكر حساب الإله فى الآخرة .

وخلاصة البر الذى يؤهل الإنسان للحياة الرغدة فى الآخرة أن يكون طيب الذكر حسن الأحدوثة بين الناس وأولى القربى بنوع خاص ، فيكون برًّا بأمه وأبيه ويظفر بحب إخوته وتكريم أقرانه وأصحابه وأن تظفر الزوجة بحب زوجها وتكريمه ، وأن يكون حلو الشمائل يتحدث بالحق ولا يقول إلا طيبًا ولا يردد إلا طيبًا ولا يتقول على أحد بسوء .

ثم بلغوا أقصى مراتب البر أن يرحموا الفقراء والمساكين ويرزقوهم من أموالهم فيطعمون الساغب ويكسون العارى ويتعهدون من يوافيه أجله ممن لا ولد له بالدفن والأكفان ، ويتصدقون بالعون والمساعدة على من قعدت به السبل عن

أن يكون له زورق يعبر به ، بل يحرص المرء على ألا يبيت أحد من الناس وهو غير راض .

وقد كان احترام الحقوق وكف النفس عن الغصب والظلم وحرمان الناس أشياءهم فضيلة أخرى يرجو الناس بها المثوبة بعد الموت ، وكانوا كما نقول نحن اليوم يكسبون فى اعمال الثواب من الله ويبتغون عنده الوسيلة والمنزلة بهداية الناس إلى حمده ، وذلك كما كتب إيدو فى قبره : « لقد جعلت الله يحمد من المفنين الذين صنعوا هذا القبر إذ أرضيتهم بكل شيء طلبوه منى حباً فى أن أكون معظماً عند الإله » . وكانت دوافعهم الخلقية هذه كلها صادرة عن إيمان بالإله الحكم العدل الذى يملك الثواب والعقاب خوفاً وطمعاً ، وفى ذلك يقول أحد الأشراف : « ما ظلمت أحداً فيما يملك حتى يشكونى إلى إله المدينة » ، وكذلك فقد كان ينبغى على من دعته قدرته إلى ظلم الناس وتسخير بناتهم أو غصب أملاكهم أن يتعففوا عن ذلك كما أعلن حنكو فى قوله : « لم يحدث أن سخرت بنت أحد »[1] .

وبعد ، فهذا مجتمع وذلك مجتمع .

هذا مجتمع مصر الصريح وذلك مجتمع الدخلاء القبيح .

ونعود بعد تلك الوقفة إلى يوسف فى بيت العزيز .

فقد استطاعت امرأة العزيز مع ذلك أن تدبر له عند زوجها وتتآمر عليه حتى أرسله إلى السجن ، « ودخل معه السجن فتيان » . (٣٦) .

ثم تشاء المقادير التى دفعت بالأحلام إليه فى موطنه ومسقط رأسه قبل أن يخرج منه أن تدفع بين يديه بحلمين رآهما الفتيان من صاحبى السجن لتخرجه من السجن . « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين » (٣٦) .

---

(١) انظر Sethe, Urkunden des Alten Reiches Bd I, S. 46, 150, 170, 171, 173, 80, 251, 255, 186, 120, 75, 71, 77 . . . etc.

وتصدى يوسف لتأويل الحلمين قال : « يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » (يوسف ٤١–٤٢)

وقد كان خرج الفتيان كل لمصيره . ويشاء الله لكى يحق الحق بكلماته ويحكم بأمره أن تزور الملك الطيوف والأحلام .

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٤٣ — ٤٤)

وإذا برفيق يوسف فى السجن يفيق . « وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون» (٤٥) ، وقصد الفتى إلى يوسف يسأله تعبير الحلم ويستفتيه فيه « يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » (٤٦) .

« قال تزرعون سبع سنين دأبًا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون » (٤٧— ٤٨) ثم عاد يوسف فأضاف بعد أن عبر حلم الملك أو حلميه فتكهن بما سوف يعقب السنين الشداد من الخير الذى يعم الناس فقال : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون » (٤٩) .

قال النسفى فى تفسير ذلك : « أى يجاب مستغيثهم وفيه يعصرون العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الأشربة والأدهان ، ويقول ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجىء مباركًا كثير الخير غزير النعم » .

وقد كان إذا انقضت أعوام المجاعة — وهى دائماً أو تكاد تكون

من أثر انخفاض النيل – عاد النيل إلى وفائه المعتاد وارتد الناس إلى حياتهم الأولى وارتدت إليهم حياتهم الأولى ، فينثرون الحب ويرجون الثمار من الرب كما وصف عمرو بن العاص . وربما أتت الأرض بعد ذلك برزق موفور بعد الذى نالت – على الرغم من أصحابها من راحة طويلة وما تخلل شقوقها الجافة من الأزوت . وإلى ذلك أشار أمينى أحد حكام الأقاليم إذ قال : « ثم جاء النيل بأمواه عظيمة تحمل القمح والشعير وكل شيء » .

فقد تحدث القرآن بما بشر به يوسف عن رخاء يعم مصر من بعد السبع الشداد ، وكذلك تواتر إلينا من أخبار تلك الحقبة من تاريخ مصر نص يكشف عما تمتعت به البلاد أواخر حكم الهكسوس من وفرة ورخاء كاد يلهى المصريين أو بعض المصريين من كبار أصحاب الأرض الأثرياء ، إذ ضاق كاموسى ملك طيبة بمكانه بين آسيوى فى هوارة فى الشمال ونوبى يحكم فى الجنوب فما كان جواب بعض جلسائه إلا حب السلامة وإيثار العافية قائلين : حقاً لئن كان الآسيويون قد امتدوا حتى القوصية فمازال خالصاً هائناً لنا نصيبنا من مصرنا . فاليفانتين قوية والأرض الوسطى معنا حتى القوصية وأجود حقولها تحرث لنا، وثيراننا ترعى فى الشمال والقمح والشعير يرسل إلى خنازيرنا ولن تؤخذ منا ثيراننا .

المجاعات فى مصر

وقد كانت مصر عرضة للمجاعات وفترات من تدهور الإنتاج الزراعى والحيوانى على مر العصور . وقد كان ذلك فى أكثر الأحيان من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه وإخلاله بالوفاء كما تعود وتعود منه الناس كل عام . فإذا تدهور وأقام على نقصانه لم تكد مياهه لتصل إلى الأرض التى تتحرق شوقاً إليه وتنتظر العام كله أو جله للقائه ،

وعندئذ فلا رى ولا استنبات ثم لا زرع ولا ضرع فتكون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد .

وكان فيض النيل على كل حال صاحب الزمام فى الحياة المصرية ومفتاحها . به تكون الزراعة التى تمير أهلها عامهم كله ، وبفضله تعلموا منذ أقدم العصور ادخار الحصيد والقصد فى إنفاقه حتى يعود الفيض الجديد ، فلقد أعثرنا منذ حضارات العصر الحجرى فى مصر وطلائع تاريخها على مواضع ادخار الغلال . بل لقد كان انحباس النيل ونضوب موارد الدولة وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسى وتحلل السلطة المركزية وتدهور الأمن واضطراب النظام ، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع شراً مستطيراً وشقاء متصلا قائماً يحل بالناس فيترك فى نفوسهم وعقولهم أثراً لا يمحى أولا يكاد يمحى ، ويقيم فى أذهانهم ذكريات تصور بعضها عبارة لهم عن عام اشتدت قسوته واستشرى فيه الجوع فى الناس والحيوان فسموه عام الضباع . وهو يذكرنا بما أطلق الناس على عام القحط الذى نزل بالمدينة أيام عمر بن الخطاب من عام الرمادة .

وقد يبالغ النيل فى فيضه أحياناً فتتعظم أمواهه وتضرى أمواجه فإذا هو يندفع طوفاناً عنيفاً مدمراً مغرقاً كل شىء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الأرض إلا وقد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الإنتاج أيام الحصاد سيئ المغبة ، وإن لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء ولقد جاءنا من الأنباء عن فيض النيل أنه طما على عهد بعض الفراعين وأنه ارتفع خاصة فى عهد « طهرقة » من الأسرة الرابعة والعشرين حتى غمر الأرض من معبد الأقصر .

ولقد كانت الثورات الداخلية والحروب الأهلية وما قد يسود البلاد من كوارث ومن فساد النظام وضعف الرقابة أثره الهائل وثقله المبهظ فى تقاعس الناس وشل همتهم عن العمل وانصرافهم عن الإنتاج ،

ثم فيما يترتب على ذلك من شكوى الناس من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . نسوق من ذلك شاهداً من حديث لبعض الحكماء من عصر الفترة الأولى يقال له إيبوور قال : « إن الرجل ليذهب إلى حرثه وترسه معه ، انظر ، لقد شحبت الوجوه وأصبح الرماة متحفزين فى كل مكان ، لقد انعدم رجل الأمس ، ولكن اللصوص فى كل مكان إن النيل ليفيض ولا من يحرث ؛ وكل امرئ يقول لسنا ندرى ماذا حل بالبلاد ، ولقد عقمت النساء فهن لا يحملن ، وصار الكثير من الموتى يدفنون فى النهر . . .ودمرت المدن وأصبح الصعيد مقفراً وزحفت الصحراء على البلاد »(١) .

ومهما يكن من شيء ، فلقد بلت مصر من القحط والمجاعات الكثير على مر للعصور . وكان الصعيد – بخاصة – بحكم ضيق الوادى وارتفاع أرضه عن النيل وعسر الرى فيه أدنى إلى المجاعة وأقرب إلى القحط الذى كان أفعل فى أرضه وأبعد أثراً فى أهله مما كان فى الدلتا المتسعة الخصيبة ذات الرزق الوفير . وربما بلغت المجاعة من العنف والشدة حد القسوة التى تكاد تهوى بالناس من فطرة الإنسان السوى إلى ضراوة الوحش الوالغ فى الدماء ، فلقد نزلت بمصر مجاعة على عصر الفترة الأولى وصفها شريف من أهل الصعيد يقال له « عنخ تيفى نخت» قال : « وكان الصعيد بأسره يموت من الجوع والرجل يأكل أطفاله »(٢) .

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير

---

(١) Pritchard, op. cit., p. 441.

(٢) وقد كان من أعنف مانزل بمصر من المجاعات فى العصور الوسطى ماوقع فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى من جماعة حملت الناس على أكل القطط والكلاب ، بل وسوغ لهم أكل اللحم الآدمى الذى بيع علنا فى الأسواق . انظر : S. Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1914) p. 146.

إذ كانوا يدخرون غلة الأرض من أيام الرى لأيام الجفاف ومن يسرهم لعسرهم ومن رخائهم لشدتهم . وكانت حكمة الملوك والحكام وحسن تدبيرهم خليقاً أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون . ولو قد استمعنا — ولسوف نسمع بعد قليل — لأحطنا بما كتبوا خبراً مفتخرين بما كانوا يومئذ يجترحون لرزق الناس وغذوهم ، وبما كانوا يبذلون من الجهد فى استنتاج كل شبر من الأرض صالح للزرع تحت سلطانهم ، وبما كانوا يدخرون من الحصيد لتلك الأيام ، أو بما كانوا يجلبونه من أرض يتوفر فيها الرزق إلى أرض هى فى حاجة وعوز إليه ، وذلك كله مع حرص على شمول العطاء وعدالة التوزيع .

فى أسيوط كتب « خيتى » الثانى من الأسرة العاشرة يتحدث عما جلب من قمح الشمال وادخاره فيقول : « إنى غنى بقمح الشمال حيث كانت الأرض فى جفاف ، فأعشت مدينتى . . . وأذنت للصغير أن يحمل لنفسه من قمح الشمال مع زوجته وللأرملة مع ولدها ونزلت عن الضرائب التى وجدت آبائى قدروها »(١) .

أما « جفاى » من عصر الأسرة الحادية عشرة فلم يجد فى مدينته من حاجة إلى استيراد قمح من الشمال ، وإنما عمد إلى ادخاره فى قصره وكلف بذلك مساعده سنتى الذى يروى ذلك فيقول : « لقد كلت قمح الصعيد الذى يحيى تلك المدينة بأسرها فى قصر الحاكم أمير الكهان « جفاى » فى سنين الضيق والشدة(٢) » .

وأما فى بنى حسن من عصر الأسرة الثانية عشرة فقد تحدث « امينى » عن زيادة الإنتاج فيقول : وكان أن حدثت أعوام المجاعة فكان أن حرثت الحقول من إقليم الوعل حتى تخومه الجنوبية والشمالية ،

(١) Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne (Le Caire 1936), p. 101 f.

(٢) op. cit., p. 111.

وأعشت أهله وكفيته غذاء فلم يبق جائع فيه ، إذ أعطيت الأيم كالسيدة ذات الزوج ولم أميز عظيما على صغير . ثم جاء النيل بأمواه عظيمة حملت القمح والشعير وكل شيء ، ولم يحدث أن أثبت فى السجلات ضرائب على الحقول (١) .

وكذلك فعل فى الكاب حاكمها ببى من الأسرة الثالثة عشرة التى سبقت قليلا عصر يوسف والهكسوس قال :

« لقد كنت أكدس القمح المطلوب الجيد ، وكنت يقظاً فى فصل البذر فلما وقعت المجاعة على مدى الكثير من السنين أعطيت القمح مدينتى فى كل مجاعة » (٢) .

على أن العلماء على كثرة ما قرءوا من أخبار المجاعات فى مصر القديمة إنما يقفون خاصة موقف الفاحص المتأمل من مجاعة أخرى نقشت أخبارها على الصخر فى جزيرة سهيل جنوبى أسوان (٣) . ولئن كان الخبر منسوباً إلى العام الثامن عشر من حكم زوسر رأس الأسرة الثالثة ، فإن الذى لاشك فيه أنه إنما نقش فى تلك الجزيرة بعده بعشرين قرناً من الزمان ، نقشه كهان خنوم على عهد البطالمة فى مصر ، ولعلهم نقشوه فى حكم بطلميوس العاشر فى أكبر الظن (شكل ٣)

ولقد وقف العلماء على ما ورد فيها من أن المجاعة إنما حلت بمصر سبع سنين ، وعلى ما روى من أن الملك زوسر دعا وزيره الحكيم ايمحتب ليستفتيه فى تلك النازلة التى أحزنته ، وليعلم علم هذا الذى أصاب النيل فحبسه عن المجىء فى عهده سبع سنين فذوت الحبوب وصوحت الثمار وقلت الأقوات حتى لكأن الناس قد حرموا الأنفاس ، فلم ترقأ لطفل

(١) op. cit., p. 17, 114.

(٢) ibid

(٣) op. cit., p. 132 ff; P. Barguet, La Stèle de la famine à Sehel. (Le Caire 1953); Pritchard, op. cit., p. 31; cf. Brugsch, Die Biblischen sieben Jahre der Hungersnoth (Leipzig 1891).

(شكل ٣)

دمعة وأقام الشباب على الانتظار ، على حين امتلأت القلوب أسى فانحنوا على أطرافهم مدقعين ، واشتدت الحاجة برجال الحاشية وغلقت المعابد وعم الحزن الناس . ثم يمضى النص فإذا الرب خنوم — رب أسوان يتجلى للملك فى منامه فيعده وعداً حسناً ، وإذا هو يعلن إليه أن النيل لن يحتبس بعد عامه هذا ، وأن الفيضان سوف يقبل فيعم البلاد فينبت الزرع والفاكهة وتنقضى أيام المجاعة . فلما أفاق الملك قرر لربه هذا وقف الأرض من أسوان جنوباً حتى تاكومسو ، وذلك فيما عرف بلفظه

اليونانى باسم دلوديكا سخونيبوس بمعنى الفراسخ الاثنى عشر .

فإن النص ليتحدث عن مجاعة امتدت نسبع سنين وعن مشورة استشارها الملك من وزير عرف بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعن حلم رآه . وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتاً من واقع بعيد وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة قد كانوا تحت تأثير ما كان شائعاً يومئذ من أصداء الماضى السحيق ، وبما ورد فى التوراة من أخبار السنين السبع الشداد التى جرت بها السنة من كان بمصر يومئذ — وكانوا كثرة — من يهود . وإلى يهود مصر خاصة تعزى ترجمة التوراة إلى اليونانية من قبل إثبات هذا النص بما يقرب من قرن من الزمان ، وذلك فضلا عما كان لليهود فى اليفانتين من مستعمرة تطل بحكم الموقع على سهيل .

ولقد أقبل يوسف على مصر وهى ذات حضارة عريقة ونظام دقيق ضارب فى السنين ، إذ كانت الضرائب منذ القدم فى مصر وثيقة الصلة بفيض النيل ومنسوب مائه ، حيث كانت تفرض على الناس مما تنبت الأرض من بقلها وكتانها وحبها وبصلها ، ومما يستنتجه الناس من زيت وجعة ونبيذ ، وكان الحب من قمح وشعير أهم ما تستقبل خزائن الأرض حيث يقوم عليها شريف من كبار رجال الدولة يحمل أمير الأهراء (أميرا شنوتى) كان يشرف على كتائب من العمال والمساعدين والكتاب ، فمنهم من يقيس الأرض أو يكيل الغلال أو يثبتها فى الدفاتر ويحفظها فى الأضابير ، وكان على أمير الأهراء أن يرفع إلى فرعون أمر هذا كله وأن يحيطه بمقدار ما حصلته الخزائن خبراً . وكان فرعون بحكم منصبه ومكانه من الناس مسئولا عن رفاهية الرعية وكف البؤس عنها إن تعرضوا له . وكان حكام الأقاليم إنما يصدرون فى أقاليمها كما شهدنا — عن مثل تلك المسئولية وذلك الوعى الناضج فكلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته ، ولقد قدمنا من الأحاديث ما يكشف عن

وعى الحكام بذلك أشد الوعى وأرسخه ، كما انحدر إلينا عن أمنمحات الأول رأس الأسرة الثانية عشرة ما يكشف عن تلك المسئولية التى يستشعرها الملك حيث يقول :

إنى أنا زارع الحب ومحب رب الحصيد
لقد حيانى النيل فى كل واد
فلا جائع فى عهدى
ولا ظمآن كذلك .

كان الهكسوس إذن قد أقاموا فى مصر ملكاً لهم حيث استقر بهم المقام فى الدلتا واتخذوا عاصمتهم شرقيها فى هوارة (حت وعرت) غير بعيد من مواطنهم فى آسيا ، ثم لم يلبث الهكسوس حيث استقروا فى بلد له حضارته وثقافته أن أخذوا ما استطاعوا عنه وانتهلوا ما ساغوه من علمه ، ثم لم يلبثوا أن اتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية الخالصة ، على أن الصورة التى يوحى بها القرآن عن مجتمع الهكسوس فى مصر أيام يوسف أنه مجتمع أخلد إلى الرفاهية المفسدة فتراخت فى أهله النخوة وتداعت فيهم الهمة عن جليل الأمور ، حتى عز فى الدولة الرجال من أولى الحكمة والبصيرة وأهل العفة والأمانة وأصحاب الحزم والتدبير . وكيف لرجال فقدوا الحزم على بنيتهم وانحسرت غيرتهم عن أهلهم أن يتولوا دولة ناشئة فى بلد غريب ، ولما يرسخ كعبها فى أرضه ، لذلك فقد كان الملك فى حيرة من أمره يتلمس الرجال تلمساً .

ولا شك أن تعبير الحلم قد أعجب الملك إعجاباً شديداً ، فما كاد يسمعه ويقدر ذكاء الفتى السجين الذى عبره حتى أرسل فى طلبه . ولكن الفتى لا يجيبه ولا يسرع إليه حتى يضرب مثلا آخر فى الشجاعة وعزة النفس ، فهو لا يخرج من السجن ولا يريد أن يخرج منه أو يقصد الملك حتى يتم التحقيق فيما نسب إليه ظلماً من جريمة دفعت به إلى غيابته ، وحتى تظهر براءته ويرد اعتباره بشهادة النسوة اللاتى شهدن

هذه الواقعة وقطعن أيديهن لما رأينه ، ثم سمعن اعتراف امرأة العزيز التى كانت حيئذ مضيفتهن .

« وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العريز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم » .

(يوسف ٥٠ — ٥٣)

ولكن ذلك لا يزيد الملك — وهو فى عوز أشد العوز إلى الرجال — إلا حرصاً عليه ورغبة فيه وعزماً على اتخاذ قراره بإطلاقه واستخدامه .
« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه » وأدرك ذكاء قلبه ورجاحة عقله وأمانته وبعد نظره « قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » (٥٤) .

وكأنما عرض عليه مناصب الدولة وأدار معه الحديث فيما هم مقبلون عليه ويتوقعونه من شئون الدولة ومشاكلها وفى أمور الناس وحاجات الناس « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » وكان يوسف قد خبر ما صورنا من شئون البلاد ونظمها ، وطرائق عيشها وأساليب أهلها فيها . وذلك بحكم إقامته بها فى خدمة العزيز مدبراً أمور بيته محتملا ما يسند إليه من وظائف وأعباء . وكان فى أثناء ذلك وهو القريب النازح يدرس ما يجرى أمام عينيه فاحصاً متأملا مستقصياً أمور البلاد العباد ، متعرفاً ما يتبعون من عادة مستمعاً إلى ما يروون من عيون الأخبار ومن تاريخهم وتاريخ ملوكهم وحكامهم ، وكانوا بالرواية والتاريخ مشغوفين . وقد أجاب الملك يوسف إلى ما طلب من منصب فكان له

ما أراد ، وخرج من السجن ليتولى فى الدولة منصباً من أكبر مناصبها وأشدها فى ذلك الزمان خطراً .

« وكذلك مكنّا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » . (يوسف ٥٦)

وكان القحط الذى نزل بمصر قد امتد إلى ما وراء الحدود فشمل أرض كنعان فى فلسطين ، واضطر يعقوب تحت وطأته أن يرسل بنيه إلى مصر مشترين مستطعمين . « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » .

كانوا قد ألقوه فى غيابة الجب صبيًّا لم يتخذ من اللباس إلا ما يتخذ البدو من ثياب بسيطة لم يألفوا سواها ، وهم اليوم يدخلون بعد نيف وعشرين عاماً على فتى فى عنفوان الرجولة حليق العارضين إلا من لحية صغيرة قصيرة على الذقن ، وقد تزيا بثياب المصريين الأنيقة من نقبة وقميص من كتان أبيض يتحلى عند الصدر بطراز عريض مختلف ألوانه ، واتخذ من فوق رأسه شعيراً مستعاراً أو غطاء من تلك الأغطية التى شاعت عند المصريين فى تلك القرون . وأكبر الظن أنه حدثهم بغير لغتهم متخذاً فى لهجته سمت الإمارة وسطوتها . ولم يكن للإخوة أن يتخيلوا أن هذا العزيز أخوهم وابن أبيهم ، فلقد ألقوه فى غيابة الجب عاطلا من المال قد تقطعت به الأسباب فلا سند له من أهل ولا مكان له من وطن . وأكبر الظن أن يوسف قد طفق يتحدث إليهم ويستمع منهم ويسأل عن أبيهم وأمهم وإخوتهم وهم لا يعون من وراء تلك الأحاديث شيئاً ، ولا يحسون إلا أنها مما يجرى بين الغرباء حين يلتقون ، وكان مما حدثوه أن لهم من أبيهم أخاً أصغر لم يأت معهم لحرص من أبيهم عليه ، فتقدم إليهم فى رؤيته . وقد كانت نشأت بينه وبينهم — بحكم ذلك اللقاء — مودة عبر عنها بفضل فى إيفاء الكيل وبتكريمهم برعايتهم وقراهم وإنزالهم منزلا يجدون فيه الراحة والأمن ،

بل يجدون فيه شيئاً من ترف لم يتمتع بمثله مثلهم ، لذلك فقد كان خليقاً أن يطلب إليهم ما يشاء وأن يعبر عن رغبته فى رؤية أخيهم ذلك الذى لم يأت معهم ، فإن لم يأتوا به فكأنما هم يرفضون له طلباً يرضيه وينكلون عن إسداء مكرمة بمكرمة .

« ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » . (٥٩ — ٦٠)

ومع ذلك فقد كان حديث يوسف إلى إخوته حديثاً باطنه الرحمة وظاهره العذاب ، فلقد احتمل عن أهله وهو العظيم الموسر ثمن ما شروه .

« وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » (٦٢)

وظاهر أن تهديد يوسف بمنع الكيل قد كان خطيراً يفزع شبحه النفوس وأن القحط والمجاعة قد كانا يومئذ فى فلسطين أعنف وأفعل من أن يحتملهما أحد .

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » (٦٤) ومع ذلك فقد أنصت لإلحاحهم وإغرائهم .

« ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير » . (٦٥)

ومع ذلك فقد اضطر يعقوب تحت ضغط الحاجة وشدة العوز أن يرسل معهم أصغر بنيه على خوفه عليه وشكه فى إخوته أن يفرطوا فيه كما فرطوا فى يوسف ، واكتفى بعهد عليهم أن يحفظوه « قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ، فلما

أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » . (٦٦)

سبحان الله . أحد عشر فتى يخرجون على رواحلهم متقاطرين ، لا يشك الناظر فى وجوههم أنهم إخوة لأب واحد أجمعين ، تتشابه قسماتهم من جبهة عريضة وأنف أقنى وعين سوداء .

لا شك يعجبون المشاهد إذا شهد ، ويثيرون الحاسد إذا حسد .

« وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » . (٦٧)

وخرج الفتية إلى مصر قاصدين ، وكان لابد من طاعة الأب فيما أوصى به

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (٦٨)

ثم أقبلوا على العزيز مستأذنين .

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون » . (٦٩ – ٧١)

وشاء رجال يوسف المبالغة فى قدر المسروق وقيمته – إمعاناً فى إرهاب إخوته – فزعموا أن المسروق شىء أثمن وأخطر من السقاية ، وإنما هو من أمتعة الملك أو هو من ممتلكات الدولة الملكية « قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » . (٧٣) هم لا يشكون وما ينبغى أن يشك العزيز فى ذلك ، فقد كان تعرف بهم وتحدث إليهم وعرف من أمرهم كل شىء ، وعلم أنهم قوم مسالمون إنما أقبلوا يميرون أهلهم بما

يكتالون منه ، ولكن ذلك كله فضلا عن إنكارهم ودفاعهم لم يمنع من اتهامهم أولا ثم تفتيشهم ثانياً .

« قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » . (٧٥ ـ ٧٦)

وكأنا بالإخوة ، وقد استخرجت السقاية من رحل السارق المزعوم قد نكسوا رءوسهم حياء وخجلا وحاولوا أن يقولوا شيئاً يعتذرون به .

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون » . (٧٧)

لا شك أنهم شر مكاناً وقد طوعت لهم نفوسهم قتل أخيهم أو إلقاءه فى غيابة الجب ، ومع ذلك فلم يأن بعد لحسابهم الأوان .

على أنه لم يكن من سبيل إلى الشفاعة فيه أو التطوع باحتمال التهمة عنه .

« قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » . (٧٨ ، ٧٩)

ويكون ذلك فاتحة الختام أو بداية النهاية من القصة ، إذ انتهى المطاف بيعقوب وبنيه إلى الاستقرار بمصر حيث أنزلوا أرض جسم أو جاسام كما قرئ اسمها فى النصوص المصرية(١) أو أرض جاسان كما ورد فى التوراة ، ويكون استقرارهم هذا فى تلك البقعة من وادى طميلات شرقى الدلتا فاتحة لقصة أطول وتاريخ أكبر ، تشعبت أحداثه وتقلبت فصوله ونوشك أن نتعرض له بعد قليل .

---

(١) Montet, L'Egypte et la Bible, p. 57.

ولقد كان هبوطهم كما قدمنا على عهد الهكسوس فى مصر ، حيث بقيت لنا من آثار تلك الفترة جعلان عليها أسماء لطائفة من رؤساء الساميين كان منهم اسم « يعقوب ايل » وهو اسم يكاد يصعب فى رأى أكثر المؤرخين ، إنكار ما شاع بينهم من أنه إنما نقش تذكاراً لسبط إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام(١) .

ونعود هنيهة إلى يوسف وإخوته .

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ، واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » . (٨٠ — ٨٢)

ومع ذلك فلقد كان يعقوب يعلم بما فى نفوس أبناء الضرائر من الحفيظة والحقد ، وقد ظل الشك يعمل فى نفسه مما يقولون .

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم »(٨٣) .

ولم يكن يعقوب — ككل أب لولد مفقود — على استعداد للتسليم بهلاك ابنه ولا لليأس من عودته ورؤيته .

« وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٤ — ٨٧)

ويعود الإخوة إلى مصر وقد أضر بهم القحط والحزن على ما نزل بهم

---

(١) Gardiner, Egypt of the Pharaohs (Oxford 1961), p. 157.

وبأبيهم من محن ، فيلقون يوسف ولم يكن بالنسبة إليهم حتى اليوم سوى عزيز مصر .

« فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين » (٨٨)

وكان الأوان قد آن للكشف عن شخصه وقد ارفضت عيناه — فيما يخيل إلى — بالدمع لما وجد فيهم من ذلة وجهد وقد مسهم الضر حقاً وهم يسألونه الرحمة والصدقة ، ويخيل إلى أنه خاطبهم هذه المرة بالعبرية :

« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون .

قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (٨٩ — ٩٠)

وكان بين الإخوة لقاء امتزج فيه الفرح والحزى والبكاء ، وامتزج فيه حسد مكتوم على ما حظى به من منصب عظيم ومكان رفيع ، ثم كان بينهم اعتراف وعتاب ثم عفو وغفران .

« قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » . (٩١ — ٩٢) . ثم يكون السؤال عن الأب والإخبار عما آل إليه من العلة والأسى ، وما يجد وأهله من المشقة والجهد والإملاق ، ويكون القرار بكفالة الأسرة كلها ورعايتها فما كان ينبغى له أن يتمتع بما يتمتع به من يسر وترف وأهله مملقون فيقول :

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » . (٩٣ — ٩٦)

ولم يعد من سبيل للإخوة إلى إخفاء جرمهم بعد انكشاف كل

شيء ، فلم يكن لهم إلا الاعتراف والندم وطلب الغفران .

« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم . (٩٧ — ٩٨) ثم يكون حديث الفتية عن يوسف وعما هو فيه من نعمة ومنزلة وسلطان وما قرر من استقدامهم إليه فتكون الرحلة التاريخية إلى مصر .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » (يوسف ٩٩) . .

٤

موسى

بسم الله الرحمن الرحيم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون »

(القصص ١ — ٣)

دخل إسرائيل وبنوه مصر بمشيئة الله آمنين ، حيث طابت لهم الإقامة فى مصر كاسبين مستكثرين ، حتى صاروا كأنهم من أهلها وطائفة منهم كما يقول القرآن ، غير أن ما ركب فيهم من ميل إلى العزلة وكراهة الاختلاط قد حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

وقد روت التوراة ذلك فى سفر الخروج (١ : ٧ — ١٤) قالت :

« وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم ، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتى فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بنى إسرائيل فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل ، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً » .

ولا شك أن كاتب هذا الجزء من التوراة إنما أوغل فى المبالغة وأغرق فى التعصب حين أطلق على لسان فرعون أن بنى إسرائيل شعب

أكثر وأعظم من المصريين ، فلو قد كان ذلك كذلك لما استطاعت قلة المصريين أن تسخر كثرتهم المزعومة . بل لقد شطح الخيال والوهم فى تقدير عددهم كما أورده سفر العدد فأبلغه حداً من الإغراق فى الوهم يلغى العقل والتفكير . إذ ذكر أن المحاربين منهم ممن تجاوزوا العشرين قد بلغوا فى مطلع العام الثانى لخروجهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين (٦٠٣٥٥٠) فكيف كان عددهم فى ذلك الحساب أجمعين .

« فكان جميع المعدودين من بنى إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين فصاعداً كل خارج للحرب فى إسرائيل ، كان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين » . (عدد ١ : ٤٥ — ٤٧)

فلا شك فى أن مثل ذلك العدد من الشباب المحارب خليق أن يرفع مجموعهم إلى ما يجاوز المليونين بل الملايين الثلاثة ، وهو ما لا يستقيم مع ما تعرضوا له من ذلة وعسف تحت رؤساء التسخير ، ولا مع ما روى من عبورهم البحر فى سويعات قصار .

ومهما يكن من شىء ، فلقد أقاموا فى مصر منذ دعاهم يوسف حيث تمتعوا بالأمن والسلام « فأثمروا وتوالدوا وكثروا » ، وحيث كانوا — من غير شك وما زالوا كما عرفوا دائماً وبرغم تلونهم الظاهر بالمجتمع الذى يعيشون فيه — يعتزلون بأنفسهم ويلوذون بعصبيتهم بما ينفر منهم أهل البلاد ويحمل المجتمع المضيف على الشك فيهم والحذر منهم. بل إنهم ليرحبون ويشجعون على إثارة ما يلقون من النفور والحذر تمكيناً لأنفسهم من الاعتزال والبعد عن الناس ، إذ بدأت تلك السياسة منذ اللحظات الأولى من هبوطهم مصر وذلك بنص التوراة :

« ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه : أصعد وأخبر فرعون وأقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلىّ ، والرجال رعاة غنم ، فإنهم كانوا أهل مواش وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم ، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا عبيدك أهل مواش منذ

صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعاً لكى تسكنوا فى أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس للمصريين» (تكوين ٤٦: ٣١ — ٣٤)

وطبعى أن يكونوا على ولاء لأنفسهم ومصالحهم بولائهم للهكسوس وملكهم الذى آواهم فى مصر وأنزلهم أرض جاسان، إذ مثلوا بين يديه مع يوسف» وقالوا لفرعون جئنا لنتغرب فى الأرض إذ ليس لغنم عبيدك مرعى، لأن الجوع شديد فى أرض كنعان، فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان. فكلم فرعون يوسف قائلا أبوك وإخوتك جاءوا إليك، أرض مصر قدامك فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك، ليسكنوا فى أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواش على التى لى». (تكوين ٤٧ : ٤ — ٦)

وما ندرى لعلهم قد كانوا حيث أقاموا شرقى الدلتا مع الهكسوس عوناً للهكسوس وحرباً على المصريين فى حرب التحرير، وهم من أحذق خلق الله على التقلب والتلون وإثارة القلاقل واستغلال الأزمات، إذ هب المصريون بقيادة أمراء طيبة فشنوا على المحتلين حرباً أضرمها عليهم سقنزع تاعاقن، فما إن استشهد فى القتال حتى خلفه على العرش والجهاد ولداه كاموسى ثم يوعح موسى (أحمس).

لمحة من التاريخ

وكان قد سبق الحرب محاولات للتحرش بدأ بها أپوپى ملك الهكسوس، إذ أرسل إلى سقننرع — فيما روت بردية ساليبه — سفارة تحتج على أفراس النهر فى بحيرته وما تثيره من أصوات مزعجة تذود النوم عن ملك الهكسوس فى هوارة[١]

ولقد تجلت وطنية المصريين فى تلك الحرب بما استطاع كل مصرى

(١) Gardiner, Late Egyptian Stories, p. 85 ff.

أداءه من تقديم النفس والمال فى سبيل التحرير ، حتى انعقد لواء النصر للملك « يوعح موسى » الذى دمر معاقل الهكسوس بعد معركة ضارية حول مياه پاچدكو فى مصر حيث كانوا يرتكزون فى عاصمتهم هناك، ثم تعقبهم إلى فلسطين حيث حاصرهم فى « شاروحان » ثلاث سنين قبل أن يقضى عليهم قضاء لم يسمع بهم بعد ذلك من أحد ، ثم عاد لينشئ أسرة جديدة ويبدأ دولة جديدة وعصراً جديداً ومجداً جديداً . فكان رأس الأسرة الثامنة عشرة وطليعة الدولة الحديثة فى تاريخ مصر.

على أن احتلال الهكسوس وقد زال عن مصر لم يزل عنها دون أن تخرج منه بما كان لها فى حضارتها وفى أهلها من أثر خطير. فقد عرف المصريون عنهم العجلات الحربية والخيل وأخذوا القسى المزدوجة وألواناً من الأسلحة والسيوف . كذلك فقد اضطرمت الروح الوطنية والنزعة الحربية فى نفوس المصريين ، إذ وجدت البلاد نفسها منذ إجلائهم مضطرة إلى الإقامة على حمل السلاح وإشهار السيف . وكان لزاماً عليها أن تستبقى سيفها مشهوراً مذ ذاك حفاظاً على حدودها أولا وتأميناً لطرق التجارة والنقل ثانياً ، ثم ضماناً لموارد الثروة والمواد الغفل ثالثاً .

وكانت القبضة المصرية على ما أحرزت من أملاك لها فى آسيا وأفريقية خليقة إن لانت أو تراخت أن تفقدها ما أحرزت من هذه الأملاك . وأنجبت مصر ملوكاً كانوا من أعظم القادة العسكريين والجنود المحاربين ، من أمثال تحتمس الأول وتحتمس الثالث وأمنحتب الثانى . بل عرف من الرعية قادة محاربون أبلوا فى سبيل بلدهم أحسن البلاء من أمثال يوعح موسى ابن أبانا ويوعح موسى الكابى وأمنمحاب ، إذ شهدت طيبة عاصمة مصر على عهد هذه الأسرة عهداً تطامنت لها فيه إمبراطورية واسعة النطاق مترامية الأطراف ، تمتد من أعالى الفرات فى الشمال إلى جنادل النيل الرابعة فى الجنوب ، حيث أسرع إليها الناس شعوباً وقبائل وحكاماً من أقطار الأرض وجزر البحر بالولاء والخضوع خوفاً وطمعاً ، وباتت طيبة

عاصمة الدنيا وأم القرى فى ذلك الزمان ، حيث تدفقت على مصر كما تفجرت من أرضها ينابيع الثروة وشملتها من أسباب الأمن والرفاهية والرخاء والحياة الناعمة ما وجد سبيله إلى الثقافة والفن ، وبات الملوك من جيرانها وفى يقينهم أن الذهب كالتراب كثرة ووفرة ، فهم يرسلون الرسائل ويبعثون البعوث يطلبون بل يستجدون رضاء مصر أولا ، وذهب مصر ثانياً ويتمنون على فرعونها أمنحتب الثالث أن يرضى فيسمح بتزويجهم فتاة من مصر ولو لم ترتفع إلى طبقة الأمراء والنبلاء .

على أن هذه الحقبة من التاريخ قد شهدت طلائع القبائل العبرانية تدخل فلسطين ، حيث ورد فيما سجل تحتمس الثالث من فتوحاته بالكرنك مواضع تدل أسماؤها على صبغة عبرانية تلقتها من بعض القبائل والبطون ، منها على سبيل المثال يعقوب إيل ويوسف إيل (١) ، وكذلك فقد ظهرت مذ ذاك طوائف من الناس أو قبائل تحمل اسم عابيرو وخابيرو وأثارت من جدل المؤرخين فى نسبتهم إلى العبرانيين ما لم ينته بعد إلى قرار ، ومع ذلك فقد غفل التاريخ عن بنى إسرائيل فى مصر يومئذ منذ هبوطهم بها فلم يذكر عنهم شيئاً ، وحسبنا عنهم أنهم أقاموا هنالك « فأثمروا وتوالدوا » وأصبحوا جزءاً من رعية فرعون آمنين مع المصريين أو « طائفة منهم » كما وصفهم القرآن فى أول سورة القصص .

وأكبر الظن أنهم عبدوا مع الهكسوس المعبود المصرى المعروف ست أو سوتخ ، إذ قدسه الهكسوس — كما قدسه المصريون — فى صورة آسيوية أحياناً وسموه « بعل » .

ولقد بلغت مصر ما بلغت من سلطة راسخة وإمبراطورية باذخة وقد قر فى إيمان الناس ما أعلن إليهم من أنها إنما حصلته بفضل آمون رب الأرباب ذى الرأى السديد . فبذل له الفراعين عن سخاء بل إسراف ما وسعهم البذل وكان كثيراً ، فشيدوا له المعابد ووهبوا له الهبات السابغة

---

(١) Pritchard, op. cit., p. 242.

حتى بلغ كهانه من الثروة والسلطان على النفوس والعقول بل على الملوك أصحاب السلطة ما أطمعهم فى المزيد ، وأشعر فرعون ومن حوله بما لا بد منه من رد ذلك التيار المخيف ، بل لقد كان ازدياد شأن أمون ورد الفضل إليه فى الفتوح وامتداد سلطانه إليها أن أوحى مع فكرة الإله الواحد ، التى لم تكن غريبة عن أذهان المصريين على كل حال ، بفكرة الإله العالمى الذى يعبده الناس كافة فى مصر وغير مصر ، فكانت من ثم دعوة امنحتب الرابع إخناتون (شكل ٤) إلى دين التوحيد، إذ نادى بعبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الرازق القادر المدبر، ورمز له بقرص الشمس آتون ، وصاغ له من ناصع الشعر أناشيد وترانيم تنم عن أحاسيس عميقة ومشاعر صادقة تعدد آلاءه على العالمين .

ومع ذلك فقد كان عسيراً على الناس أن يتخلوا عما ألفوا من دين وجدوا آباءهم عليه عاكفين ، فكان أن اجتمعت على الملك معارضة الشعب وعداء الكهان الذين أفقدوا مكانتهم وأموالهم . وتذمر منه الجيش الرابض فى منف وهو يجمجم غيظاً بما يهوى على سمعه من أنباء الإمبراطورية التى لم تلق من الملك الفيلسوف السادر إلا الإهمال ، وهو فى شغل بدينه عن ديناه ، فإذا بها تتداعى ثم تتهادى إلى السقوط والزوال . وهم يذكرون أياماً مجيدة ودماء غالية بذلها آباؤهم أيام بطل مصر الخالد تحتمس الثالث.

ولقد انتهى الأمر بحكم ما تردت فيه البلاد من الصراع والاضطراب من بعد موت أخناتون، باحتضار الأسرة الثامنة عشرة وميل شمسها إلى مغيب ، وكادت مصر يومئذ تفقد استقلالها فيبتلعها الحيثيون بعد ابتلاعهم أملاكها ، وذلك فى مؤامرة سفيهة انبعثت من غباء إحدى الأميرات من بيت أخناتون ، لولا أن تلقف العرش رجال صدقوا ما عاهدوا الوطن عليه وما بدلوا تبديلا . فلقد كان قائد الجيش حورمحب يرقب الأمور ويوجهها عن كثب من موقعه فى منف ، إذ أعقب أخناتون ختناه سمنخ كارع وتوت عنخ آتون ، ومن بعدهما دقع آى — وكان

(شكل ٤)

شيخا – إلى الملك ريثما يستتب له الأمر ويتهيأ له ثم استوى على العرش .

وأقبل حورمحب ليقيل مصر من عثرتها وليردها إلى الأمن والنظام والقانون، ويطهرها مما تردت فيه من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ، وليرهب من وراء حدودها عدواً يسعى بعد أن تحيف أملاكها إلى ابتلاعها بأسرها. وإلى حورمحب تنسب مجموعة من القوانين الصارمة التى أصدرها ضد المرتشين المستغلين ، ثم ودع الدنيا بدون أن يعهد بالعرش إلى أحد من بنيه أو أولى قرباه ، فكان ممهداً لعهد من الاستقرار والقوة جديد ، وقيام عصر من القواد العسكريين الذين استردوا لمصر هيبتها وأملاكها فى أفريقيا وآسيا كان على رأسهم رمسيس الأول، فلم يلبث عاماً وبعض عام حتى ترك العرش لولده سيتى الأول (شكل ٤) ثم حفيده رمسيس الثانى بن سيتى (شكل ٥) ، وكانا من أعظم عواهل مصر بما أقاما من منشآت وأحرزا من انتصارات . فقد دخلا فى صراع عنيف من الحيثيين على أرض سوريا وفلسطين فى سبيل استرداد ما تحيفوا منها وتثبيت سلطانهما عليها ثم ختم ذلك الصراع بعقد معاهدات الصلح والسلام الدائم بين العدوين المتحاربين رمسيس الثانى المصرى وخاتوسل الحيثى . وكان رمسيس يومئذ قد انتقل إلى عاصمته الجديدة التى أنشأها عظيمة زاهرة شرقى الدلتا غير بعيد من عاصمة الهكسوس القديمة ، لتكون فى مكان واسط بين مملكته فى مصر وأملاكها فى آسيا . وفيها استقبل المندوب الحيثى الذى أقبل يحمل طلب الصلح حيث عقدت المعاهدة التى أبرمت بينهما عام واحد وعشرين من حكمه ، ومع ذلك فقد أقامت العلاقات والاتصالات الودية بين الدولتين حتى رأتا تدعيمها بوشائج المصاهرة فتزوج رمسيس من بنت ملك الحيثيين الذى أقبل يزفها إليه فى العام الرابع والثلاثين .

على أن مصر قد طفقت تتعرض من بعد رمسيس الثانى لأخطار ظلت تنوشها من كل مكان ، حيث كان عهد مرنبتاح بن رمسيس ممثلا لفترة من الفترات التى جنحت فيها إلى مبتدأ الانحدار من ذروة القوة

إلى هوة الضعف ، ومن عزة الامتداد إلى هوان الانكماش ، ثم انتهى أمرها إلى انهيار في الداخل وانحلال لإمبراطوريتها في الخارج ، حيث تألبت عليها الشعوب في أقاليمها في الخارج وتألبت عليها من الليبيين وشعوب

(شكل ٥)

البحر المتوسط عناصرها هائمة عدمت المستقر الخصيب ، حيث تحركت الشعوب والأجناس فى آسيا وأوربا فى موجات بشرية عاتية تدفع أمامها شعوباً تبحث عن مستقر دائم تعيش فيه ، فتتطلع نفوسها وتمتد عيونها إلى الوادى الخصيب من حول النيل .

وكذلك فقد ورث مرنبتاح مع العرش تركة مثقلة عن أب حكم سبعة وستين عاماً امتلأت بالحروب الطويلة المرهقة والنفقات الثقيلة الباهظة على عمائر كثيرة ومنشآت باذخة ، وكان مرنپتاح كذلك قد جاوز سن الشباب بل جاوز الكهولة حين ولى العرش من بعد أبيه الذى جاوز الثمانين ، فإذا بشيخ يخلف شيخاً ، وإذاً مصر تتحول من الهجوم إلى الدفاع ومن التطلع إلى إمبراطوريتها وتوسيعها إلى الانشغال بالدفاع عن أراضيها وسلامتها . ومع ذلك فقد كان عهد مرنپتاح حركة لا تهدأ فيما كان من قمع ثورات البجاة والنوبيين فى أقصى الجنوب وثورات شعوب آسيا من أملاك مصر فى الشرق . وفيما كان من رد الليبيين عن حدود مصر فى الغرب مرتين ، وقعت الأولى فى العام الرابع من حكمه(١) ، ووقعت الثانية فى العام الخامس ، وكان الغزو الليبى الثانى من أخطر ما تعرضت له مصر من غارات ، إذ واجهت جموعاً هائلة من شعوب البحر المتوسط تحالفت مع الليبيين بقيادة ملكهم مرياى ، وكان مرياى هذا عازماً على إحراز النصر والاستقرار بمصر ، فصحب معه نساءه وبنيه .
واصطدم الجيشان فى معركة هائلة لم تدم أكثر من ساعات انتزع فيها المصريون الغلبة وأحرزوا النصر الأكبر ، فكأنما كانت عين جالوت القديمة .

ولم يكن مرنپتاح وهو يجاهد جهاد اليائس بأقل من أبيه شدة وسطوة ،

---

(١) A.A. Youssef, Merenptah's fourth Year Text at Amada (in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte), T. LVIII (1964), p. 273 ff.

بل زاد عليه قسوة وعنفاً ، فلقد حفظ لنا فى معبد عمداً بالنوبة من وثائق التاريخ ما يحدث أنه كان يعاقب الخارجين عليه فضلا عن الصلب فوق الشجر بإحراق الجموع وقطع الأيدى واقتلاع العيون وصلم الآذان ، وأنه كان يبالغ فى العذاب فينزل عقاب الحريق بالخوارج أمام ذويهم ، ويرسل ما اجتمع من الآذان والعيون فتعرض أكواماً فى بلادهم إرهاباً وتخويفاً[(١)] .

ولقد أيقن المصريون فى أعقاب هذه المعركة أنهم قضوا على كل خطر يتهددهم وضمنوا سلاماً لا يشوبه خوف ، وحق لهم أن يجوسوا خلال الديار فى غير وجل وأن يجلس بعضهم إلى بعض يتحدثون ويسمرون ويتغنون بنشيد النصر الأكبر سعداء هانئين .

أما مرنپتاح — وكان أصلع بادناً — فقد قعدت به الشيخوخة والمرض فى أعقاب ذلك قعوداً توقع معه الناس — منذ العام الثامن من حكمه — نهايته ، فكان أن جدوا منذ ذاك فى إعداد قبره والاستعداد لجنازته ، ولكن العمر مع ذلك قد امتد به من بعد ذلك نيفاً وعامين ، حيث مات ودفن — من وادى الملوك بالأقصر فى تابوته الجرانيتى بقبره الفسيح ، ثم قدر لجثمانه من بعد ذلك خوفاً من اللصوص أن ينقل إلى قبر أمنحتب الثانى حيث أعثر عليه عالم الآثار فكتور لوريه عام ١٨٩٨ من الميلاد .

ثم خلف من بعده ابنه سيتى مرنپتاح أو سيتى الثانى كما عرف عند المؤرخين ، فلم يجاوز حكمه أعواماً ستة استغرقتها الفوضى والاضطرابات إذ ورد على بعض كسر الفخار تاريخ توليه كما ثبت تاريخ موته الذى وقع فى العام السادس من حكمه . وفى عهده تواترت الأنباء على قلتها بأن طيبة قد كانت تجتاز أياماً تمور بالفوضى وتمتلئ بالخلافات . إذ روى أن رجلا يقال له نفرحتپ وكان ثانى اثنين من رؤساء العمال فى

---

(١) ibid.

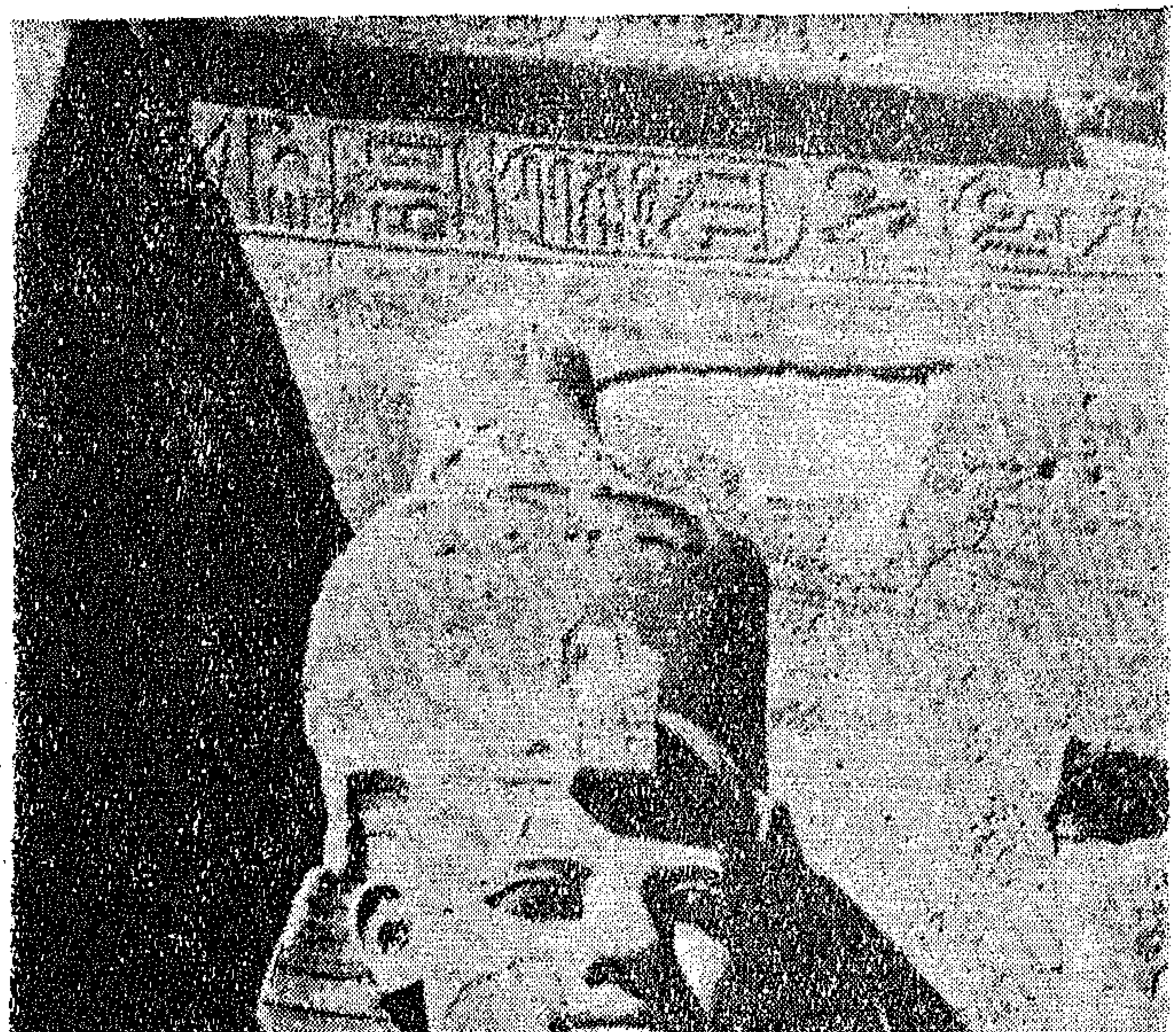

(شكل ٦)

الجبانة قد استبدل به آخر يسمى پانب ، وأن پانب هذا قد تعرض لحملة من اتهامات خطيرة أثارها عليه أخ لزميله نفرحتب يدعى أمون نخت ذكر فيها فى لهجة عنيفة — على بردية بالمتحف البريطانى اليوم — أن پانب سرق لزخرف قبره أحجاراً من قبر الملك سيتى الثانى فى أثناء بنائه ، وأنه اختلس وأفسد أملاكاً أخرى لذلك الملك ، بل زاد أمون نخت فاتهم پانب بأنه قتل نفرحتب برغم ما له عليه من فضل التربية والتعليم ليغتصب منصبه ويخلفه عليه ، وأنه بعد مقتل رئيس العمال هذا قد حاول رشوة الوزير بارع م حب ليعينه مكانه . ومهما يكن من شىء فإن ما ورد إلينا من هذه التهم وما ورد من أنباء غامضة عن حرب وقعت فى تلك السنين إنما يدل على ما كانت طيبة خاصة والبلاد عامة تمور به — بما وصف مجازاً بالحرب — من فوضى عارمة واضطراب شديد . وقد روى أن نفرحتب شكا إلى الوزير أمن موسى — ولعله كان سلفاً لبارع م حب — ما تعرض له من عدوان پانب فأنزل به العقاب ، عند ذلك فزع پانب إلى رجل يدعى موسى كان من غير شك ذا نفوذ عظيم فى الدولة يومئذ فعزل الوزير ، وما ندرى لعله قبض الملك باسم أمون موسى قبيل عهد سيتى الثانى أو فى أثنائه مديدة لم يقدر لها أن تطول ، وأنه صاحب القبر الذى عثر عليه باسمه هذا فى وادى الملوك .

أما سيتى الثانى فقد ودع الدنيا شاباً أو كهلا كما يبدو من جثمانه المحنط الذى عثر عليه مع جثمان أبيه وسائر الفراعين فى قبر أمنحتب الثانى ، ولم يكن له من أثر إلا معبد فى فناء الكرنك صغير ، ثم تردت مصر فى فترة من الفوضى وسفك الدماء ونفوذ الأجنبى ، حتى سقطت الأسرة التاسعة عشرة ولم ينقذها إلا رمسيس الثالث .

فرعون وبنى إسرائيل

وفى عهد رمسيس الثانى — على الأرجح والمشهور — ولد موسى . وذلك فى ظل الخوف والرعب الذى فرضه رمسيس على بنى إسرائيل ،

إذ كان قد تورط فى سياسة من القتل وسفك الدماء كما قال تعالى فى كتابه العزيز :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » (القصص ٤)

وكان رمسيس الثانى حين تولى العرش عام ١٣٠٠ ق. م قد ألفى جالية من العبريين كبيرة سخرها فيما اختط لنفسه واختط له وزراؤه ومهندسوه من العمائر والمنشآت وكانت كثيرة هائلة لا تكاد تقع تحت حصر . وكان على كل حال فيما أثبتت وثائق التاريخ يسخر الأسرى ومن فى حكمهم فى إقامة ما يريد منها . فلقد حفظ لنا من النصوص عند معبد السبوع بالنوبة المصرية ما يتحدث فيه ستاو نائبه هناك عما كان من استخدامه أسرى من قبائل التمحو (غربى مصر) فى بناء هذا المعبد[1] ، وعند معبديه بأبى سنبل ما يتحدث فيه « رمسيس عشاحب » عن مليكه من أنه أتى بأفواج العمال من أسرى سيفه — أو ذراعه — من كل البلاد ، وأنه ملأ بيوت الأرباب بأبناء رتنو[2] وكان المصريون يتخذون من لفظ رتنو هذا اسماً عامًّا لسوريا وفلسطين. وقد تقدم ما ورد فى سفر الخروج من استشعار فرعون لخطر بنى إسرائيل فيما تحدث به إلى قومه :

« فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس » (١ : ١١) .

وقد عثر علماء الآثار منذ القرن الماضى على أطلال هاتين المدينتين وكشفوا عن آثارهما وحققوا اسم كل منهما ، فى التوراة ، فردوا الأولى إلى تصحيف فى اسمها الأصيل برتوم بمعنى دار أتوم إله الشمس الأكبر الذى عبد فى عين شمس فى صورة الشمس المكتملة أو التامة ، وردوا

---

(١) Barsanti et Gauthier, Stèles Trouvées à Ouadi Es-Sebouâ (Nubie) (in Ann. du Serv. XI (1911), p. 84.

(٢) Breasted, Ancient Records III, § 498.

الثانية كما هو ظاهر إلى اسم رمسيس ، وعثروا على آثار له تحمل اسمه هناك . وكان قد اتخذها وبنوه من بعده عاصمة لهم باسم برر عمسى بمعنى دار رمسيس .

ولم يكن لرمسيس بداهة أن يفجأ الناس — على غير علة ولا سبب — بتلك السياسة عن مجرد مزاج مال به إلىها وشهوة إلى الدم عصفت به فى قوم أبرياء . وظاهر كذلك من نص القرآن أن فرعون لم يصدر فى ذلك عن استبداد برأيه ولا انفرد بذلك بغير نصح مستشاريه .

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »

إذ شاركه فى ذلك من عسى أن نسميه الحزب العسكرى بزعامة مستشار ذكر باسم هامان . وهو اسم لا شك — إذا رد إلى أصله بغير تصحيف — من الأسماء المصرية المألوفة الشائعة فى ذلك الزمان هو حورمين (١) . وقد عرف بهذا الاسم رجل من عهد سيتى الأول وآخر من عهد ابنه رمسيس ، كان أولهما كاتب الملك وحامل الأختام والمشرف على حريم الملك ، وكان ثانيهما كاتب القصر (٢) أو هو بلغتنا الحديثة كبير الأمناء أو رئيس الديوان الملكى ، بمعنى أن كلا من الرجلين قد كان من فرعون فى منزلة قريبة تمكن من التوجيه والتأثير ، وقد كنا قدمنا كذلك ما كان لتلك الأسرة المالكة من صبغة عسكرية لا شك واضحة فى حياة سيتى ورمسيس .

وأكبر الظن أن رمسيس إنما حارد بنى إسرائيل بذحل أوغر صدره عليهم وثقة مفقودة افتقدها عندهم فى حروبه التى استغرقته مع الحيثيين خمسة عشر عاماً ، ولعله وجد فيهم ما لم يتعففوا — ولا هم يتعففون عنه اليوم — من خيانة وتجارة بولائهم للغالب فى ظنهم من المتنازعين. ولعل فيما روت التوارة عن تعذيبهم اعترافاً بخوف فرعون منهم وشكه فى ولائهم :

---

(١) Ranke, Die Agyptischen Personennamen I, S. 248.

(٢) سليم حسن : مصر القديمة الجزء السادس ص ١٦٨ ، ٠

« هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض » (الخروج ١ : ١٠)

ولكن النقيصة التى أخذت على فرعون إنما كانت اندفاعه فى العذاب وإسرافه فى القتل للمذنب وغير المذنب على سواء .

هناك غير بعيد من بررعمسى ولد موسى ، حيث فزعت أمه إلى الله مما تخشى على ابنها من بطش فرعون . فيقول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين »

(القصص ٧)

وفى حديثه إلى نبيه يقول :

« إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » . (طه ٢٩)

واليم فى اللغة العربية البحر أو النهر ، وهو كذلك فى اللغة المصرية القديمة ، إذ اليم لفظة سامية عرفت فى المصرية منذ الأسرة الثامنة عشرة حول القرن السادس عشر من قبل مولد المسيح ؛ وكان المصريون يطلقون على البحر والنهر وما اتسع من لج الماء لفظ اليم ، ومنه جاء اسم منخفض الفيوم بعد إضافة فاء التعريف فى المصرية إليه .

على أن الذى يستوقف النظر هنا أن اللفظ ورد فى القرآن ثمان مرات لم يذكر فى أحدها فى غير ما يخص مصر ليس غير ، حيث ذكر بمفهوم النيل ثلاثاً وأطلق على البحر الذى غرق فيه فرعون خمساً فكأنما يشير القرآن إلى موضع معلوم كما يدعوه أهله باسمه المعلوم .

أدركت أم موسى أن ليس إلى بقاء ابنها معها من سبيل وإلا فهو لا محالة مقتول ، فلتدفعه إذن خفية إلى من يكفله ويتولاه وإلى من يمنحه من الحب وكريم الرعاية ما يعوضه عن الأبوين فى غير غمز فى نسبه

ولا وضع من شأنه ، وقد عرفت حب المصريين للولد وحدبهم على الطفل واستكثارهم للبنين ، وكان المصريون منذ أقدم العصور كذلك ومازالوا كذلك. فلقد حفظ من تراثهم الأدبي ما يحض على التبكير بالزواج والإنجاب وكانت قلة النسل فى المجتمع المصرى القديم من النكبات والمحن التى يشكو منها الأدباء وأهل الحكمة فيه . شكا من ذلك أيبوور فى عصر الفترة الأولى وتحدث آنى عن الإنجاب ، وتحدث الكتاب فى رسائلهم بعضهم لبعض ، إذ كان عقم الرجل وعجزه عن الإنجاب وصمة تخرجه عن رجولته وعاراً يرمى به ومذلة يعير بها ، وما كان ليغنى عن الرجل ماله الموفور إن لم يكن له ولد ، وما كان ينبغى لبيت أن يخلو من البنين إذ يقول قائلهم : « وأما الذى ليس له ولد فليتخذ عوضاً من اليتامى يربيه» (١) ومما أثر عن رمسيس الثانى أنه كان له ما يزيد على مائة من البنين وستين من البنات كانوا قرة عينه و« أحباءه » يصورهم فى معابده فخراً واعتزازاً .

لم يكن لأم موسى إلى أن تعيش مع ابنها من سبيل ، ومع ذلك فكيف تدفع به إلى من يرعاه وهى حريصة على أن تخفى عن الناس نسبه إلى بنى إسرائيل . إذن فلتلق به بعيداً عن الحى الذى تعيش فيه ، حيث يلتقطه من يأخذه ويرعاه ، وما كان لابنها أن يضيع فى شعب تلك شيمته وهذه خصاله . ومع ذلك فكيف لها مع الخوف والرعب أن ترى وهى تحمله إلى غير حيها دون أن تثير الريب والشكوك، فلتقذفه إذن فى النيل ولتطمئن عليه نفساً من النيل وقد علمت من أساطير المصريين أن تابوت أوسير قد ألقى فى اليم فألقاه اليم بالساحل بعيداً دون أن يصيبه من اليم مكروه.

« وقالت لأخته قصيه فبصرُت به عن جُنُبٍ وهم لا يشعرون » (القصص ١١)

« فالتقطه آل فرعون » (القصص ٨)

---

(١) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ص ١٢ .

والذى لا شك فيه كما سوف نفصل فى غير هذا الموضع أن موسى عليه السلام قد ولدفى بر رعمسى عاصمة رمسيس الجديدة التى انتقل إليها ، وأن مولده فى أرجح الظن قد وقع بعد العام العشرين من حكمه حين استقر بها فى أعقاب حروبه الطويله .

وهناك يتعرض الطفل للخطر الذى كانت تفرق منه وتخشاه ، فقد أرسلت ابنتها لتعلم من عسى أن يلتقطه والبيت الذى ينزل فيه والأسرة التى تربيه . ولكنه يقع بين يدى عدوها وعدوه الذى حرصت على أن تباعد بينه وبين ابنها ، ورضيت فى سبيل استنقاذه منه أن يبتعد عنها إلى حين .

ولكن لله حكمة هو مبديها وأمراً هو بالغه . فيحميه ويضمن له الحياة ويكفل له التربية الكريمة الناعمة والتعليم الناضج الذى يؤهله لقيادة شعب تعوزه القيادة ، ويؤهله لتعليم أمة أعماها الجهل لحمل رسالة التوحيد. يحميه بالحب الذى يطغى على كوامن الشرور وغوائل الأحقاد .

« وألقيتُ عليك محبة منى ولتصنعَ على عينى » (طه ٣٩)

« وقالت امرأة فرعون قرةُ عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » (القصص ٩)

ويحمل الطفل اسماً مصرياً شاع فى مصر فى تلك الأيام هو «موسى» وهو لفظ مشتق من مصدر الولادة بمعنى الولد أو الوليد ، كان يطلق على المصريين أحياناً مجرداً بهذه الصورة ، أو مقروناً بأسماء آلهتهم فى أسماء مركبة مثل رع موسى وبتاح موسى وتحوت موسى وأمون موسى ويوعح موسى بمعنى وليد رع ووليد بتاح ووليد تحوت ووليد أمون ووليد القمر . وغير بعيد أن يكون موسى عليه السلام قد سمى بذلك الاسم المجرد الذى ورد وعرف لبعض من عاش أيام الأسرة التاسعة عشرة ، أو لعله سمى باسم مركب مع أحد آلهة مصر ثم أسقط اسم الإله بعد ذلك . ولقد أجمع علماء المصريات على رد ذلك التفسير الذى قدمناه وخالفوا به ما ورد فى التوراة من أن ابنة فرعون دعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته

من الماء ، حيث رد كاتب التوراة اللفظ إلى اسم المفعول من الفعل العبرى « مشه » بمعنى المنتشل أو المستنقذ ، وإن رأى آخرون فيه اسم الفاعل بمعنى المنقذ أو المحرر ، كأن الذين أسموه كانوا يعلمون ما سوف يصير إليه ذلك الطفل اللقيط . ومهما يكن من شيء ، فالذى لا شك فيه ولم يشك فيه كاتب التوراة أن امرأة فرعون إنما كانت مصرية تتكلم المصرية وتفكر بها ، وما كان لها أن تتحدث فى حياتها فى وطنها حتى تتخذ للطفل — مع كراهة شائعة للعبريين يومئذ — اسماً عبريًّا . ولذلك فقد رأى مؤرخ اليهود يوسف أن يرد اللفظ إلى أصل مصرى واشتقاق مصرى مع تقييده بما ورد فى التوراة من حيث ارتباط الاسم بما كان من التقاط من الماء ، فقال إن المصريين يسمون الماء مو ويقولون للذى يستنقذ من الماء أوسيس . غير أن حرص يوسف على تفسير يكون مصدقاً لما جاء فى التوراة قد حمله ، متعمداً ، على إغفال معنى لفظ أوسيس المصحوف عن لفظ حسى المصرى ، وهو أصلا حتى زمان موسى فى الأسرة التاسعة عشرة بمعنى الحميد ، ثم أصبح يطلق منذ الأسرة الثلاثين على الموتى من الغرقى المنتشلين من النيل للدفن ، وإلى ذلك أشار كليمنت الإسكندرى من بعده ، فكأنه بذلك قد اتخذ لفظاً بمعنى متأخر عن عصر موسى وطبقه تطبيقاً غير دقيق ولا سليم (١) .

ومع هذا كله فلم يكن اسم موسى بالاسم الوحيد الذى أخذه العبريون ودخل حياتهم من أعلام الأسماء ، بل لقد حملوا من الأسماء المصرية ما سار فيهم مسيرة التهويد التى خص اليهود أنفسهم بها دون سواهم من الناس إذ شاع بينهم اسم فنحاص أو بنحاس وحفنى وبوتى إيل (فوطيئيل) بل شاعت بينهم كذلك أسماء مريم وسوزان .

(١) J. Cerny, Greek Etymology of the Name of Mosis (in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte), T. XLI (1942) p. 349 ff.

ومهما يكن من شيء ، فلقد شاء الله لنبيه عليه السلام أن ينشأ فى آ ل فرعون .

« إذ تمشى أختك فتقولُ هل أدلكم على من يكلفه » (طه ٤٠)

«وحرّمنا عليه المراضع من قبلُ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن لتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » . (القصص ١٢–١٣)

المراضع فى مصر

ولولا كلمة سبقت من ربك لربي موسى بين من دل القرآن على وجودهن فى قصر فرعون من المرضعات والمربيات الحاضنات . وكان الفراعين والأثرياء من أهل مصر كما شهدت وثائق التاريخ منذ الدولة القديمة يتخذون المرضعات والحاضنات المربيات . بل لقد اتخذ أحد الأثرياء من الدولة الوسطى للثلاثة من بنيه ثلاثاً من المرضعات متعاقبات . وكان للمراضع فى أسرة الرضيع منزلة تكاد ترتفع إلى منازل الأمهات الوالدات ، ومن مراضع الملوك من بلغن المنزلة الرفيعة السامية فى القصر . فلقد تزوج تحتمس الثالث ابنة مرضعته فبلغت مصاف الملكات ، وبلغ آى زوج مرضع نفرتيتى إلى أرفع المناصب فى الدولة ثم آ ل العرش إليه من بعد توت‌عنخ آمون . وكانت الأراضى والضياع توقف على المرضعة التى تعرف فى المصرية باسم منعة ؛ وهو الاسم الذى انحدر إلينا علماً على بعض البقاع مصحوفاً فى لفظ منية والمنيا ، وكان للمرضعة أو الحاضنة من غير شك نصيبها فى تهذيب الطفل وتربيته فيما عبر عنه القرآن الكريم بالنصح فى قول تعالى : « وهم له ناصحون » .

ودخلت أم موسى الإسرائيلية قصر فرعون مرضعة لولدهم الجديد ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن حال بنى إسرائيل فى مصر لم يكن شراً كله ولا نكراً كله إن أبدوا استعداداً للعيش فى المجتمع والتعاون بين بنيه . وقد

كانوا كما قال تعالى: « طائفة منهم » . ولم يكونوا بالطائفة المنبوذة التى يتعامل معها الناس أو ينفر منها الملوك ؛ بل لقد كان ساقى مرنبتاح رجلا يحمل اسماً لا شك فى صبغته العبرية هو بن عزين . وقد روت التوراة من أمر موسى والتقاطه ما يدل على مكان بنى إسرائيل عامة من المصريين وتسامح المصريين معهم : « فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بين الحلفاء ، فأرسلت أمتها وأخذته ، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى ، فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين ، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد . فقالت لها ابنة فرعون اذهبى فذهبت ودعت أم الولد ، فقالت لها ابنه فرعون ، اذهبى بهذا الولد وأرضعيه لى وأنا أعطيك أجرتك ، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ، ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء » .

(خروج ٢ : ٥ — ١٠)

فإذا انتهت أشهر الرضاع وطور الطفولة انتقل الصبى إلى طور التعليم والتثقيف . ولا شك أن موسى قد تلقى من العلم ما كان يتلقى المصريون من أبناء الملوك والأشراف فى ذلك الأوان ، فتعلم القراءة والكتابة والحساب ، ونسخ الصحائف على البردى بالهيروغليفية والهيرطية واجتهد فى مشقها وتحبيرها وتحسينها ، وتعلم شيئاً من الفلك والجغرافيا وأطرافاً من التاريخ ، ثم قرأ من قصص المصريين وآدابهم وحكمتهم شيئاً كثيراً . فقرأ ونسخ تعاليم بتاح حتب وكاجمنى وحرددف ونصائح خيتى إلى ابنه مريكارع ، وحفظ من أناشيد المصريين فى الشمس والنيل ما قدح قريحته وأخصب خياله ، وقرأ مناظرات الكتاب وما كانوا يديرون بينهم من جدل ؛ فكان أن حصّل من هذا وذاك ما مكن له مناهج من التفكير ومن تأويل الأحاديث .

والذى لا شك فيه أن موسى كان مصرياً بفكره ولسانه إن لم يكن كذلك بقلبه وولائه ، ولا شك أن أمه – وهو فى حجرها ترضعه وتربيه – قد علمته شيئاً من العبرية فنطق بها وتكلم بعباراتها ثم ازداد علماً بها حين بلغ أشده واختلط ببنى جلدته من العبريين فصار لهم عوناً وملاذاً بحكم عقله وتربيته أولا ، وبحكم صلته بالقصر واتصاله بعلية المصريين ثانياً ، فكان يتشيع للعبريين ويحميهم مما عسى أن ينزل بهم من الشر والمكروه ، وكانوا قد بدءوا يتغلغلون فى المجتمع المصرى ويتسربون إلى مناصبه كما قدمنا أواخر حكم رمسيس الثانى وأوائل حكم مرنبتاح .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

طائفة ذليلة مستضعفة كانت فى حاجة إلى زعيم .

وأمة كبرى تحتوى تلك الطائفة فهى لا تمكنها من ذلك الزعيم .

ولا تفتح أبواب المناصب لعامة الشعب ولا تتاح منزلة لغير المستعلين .

فلما تأذن رب العزة لموسى أتاح له العلم فى قصر فرعون من دون العالمين .

ومهما يكن من شيء ، فلسنا نعرف من حياة موسى منذ مولده حتى صدر شبابه شيئاً ، وأكبر الظن أنه تولى منصباً وتبوأ مكانة فى دولة فرعون حيث بدأ كما بدأ أترابه يومئذ كاتباً . وكانت وظيفة الكاتب فى مصر مدخلا لأرفع المناصب وأسمى الدرجات ، وكان المصريون يحضون أبناءهم على ولاية تلك الوظيفة لما ينتظرهم فيها من الترقى ولين الحياة والسلطان . وغير بعيد أن يكون التحق مع من التحق من أمراء البيت المالك بالجيش (١) . ولقد حدثنا مؤرخ اليهود يوسف على غير سند من التاريخ ولا تأييد من التوراة أن موسى تولى قيادة الجيش ؛ ولكنه زاد فى قصة لا يخفى زيفها ، أنه إنما تولى تلك القيادة بعد رجاء من الملك والأميرة التى تبنته ؛ وأن ذلك

---

(١) Josephus, Book II, chapter XI; see W. Whiston, The Life and Works of Flavius Josephus (Philadelphia 1957), p. 77 f.

إنما وقع فى أعقاب غارة شنها أهل النوبة العليا(١) على مصر فأنزالوا بالمصريين هزيمة نكراء فولوا منهم الأدبار ، حيث تعقبهم النوبيون إلى منف بل إلى ساحل البحر ، هنالك استلهم المصريون الوحى فأوحى إليهم باستخدام موسى الذى قبل القيادة سعيداً منشرح الصدر ، كما سعد بذلك كهان المصريين والإسرائيليين أجمعين . فأما كهان المصريين فقد ظنوا أنهم بذلك إنما يتخلصون من موسى ومن المهاجمين فى وقت واحد ، وأما الإسرائيليون فقد ظنوا أنهم يهربون من المصريين بقيادته . ومضى يوسف فروى أنه تمكن من صد العدو بشجاعته وحسن تدبيره ، إذ تجنب النيل وسار إليهم براً عبر أرض غاصة بالثعابين الطيارة ، فعبرها بفضل ما حمل من أعداد من طائر الإيبيس وهو أعدى أعداء الثعابين ، ثم أهوى موسى على النوبيين فقضى عليهم وعلى آمالهم فى مصر ، وهناك رأته بنت الملك النوبى فأحبته وأرسلت إليه تعرض عليه الزواج بها فقبل على أن تسلمه المدينه ففعلت وفعل .

على أن ما نزل ببنى إسرائيل من العذاب وقتل البنين قد خفت حدته وانحسرت سورته أواخر حكم رمسيس وحكم مرنبتاح كله فيما يبدو . وآية ذلك ما روى من اقتتال إسرائيلى مع مصرى من بعد مصرى ، وما بدا من إلحاحه فى الشجار واللجاجة فيه والتهالك عليه . وظاهر أن بنى إسرائيل يومئذ قد استمرءوا شيئاً من الراحة والأمن وأحسوا بشىء من القوة فتحولوا إلى مزيد من الإقلاق والشغب ومزيد من الإغراق فى الطائفية والانقسام ، وأكبر الظن أنهم ارتدوا إلى ديدنهم من محاولة اقتناص الفرص والاستفادة

---

(١) يخطىء الكتاب المحدثون إذ يخلطون بين أثيوبيا بمفهومها الحديث وأثيوبيا كما وردت فى مصنفات الأقدمين من كتاب الإغريق فيترجمونها كذلك بالحبشة .. إذ لاينصرف اسم أثيوبيا القديم إلا إلى بلاد النوبة العليا وكانت تعرف عند المصريين الأقدمين باسم كاش .

من مصاعب مصر الخارجية والتحرر ما استطاعوا مما فرض عليهم من ربقة مصر التى اشتدت منذ عهد رمسيس . وكانت السنون الخمس الأولى من حكم مرنپتاح غاصة بالحرب والكفاح كما قدمنا .

أما موسى فقد بلغ من تشيعه لبنى جنسه وانتصاره لهم أن تورط فى واقعة انتهت به إلى الخروج من مصر وفراره منها ، وذلك فيما ذكره الله تعالى فى قوله من سورة القصص :

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ....

فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » . (١٤ — ١٩)

وقع ذلك وقد بلغ موسى أشده واستوى ببلوغه الأربعين ، والله تعالى يقدر للرجل أنه يستوى عقلا وحكماً ببلوغ الأربعين ، إذ يبلغ أشده باكتمال قوة الجسم فى نحو الثلاثين ، وقد ذكر عن يوسف أنه بلغ أشده حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وزاد عن موسى أنه بلغ أشده واستوى فكأن الاستواء فى تلك الآية قد وقع موقع بلوغ الأربعين فى قوله تعالى من سورة الأحقاف :

« ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب

أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين » (آية ١٥)

فإذا صح ما قدرنا آنفاً من تاريخ مقارب لمولد موسى فإنه يكون قد جاوز الأربعين عند وفاة رمسيس فى العام السابع والستين من حكمه ويكون مرنبتاح الذى شارك أباه الحكم وقد بلغ من الكبر عتيا — قد تولى السلطة الفاعلة فى ذلك الأوان . « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها »

وما ندرى ماذا عسى أن تكون الغفلة التى أخذت أهل العاصمة إذ ذاك . وقد ذكر المفسرون على غير يقين أن موسى — كما يقول النسفى —

« دخل ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعنى انتصاف النهار وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل ؟ » ومع ذلك فظاهر من قوله « أصبح فى المدينة خائفاً يترقب » أنه كان مقيماً فيها فلم يدخلها على تغفل ، ولعل المقصود من دخول المدينة أنه دخل جزءاً منها أو حيا فيها ، وذلك كقول القائل من أهل القاهرة إنه نازل إلى البلد وهو يقصد قلبها أو حيها التجارى . كذلك فما أظن أن تخلو العاصمة من الناس وقت القائلة ولا ما بين العشاءين وقد وجد فيها رجلين يقتتلان على أمر لهما . وأكبر الظن أن المقصود بأهل المدينة كبارها وأصحاب الحل والعقد والسلطان فيها — أولئك يستطيعون حساب موسى والقبض عليه وإنزال العقاب — إن شاءوا — به ، وقد بدا أن مقتل المصرى قد ذاع فى الناس صباح اليوم التالى وأن موسى إنما أصبح خائفاً يترقب فعل الشرطة والحاكمين عن أمر مرنبتاح .

وما ندرى لعل الغفلة التى أخذت الناس وصرفتهم حيناً عن فعلة موسى إنما كان ما شغلهم من وفاة رمسيس من حداد عليه وما أخذوا أنفسهم به من إعداده للدفن بالتحنيط والدعاء ، وكان ذلك يشغل الكثرة من الناس ويستغرقهم أياماً تبلغ السبعين . ومهما يكن من شىء فقد انتصر موسى للإسرائيلى الذى ألفاه يقاتل مصرياً روى النسفى أن

اسمه فاتون ، ولا أدرى كيف استقام لمفسرى الإسلام هذا الاسم الذى تدل صبغته المصرية الصحيحة على سند فى الرواية والتواتر موصول ، ذلك أنه اسم مصرى خالص ، وهو مؤلف من اسم الشمس آتون مع فاء التعريف ، ولن يغيب عن القارئ ما بينه وبين اسم أخناتون من شبه وثيق .

على أن موسى بانتصاره للإسرائيلى قد تورط فى قتل المصرى عن غير عمد ، ولكنه مع ذلك عاد فأوشك تارة أخرى أن يتورط فى خلاف جديد بين مصرى آخر وبين ذلك الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس ويستصرخه اليوم ، ولم يجد موسى بداً من وصفه بأنه « غوى مبين » .

هنالك شاع الخبر وأنبئت السلطات المصرية التى ارتاعت كما ارتاع الناس لما ارتكب موسى من قتل رجل والشروع فى قتل آخر ، وربما ارتاعت لما أظهر من عصبية توشك أن تثير الفتنة وتنذر بشر مستطير ، فكان أن قر الرأى على محاكمته بما ارتكب والقصاص منه بما جنت يداه . وإن كان موسى قد رأى فى ذلك ظلماً صارخاً وافتئاتاً عنيفاً أن يطلب بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه ، أو أن يتهم بعصبيته وعبقرية لم يقصد إلى إثارتها ، ولكن الذى لا شك فيه أنه قتل وأن الظواهر وما وقع منه فى اليوم التالى لا تقف إلى جانبه ، ولا تبرئه أو تشفع له فى أى محاكمة يقدم إليها أو تحقيق يتعرض له . ولن يجد فى مصر يومئذ من يحميه أو يحول بينه وبين القصاص . ومع ذلك فقد كان المصريون أحرص الناس على عدالة وأشدهم استمساكاً بحق ، وحسبهم فى ذلك أنهم جعلوا للعدالة ربة سميت ماعت ، وأنهم كانوا يؤمنون بالمحاكمة إيماناً رسخ فى مجتمعهم وعقيدتهم حتى آمنوا بالحساب والمحاكمة فى الآخرة بين يدى رب الموتى أوزيريس على رأس قضاة عدول يبلغون اثنين وأربعين قاضياً ، حيث يتاح للمرء الخطاب والدفاع عن نفسه وإبراؤها من الإثم ؛ ثم يوزن قلبه على يد رب الحكمة لتجزى كل نفس ما عملت ، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وكان الملوك يحبون العدل

ويحبون الانتساب إليه إذ تسمى رمسيس بلقب حبيب الحق كما تسمى مرنپتاح بلقب الراضى بالحق » .

وكان المصريون قد أسسوا المحاكم وعينوا منذ مطالع تاريخهم فى الدولة القديمة القضاة الذين كانوا يتخذون من رمز العدل حلية يلبسونها فى أعناقهم ، ويحفظون الأحكام مكتوبة فى الأضابير . ولم تكن الجريمة مهما بلغت وفيمن وقعت – ولو على الملك – ليصدر فيها حكم أو قرار بغير تحقيق دقيق، وحكم جهد الطاقة سليم . ومن أنباء المحاكمات أن الريب والشكوك قد كانت حومت حول الملكة إيميتس زوجة عاهل الأسرة السادسة ببى الأول ، فلم يشأ أخذها بما اتهمت به بغير تحقيق عادل يجرى طى الكتمان ، فعهد بذلك إلى وزيره أونى الذى صدع بما أمر وقام به خير قيام ، وذلك مع حفاظه على السرية ، إذ روى هو لنا أنباء التحقيق دون رواية الموضوع ، كما وصلت لنا محاكمة المتآمرين على حياة رمسيس الثالث عاهل الأسرة العشرين فإذا هى مثال من أمثلة الحياد الحق والعدل الدقيق ، إذ أصدر الملك وهو على فراش الموت مرسوماً بتشكيل المحكمة وأوصى أعضاءها بالعناية حذراً أن ينزل بغير مذنب قصاص جائر . وكذلك جرت المحاكمات التى مثل بين يديها لصوص القبور من عهد رمسيس التاسع – رغم فساد العصر يومئذ وفساد الضمائر والذمم – من حيث الدقة فى استجواب اللصوص وسماع الشهود .

ومهما يكن من شيء ، فقد تحقق موسى أنه مطلوب بدم القتيل وأدرك ألا مظنة فى القصاص ، حيث أقبل عليه مصداق ذلك على لسان بعض المخلصين من المتصلين بولى الأمر :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين »

(القصص ٢٠)

ولم يكن لموسى من مناص إلا أن يهرب من مصر حيث لا تناله

هراوات الشرطة من رجال المازوى الأشداء أو تصل إليه أيدى السلطان، وكانت فى مصر شرطة منظمة يجند رجالها من قبائل البجاة فى أقصى جنوب مصر ويستطيعون الإتيان به .

« فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير »

(القصص ٢١ — ٢٣)

الفرار

خرج موسى من مصر هارباً حيث ولى وجهه قبل المشرق إلى المخرج من مصر والمدخل الطبيعى إليها . خرج إلى مدين عن طريق سيناء . وقد أقبل على بئر مدين حيث ازدحم الناس بأغنامهم يسقون . ونظر موسى فإذا فتاتان قد تنحتا عن الناس رقة وضعفا أن تجاهدا فى الزحام ، وقد طفقتا تذودان ما لهما من أغنام أن تختلطا بأغنام المتدافعين المتزاحمين . وتروق الفتاتان موسى وتأخذه الرحمة بهما ، بل لعله أعجب بإحداهما حيث تقدم إليهما متحدثاً مستفسراً ، فإذا هما فتاتان لشيخ كبير لا ولد له ، ولا هو يستطيع الخروج لسنه أو استئجار رجل يرعى غنمه لعسره ، وأنهما — من غير شك — إنما خرجتا إذن تحت وطأة الحاجة والعوز والاضيطرار . لذلك فقد أخذته الشهامة ودفعته الرحمة إلى بذل العون لهما .

« فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير » . (القصص ٢٤)

وتعود الفتاتان فتحدثان أباهما بما وقع لهما منذ قليل وقد عادتا هذه المرة مسرعتين . وظاهر أن إحداهما وقد كانت ألحن حجة وأبلغ مقالة ،

قد أفاضت فى وصف ذلك الغريب الناغب الذى دفعته النخوة وحرضته الشهامة دون سائر الناس على السقيا لهما ، حتى أغرت أباها بالإرسال إليه داعياً إلى طعام وداعياً إلى قسط من راحة بعد وعثاء السفر وسغبه . وأكبر الظن أن الأب المأخوذ بمقالتها لم يجد إلا أن يرسلها فى طلبه وهى أكثرهما حماسة وحرصاً على دعوته .

« فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . (القصص ٢٥)

الحمد لله ، فقد أتاه ما هو إليه من خير فقير ، وجنى جزاء ما قدمت يداه للفتاتين من معروف ، ثم أتاه البشير أنه هنا فى مدين ناج من بطش فرعون وملئه فلن تصل إليه أيديهم وأن النفوذ المصرى قد انحسر عن تلك البقاع .

وقد جلس موسى إلى مضيفه يتحدث إليه ويروى قصته ، ولكن الفتاة أدركت أن الضيف بعد أن طعم وأنس إلى أبيها قد أوشك أن يختم زيارته وينصرف لشأنه ، وقد وجدت فى نفسها ميلا إلى بقائه بل استبقائه ، فكان أن اهتدت إلى أمر عرضته على أبيها وتقدمت إليه فيه .

« قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » .

(القصص ٢٦)

وأدرك الأب بثاقب فكره ما قد كان يدور فى خلد ابنته وما كان يثور فى نفسها من المشاعر والأحاسيس ، وأنها مالت إلى ذلك الرجل العبرى المصرى الغريب الذى أقبل من مصر طريداً شريداً . « قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » .

(القصص ٢٧)

ولعل الرجل قد رأى من موسى لهفة على وطنه وحنيناً إليه فلم يشأ إلا أن يرفق فى الطلب ويرفق فى الإيحاء بالاستزادة . أما موسى فلم يكن لديه إلى غير القبول من سبيل .

« قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل » . (القصص ٢٨)

ولم يكن لموسى من بلد يعرفه ولا وطن يهفو إليه ويتطلع إلى رؤيته بعد ذلك المنفى الذى فرض ، أو قدر عليه سوى مسقط رأسه فى مصر . وكأنى به وقد كان يستعجل الأيام كى يعود إلى ذلك البلد الذى ولد فيه ونشأ فى ربوعه وتنسم هواءه وسعد به ، وهو لذلك لم يقطع على نفسه أطول الأجلين حين العهد مع حميه فأعطى الأمل وخص نفسه بالخيار ، أو ترك لها على هواها الخيار .

وأقام موسى فى مدين مع زوجه عاماً بعد عام ، حتى أتمهن ثمانى حجج ، ثم زادها عشراً ، فما زالت جريمته ماثلة لعينيه وخوفه من مرنپتاح يراود فؤاده . فتقول التوراة :

« وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات »

(خروج ٢ : ٢٩)

مات مرنپتاح فى مصر وانبعث الأمل بالعودة إليها فى صدره ، وخلفه على العرش ابنه الشاب سيتى مرنپتاح ، ولعل فيه أملا يطمع فيه وسماحة ترتجى ، وقد راود بنى إسرائيل الأمل فيه كذلك إذ تقول التوراة :

« وتنهد بنو إسرائيل من العبودية » (خروج ٢ : ٢٩)

إنه المعاد إذن إلى مصر ، وسيكون فيه الميعاد مع الله » .

« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى أتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة

المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين » .

(القصص ٢٩ — ٣٠)

« وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .

(طه ٩ — ١٦)

هناك فى ذلك الموقف المشهود الذى وقفه موسى فى تلك البقعة المباركة من سيناء عهد إليه ربه برسالته إلى فرعون وملئه :

« وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى . اذهب إلى فرعون إنه طغى » . (طه ١٧ — ٢٤)

«وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

(القصص ٣١ — ٣٢)

ولقد أحس موسى حينئذ بثقل العبء الذى وقع على كاهله . وقد كان وهو عائد إلى وطنه يقدر الأمن بعد الخوف والقرار بعد الفرار ، وقد كان حريصاً على ألا يثير عليه السلطان وقد قتل نفساً لم ينس أنه ما زال يحمل وزرها فى ضميره .

« قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » . (القصص ٣٣)

ومع ذلك فما كان ليعود إلى مصر لو لم يكن به اطمئنان أو بعض اطمئنان إلى أنه لن يطلب بدم ذلك القتيل إذا حسنت سيرته فيهم واستأنف حياة جديدة خالصة من العداء والعدوان ، وذلك فى عهد الملك الجديد الشاب سيتى مرنپتاح بن مرنپتاح .

أترى إلى أن العقوبة أو الدعوى الجنائية كما يقول أهل القانون قد سقطت بالتقادم أو مضى المدة وإن ظلت ماثلة فى الأذهان ؟ ! فقد ذكره فرعون بذلك حين لقيه فمنّ عليه أن رباه جده وأحسن مثواه أبوه .

« قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذن وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين » .
(الشعراء ١٨ – ٢١)

فقد فر موسى لما خاف ثم عاد حين أمن ، فإن كان ذلك كذلك فمتى تسقط الدعوى الجنائية فى مصر فى ذلك الأوان البعيد ؟ ! فلقد خرج موسى فى أعقاب جريمته فراراً من العقاب إلى مدين .

هناك استقبله والد الفتاتين فعرض عليه إحدى ابنتيه على أن يأجره أعواماً كان حريصاً على استطالتها ما استطاع ؛ ولكنه إنما عرض عليه الأجل الذى لا شك يقبل موسى قضاءه لاجئاً بعيداً عن مصر وهو السنون الثمانى مستوهباً منه – إن شاء – أن يتمها عشراً . وفى سفر التكوين من التوراة (٢٩ : ١٨) أن يعقوب تقدم إلى خاله لابان خاطباً ابنته راحيل زوجاً فقال : « أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى » وقد كان لرقم السبعة فيما يبدو منزلة خاصة فى عادات الشرق وتقاليده منذ القديم . ولكن صاحب موسى وحماه – فيما بعد – إنما عرض ثمانى ولم يعرض سبعاً ، كأنما تقدم – مع طمعه فى عشر – بما لا بد أن يقبله موسى

اضطراراً حتى تسقط العقوبة وحتى يستطيع العودة إلى بلده العزيز الذى لم يعرف بلداً سواه .

* * *

ثم كان ذلك الموقف المشهود حيث نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وحيث أدرك موسى أنه بذلك مقبل على جليل من الأمر خطير .

« قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم علىّ ذنب فأخاف أن يقتلون » .

(الشعراء ١٢ — ١٤)

وقد شرح ذلك مبيناً شيئاً من قلة الثقة بالنفس « قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » . (القصص ٣٢ — ٣٤)

ثم توجه إلى ربه بالدعاء :

« قال رب اشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى ، اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » . (طه ٢٥ — ٣٦)

* * *

وبعد ، فلعلنا بدراستنا للحياة المصرية والأدب المصرى أن ندرك الحكمة من نزول الآية والمعجزة بالصورة التى شاء الله أن تنزل بها ، فما كانت لتنزل إلا فى أمر من واقع حياة الناس وما يدور بأذهانهم ، فتكون محققة فى أعينهم على غير قاعدة ولا قياس لخارق من الأعمال طالما فكروا فيه وسمروا به وضربوا به فى أغوار الوهم وتخيلوه .

وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين ما كان الناس يخرجون به إلى عالم الغيب من عالم الشهادة ، ومن دنيا

الواقع إلى آفاق الخيال ، وكان المصريون – فيما تشهد به تلك الأقاصيص – يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال ، وفيما نسبوه إلى خوفو – فى بردية وستكار[1] – من حبه السحر وإقباله عليه ما يصور لنا كذلك ما تعلقت به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر ويستعينونه عليها .

وقد كنا قدمنا ما روى من أن خوفو جلس إلى بنيه يتحدثون إليه ويسمرون معه حيث طفق كل واحد منهم يروى له قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهان ، وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر ، إذ وقف خفرع فحدثه عن كاهن يدعى أوبا أونر بلغه أن امرأته تعلقت بفتى فى المدينة كان يقبل عليها فينفق معها سحابة النهار فى جوسق منعزل فى الحديقة عند بحيرة الدار ، فإذا قضى منها وطراً نزل إلى البحيرة يغتسل ، فعمد الكاهن فخلق من الشمع كهيئة التمساح ثم ألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى على الفتى حين نزل إليها ، ثم دعا مليكه ليشهد ذلك ، فما رأى الملك التمساح حتى ارتاع وفزع لمرآه ، ولكن الكاهن ما كاد ينحنى عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع . ثم وقف باوفرع فروى عن سنفرو أن كاهنه جاجام عنخ أشار عليه فيما يحس به من كآبة وضيق لم يجد إلى التخلص منهما من سبيل ، بالنزول إلى بحيرة القصر مع عشرين فتاة من الغيد الحسان من قتيبات قصره يجدفن ويغنين ، وقد فعل الملك فتسربت إليه البهجة وسرى إلى نفسه السرور بما شهد من فتيات ليس عليهن من اللباس إلا ثياب من شباك لا تستر شيئاً أو لا تكاد تستر شيئاً ، وبما سمع من غنائهن وهن يسرين به فى مياه البحيرة وسط الخمائل والأغصان ، لولا ما رأى من توقفهن عن التجديف لما شكت إحداهن من سقوط حلية لها فى الماء وإصرارها على حليتها لا ترضى عنها

(١) Lefebvre, op. cit.

بديلا ولا عوضاً وعد الملك به . هنالك دعا سنفرو كاهنه الذى قرأ من عزائم السحر ما انشقت به مياه البحيرة حيث انطوى نصف على نصف حتى ظهر القاع ورأى الحلية فالتقطها وردها إلى صاحبتها .

فلما كان دور ددفرع إذا به يحدث جلالته عن ساحر يحيا فى عهده يقال له جدى ، بلغت به القدرة أن يلحم الرأس المقطوع ويذلل الأسد لإرادته ، وقد دعى الساحر بين يدى خوفو حيث عرض سحره عليه وأوقعه بأوزة ثم ثور فصل رأس كل منهما ثم ما زال يقرأ من عزائمه والرأس يقترب من الجسد حتى التحما وعادت الحياة إلى كل منهما .

ولا شك أن ما استعرضنا من تلك الخوارق التى سمر بها المصريون إنما تذكرنا بما نزل على النبيين من معجزات ، فدمية التمساح التى استحالت إلى تمساح عظيم أرهب الملك ، فلما التقطه أو با أونر عاد سيرته الأولى ، إنما تشبه عصا موسى :

« فألقاها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » . (طه ٢٠ — ٢١)

وتشبه كذلك ما قيل على لسان المسيح :

« ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » .

(آل عمران ٤٩)

ثم نجد فى القصة الثانية شبهاً بما كان عند خروج بنى إسرائيل

« فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » (الشعراء ٦٣)

« ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى » . (طه ٧٧)

ولا شك تذكرنا قدرة جدى على وصل المفصول من رأس الحيوان بقوله تعالى :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » . (البقرة ٢٦٠)

صدق الله العظيم وجلت حكمته فيما يختار لأنبيائه من القول والفعل . إنه على كل شيء قدير .

لقاء فرعون

وصدع موسى بما أمر ، وولى وجهه مع أخيه شطر فرعون يدعوه

« وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » (الأعراف ١٠٤ — ١٠٥)

ولكن فرعون لم يسمع له ولم يؤمن به

« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين » . (يونس ٨٣)

بل لقد عمد فرعون إلى السخرية بما سمع من دعوة إلى الله

« وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين » (القصص ٣٨)

ثم كان بين موسى وفرعون جدل شق واستطال . وتساءل فرعون

« قال فمن ربكما يا موسى »

« قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

« قال فما بال القرون الأولى » ؟

« قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء

فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » . (طه ٤٩ ــ ٥٥)

ويتصل الجدل والحوار

« قال فرعون وما رب العالمين » .

« قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » .

« قال لمن حوله ألا تستمعون » .

« قال ربكم ورب آبائكم الأولين » .

« قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » .

« قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » .

« قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » .

« قال أو لو جئتك بشيء مبين » .

« قال فأت به إن كنت من الصادقين » .

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » . (الشعراء ٣٣ ــ ٣٥)

ويردد الملأ من حول فرعون قوله للناس

« قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون. قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم » . (الأعراف ١٠٩ ــ ١١٢)

« وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم » . (يونس ٨٩)

واستأنف فرعون حديثه مع موسى

« قال أجئتنا لتخرجنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى .

قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى .

قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى .

فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى » .

(طه ٥٧ — ٦٤)

« قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون »

« قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين» . (يونس ٧٧ — ٧٨)

« وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين .

قال نعم وإنكم لمن المقربين .

قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .

قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » . (الأعراف ١١٣ — ١١٦)

ونظر موسى

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » .

(طه ٦٦ — ٦٩)

« وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون .

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .

قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا

منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين » . (الأعراف ١١٧ — ١٢٤)

« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » . (طه ٧١)

ذلك وعيد أى وعيد . وهو وعيد ذكره وانفرد بذكره القرآن من دون التوراة ، وهو خبر خليق بالمؤمنين قبوله والإيمان به ، لأنه تنزيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من رب العالمين . ومع ذلك فقد شاء الله أن نجد مصدقاً لما بين يدينا من القرآن وأن ينحدر إلينا من وثائق التاريخ نص يصور وسائل التعذيب فى زمان « فرعون » وقال النسفى إنه أول من قطع من خلاف وصلب . وقد ورد النص عن مرنپتاح الذى شاع فى الناس أنه فرعون الخروج (١) . وعندى — وسوف أذكر الأسباب — أن فرعون الخروج إنما كان سيتى مرنپتاح بن مرنپتاح بن رمسيس ، وأنه إنما هدد بما كان استن أبوه فيمن كانوا عليه خارجين .

* * *

وقد تداعى الناس بعد ذلك اللقاء بين السحرة وبين موسى إلى بيوتهم أن يستأنفوا حياتهم مع دينهم الجديد .

« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » . (يونس ٨٧)

ولكن البطانة من حول الملك وكل الملوك لا تخلد إلى السكون فهى دائمة القول دائمة التحريض .

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون .

---

(١) Youssef, op. cit.

قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون .

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون. وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . (الأعراف ١٢٧ – ١٣٦)

غير أن الكوارث فيما روى القرآن وروت التوراة قد لحقت بمصر يومئذ سنين فأصيبت بالقحط والعلل والآفات ، ولم تكن مصر على كل حال بمنجاة كما قدمنا مما قد ينزل بها من ذلك على مدى التاريخ ، فربما انحبس النيل فصوح الزرع أو زاد فأغرق البلاد بطوفان عظيم ، وهو على الحالين كما قدمنا نذير النوازل ونقص من الثمرات . فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدواء والأوبئة فحصدت الناس حصداً يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور . وقع بها ذلك مثلا فى أعقاب الدولة القديمة حيث روى حكيم ذلك الزمان أيبوور أن الناس كانوا يلقون بموتاهم فى النيل حتى صار مدفناً ؛ ووقع أواخر الأسرة العشرين حتى اشتد بالناس الجوع عاماً سموه لشدته عام الضباع . ولقد كان المصريون يتخيلون بلادهم بما اندلع فيها من الأوبئة واستشرى فيها من الموت كأن ربتهم اللبؤة الضارية سخمت قد انطلقت فى الناس عاصفة ضارية تنهش

لحومهم وتلغ فى دمائهم ، حتى لقد انطبع خيالهم هذا فى تصوير معارك الملك ومذابحه الحربية فيشبهونه «كأنه سخمت العاصفة حين المجاعة (١)»

ولذلك فغير بعيد ولا شاذ أن تشحب الوجوه وتعقم النساء ويحل بالناس الضعف والهزال وأن يصابوا — كما ذكر المفسرون — بالنزيف والرعاف فيسيل الدم من أنوفهم لسوء التغذية وعوز الجسم إلى ما يقيم عليه حيويته ، وقد يكون ذلك لعلة غامضة وداء مجهول . وكذلك فغير بعيد — مع الصورة التى أنشأها أيپوور أن تقعد بالناس الصحة والهمة عن بذل الجهد للحرث والزرع برغم فيض النيل ، — فكيف بالزرع وقد أرسل عليهم الطوفان — وأن تترك الأرض مزرعة للضفادع — وكانت معروفة فى مصر منذ أقدم العصور باسم قرة — حتى يضيق الناس بها . وكانت مصر عرضة لكوارث الجراد التى تأتى على كل شىء فلا تبقى ولا تذر ، وكفى بالمصريين نقصاً فى الثمرات أن يرسل عليهم الجراد ، وكان لكثرته الهائلة إذا أقبل مضرب المثل للجيوش الكثيرة الساحقة ، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحباً تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفته نصوص الأهرام (٢) . وكان الجراد فى مصر القديمة معروفاً باسم سنحم كما كان القمل معروفاً باسم كنت وما زال فى بعض صعيد مصر يسمى غتفات . على أن مفسرى القرآن يرون فى لفظ القمل بالقرآن مفهومات شتى ، فقالوا هى الدبى وهى أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها أو البراغيث وكبار القردان وذكرت التوراة فى ترجمتها العربية والألمانية البعوض وفى ترجمتها الإنجليزية والفرنسية القمل وهى على كل حال من الحشرات المألوفة فى مصر والتى قد تنتشر وتكثر فى وقت واحد ، ولذلك فقد نفسر اللفظ القرآنى بالحشرات

---

(١) K.A. Kitchen, Ramesside Inscriptions (Oxford 1971) Vol. II (fascicle 6) p. 318 line 4, 5.

(٢) Pyramid Texts § 891, 1772.

عامة وهو فى أكبر الظن مفهوم الآية الكريمة والله وحده علام الغيوب.
ومهما يكن من شيء ، فلم تكن أحوال مصر من بعد مرنپتاح مستقرة ولا هادئة ، ولا نكاد نعرف عن تلك الفترة من تاريخها إلا لمعاً تدل على اضطراب فى الحكم ونزاع على العرش وفساد فى المجتمع. ولا شك — إيماناً بالله وكتاب الله — فيما كان من تعرض مصر لما جاء فى الذكر من سورة الأعراف ، وهو غير بعيد عقلا واستدلالا من شواهد التاريخ وغير بعيد أن تكون السنون الست من عهد سيتى الثانى قد امتلأت بالفصل الأخير من قصة بنى إسرائيل فى مصر ، حيث أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات بما أرسل عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات منجمات عاماً من بعد عام ، وأن يكون ذلك من عوامل انهيار الأسرة التاسعة عشرة وسقوطها بعد ذلك ، إذ خلف سيتى الثانى ابنه سپتاح ، ولكنه أوتى الحكم صبيًّا حيث أقامه على العرش سورى كان صاحب النفوذ فى الدولة اسمه باى ، ومع ذلك فلم يجاوز حكم سپتاح أعواماً ستة لم تخل من نزاع واضطراب ازداد من بعده حدة وضراماً ، إذ انفرد بالسلطان مع خلو العرش سورى لعله باى نفسه (١) ودخل حكام الأقاليم فيما بينهم فى حروب دامية وصراع طويل ، وأهمل القانون حتى حرم كل إنسان حقه كما جاء فى بردية هاريس فيما صورت من أحوال تلك الفترة على لسان رمسيس الثالث الذى قبض بعد ذلك على السلطة حيث يقول :

« قال الملك أوسرماعت رع عاش موفقاً سليماً : الإله العظيم للأمراء وقادة البلاد وللمشاة والفرسان والشرادنة وأعداد الرماة وسائر مواطنى أرض مصر.

ألا فانصتوا حتى أنبئكم بفضائلى التى فعلت حينما كنت ملكاً للشعب. لقد كانت سقطت مصر ، وحرم كل امرئ من حقه ، ولم

---

(١) Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 277 f.

يكن متحدث باسمهم منذ أعوام كثيرة . . وكانت أرض مصر موظفين وحكاماً يقتل أحدهم أخاه كبيراً وصغيراً . . ثم حل عهد آخر فى أعوام خاوية حيث نصب نفسه يرسو السورى أميراً . ففرض على البلاد كلها الجزية له ، وجمع رفاقه ونهب أموالهم ، فعاملوا الآلهة كما يعاملون الناس ولم تقدم قرابين فى المعابد .

فلما أن ارتدت الآلهة بالرحمة لتقيم البلاد على الحق كما كانت أحوالها الطبيعية ، أقامت ابنها الذى خرج من جسدها ليكون عاهلا(١) .

الخروج

ولم يعد لبنى إسرائيل ومن تبعهم من المصريين المتهودين إلى البقاء فى مصر من سبيل . وقد ضاق موسى والذين هادوا بتلك الحياة التى فرضها فرعون فلم يجد إلا أن يستعدى الله عليه :

« وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . (يونس ٨٨ — ٨٩) .

وقد كان موسى وهارون قد حاولا — عن أمر الله — استئذان فرعون فى الخروج .

اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى . فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » . (طه ٤٣ — ٤٧)

---

(١) Breasted, op. cit., IV, § 398; Pritchard, op. cit., p. 260.

ولم يفلح موسى فى استرضاء فرعون ولا إقناعه ، بل لقد وقع بينهما جدل عنيف بلغ حد التراشق بالألفاظ وبلغا إلى نقطة اللاعودة كما نقول اليوم .

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً » .
(الإسراء ١٠١ – ١٠٢)

ولم يعد لبنى إسرائيل إلا الخروج من مصر هاربين ، فكان أن أذن لهم رب العرش بالخروج بليل ناجين .

« وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون » . (الشعراء ٥٣ – ٥٦)

وكان موسى قد خبر الطرق من مصر وإليها إذ خرج منها – بعد قتله المصرى – خائفاً يترقب على طريق حرص من غير شك أن يكون بعيداً عن العيون والرقباء ، وعاد من غير شك أيضاً على الطريق السوى الذى يسلكه المسافرون ، وذلك كما وقع للأمير سانوهى بما يقرب من القرون السبعة من قبل موسى .

كان طريق حورس الملكى ينبعث من ثارو – بموضع القنطرة الآن – إلى غزة جنوبى فلسطين ماراً بالعريش ، حيث احتل مكانة خطيرة فى الحركات العسكرية التى وجهها الفراعين أو تعرضت لها مصر من قبل جيرانها . ولذلك فقد اشتد حرص الفراعين على تأمين تلك التخوم التى كانت عرضة لغارات البدو على شرق الدلتا ، وكانت تدابير الدفاع قد اقتضت فى الأسرة الخامسة منصباً خاصاً يتولى الإشراف على الأسوار والصحراوات والقلاع الملكية فى منطقة عين شمس ، وذلك لتأمين الطرق وحماية القلة القليلة من الآبار التى يعتمد عليها فى سفرهم المسافرون .

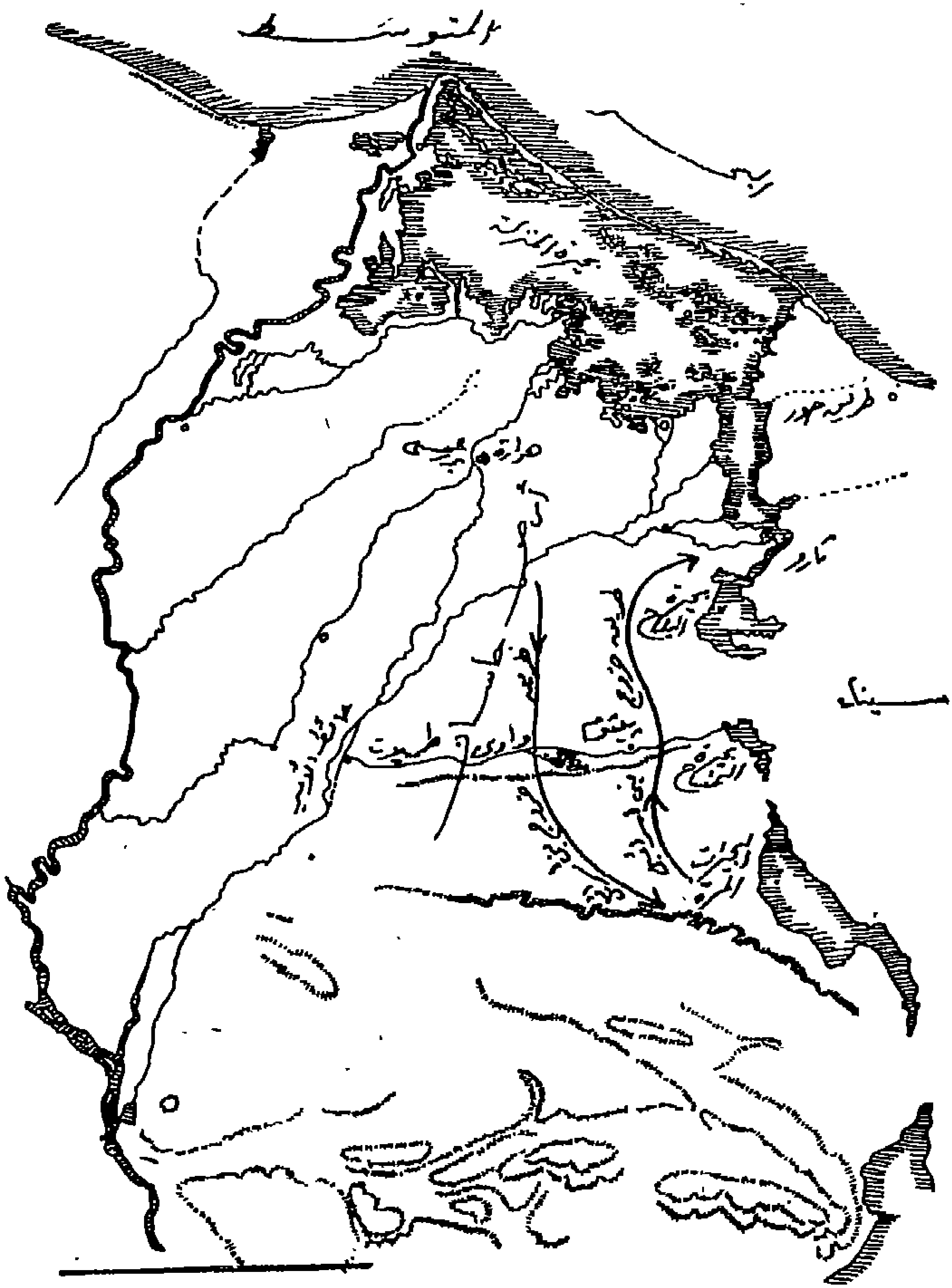

خروج بنى إسرائيل

(شكل ٧)

ولقد تحدثت قصة سانوهى عما كان عليه أن يتجنب فى فراره من مواقع المراقبة والدفاع التى كانت تغطى التخوم الشرقية بأسرها، حيث قامت كذلك أسوار قوية عرفت باسم أسوار الأمير فى موضع الإسماعيلية الآن وقلعة ثوكوت إلى الغرب منها فى موقع تل المسخوطة ، وذلك فضلا عن أبراج المراقبة عند الآبار فى الجنوب . وكان على كل مسافر أن يخضع للتفتيش عند مخافر الحدود كما كان على كل داخل إلى مصر أن ينتظر حتى يأتيه الإذن بالدخول . ولذلك فقد اضطر سانوهى فى فراره أن يوغل إلى جنوبى بحيرة التمساح عند البحيرات المرة حتى وجد سبيل الإفلات ؛ وكذلك فعل موسى فى أكبر الظن حين هرب من مصر وحيداً إلى مدين ، وكما فعل من بعده وقبيل خروجه بنى إسرائيل عبدان آبقان أرسل فى أثرهما ضابط حفظ لنا تقريره عن تعقبهما . فقد كتب كاكم ور قائد قوات ثوكوت إلى زميليه إينى وباك ن بتاح يحيطهما خبراً بذلك ، ويروى لهما ما تنطس من أخبار الآبقين ، إذ ذكر أنهما مرا بمخفر ثوكوت قبيل وصوله إليه بساعات وأنهما سبقاه فاجتازا الحصون الشمالية من مجدل أو قلعة سيتى مرنبتاح قبل أن يدركهما ، ثم يقول الضابط صاحب الرسالة « فإذا بلغكما كتابى فاكتبا إلى بكل ما وقع لهما وعمن استدل على أثرهما والمخفر الذى استدل عليه والرجال الذين جدوا فى أعقابهما والعدد الذى أرسلتماه فى طلبهما » (١).

وقد تحدثت التوراة عن خروج بنى إسرائيل أنهم وقد بيتوا النية على الفرار قد « طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش

---

(١) Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937) p. 66-67; Pritchard, op. cit., p. 259.

(شكل ٨)

من الرجال عدا الأولاد ، وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً » . (خروج ١٢ : ٣٥ – ٣٨)

ولا حاجة بنا بعد الذى بينا من قبل فى الوقوف هنا عند تعداد بنى إسرائيل عند الخروج ، وأكبر الظن أن لفظ الألف قد زاد فى الترجمة على الرقم الأصيل ، أو لعله صرف إلى معنى العدد فترجم على غير مقصده ومرماه ، فقد يؤدى لفظ الألف فى العبرية فضلاً عن المثين العشر معنى السبط أو الإلف بكسر الهمزة والأليف ، فكأن العبارة فى مصدرها الأصيل عن المرتحلين من رعمسيس إلى سكوت أنهم كانوا ستمائة سبط ماش من الرجال .

ومضت التوراة فى حديثها عن خروج بنى إسرائيل فتقول :

« وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى ايتام فى طرف البرية . . . ثم أمروا أن ينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون » .

(خروج ١٣ : ٢٠ ، ١٤ : ١ – ٢)

ولقد جهد علماء الآثار ما استطاعوا فى تحقيق أسماء تلك المواقع فى شرقى مصر وفى مقابلتها مع ما انحدر إلينا فى الآثار من أسماء المواضع المصرية القديمة [1] ، حيث تعرضت كما وردت فى التوراة للتحريف والتصحيف فقربوا لفظ سكوت بشبيهه ثوكوت وبين مجدل بمجدل سيتى مرنپتاح وهما الموضعان اللذان شهدناهما فى رسالة الضابط عن العبدين الآبقين ، وإن ظل بعض هذه الأسماء موضع جدل كثير .

ومهما يكن من شيء ، فلقد اتجه بنو إسرائيل إلى الشرق حتى وقفوا بساحل الماء ، إذ بدءوا رحلتهم بالسير إلى الجنوب كما فعل سانوهى والعبدان الآبقان وكما عسى أن يكون فعل موسى فى فراره إلى مدين ، ثم استأنفوا المسير إلى الشمال حتى وقفوا حيث وقعت المعجزة الكبرى عند بحيرة البلاح التى تخرج من بحيرة المنزلة فى أكبر الظن .

---

(١) Montet, op. cit., p. 49 ff.

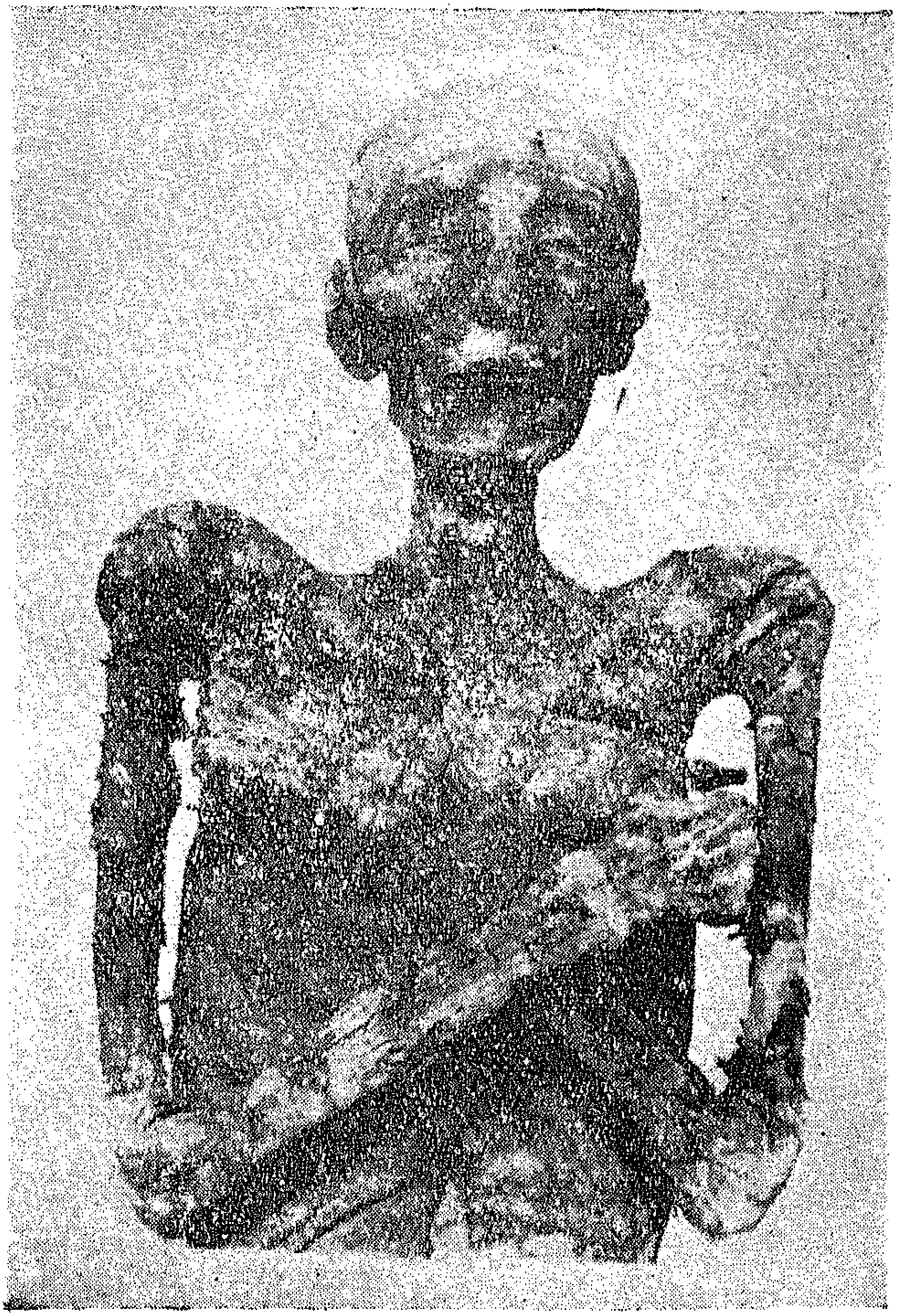

(شكل ٩)

وعلم بذلك فرعون وجنوده .

« فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون » . (الشعراء ٦٠ — ٦١)

وحدثت التوراة فى ذلك فقالت :

« فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب ، فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا ، فشد مركبته وأخذ قومه معه ، وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبية على جميعها . وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل ، وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيعة ، فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروت أمام بعل صفون .

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية . ماذا صنعت لنا حتى أخرجتنا من مصر أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية » . (خروج ١٤ : ١٥ — ١٢)

أما موسى فإنه .

« قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » . (الشعراء ٦٢ — ٦٧)

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . (يونس ٩٠ — ٩١)

(شكل ١٠)

غرق فرعون كما ذكر القرآن والتوراة . ولذلك فربما اتخذت طائفة من الناس من غرقه دليلا ينكرون به على خروج بنى إسرائيل أن يكون وقع فى عهد ملك وجدت فى طيبة جثته محنطة . ومع ذلك فليس الغرق على ما يقولون بدليل .

فلقد كانت عادة المصريين وعقيدتهم التى رسخت فى الأعماق قد جعلت إقرار الميت فى قبره وإجراء الشعائر عليه أهم ما يقدر المصرى ويحرص عليه ، وإلا حرم الحياة الأخرى ونعمة الخلود . ولقد تجلت آية ذلك وتتجلى فيما خلف المصريون من الأضرحة والقبور ، وفيما كانوا يبذلون من الجهد — ولو اضطروا إلى القتال — فى سبيل استخلاص جثة رجل مات أو قتل فى الغربة لدفنها فى بلده . ولقد كان ذلك واجباً يرعاه الملوك وترعاه الدولة وتتحمل نفقته فى كثير من الأحيان ، ولئن كان ذلك لأواسط الناس فى مصر فماذا عسى أن يكون للفراعين من سلالة الأرباب ؟ ! فلا شك إذن بحكم طبيعة المصريين أن تكون جثة فرعون الغريق قد انتشلت من الماء حيث حنطت ودفنت بما تعود المصريون من الدفن الكريم ، ولقد مر بنا أن المصريين قد خصوا الغريق المنتشل فيما بعد بعبارة الحميد « حسى » .

ولقد ذكر الله فى محكم آياته غرق فرعون فى سورة يونس وذكر تعالى نجاته ببدنه من الهلاك لتكون آية للناس .

« فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » . (٩٢)

غرق فرعون ونجا بدنه ليكون لمن خلفه آية .

ولم تكن الآية لمن خلفه جيلا أو جيلين ، بل بقيت آية للعشرات الكثيرة من الأجيال والمئات الكثيرة من السنين ؛ وهى إنما صارت كذلك بما مكن رب العرش لأهل هذا المصر من سلطان العلم وأسرار التحنيط .

وإلى القاهرة يأتى اليوم الحجيج السائحون إلى مصر من كل فج

(شكل ١١)

عميق ليعبروا فى خطوة واحدة ولحظة عابرة تلك العشرات والآلاف من السنين . وليشهدوا فراعين مصر فى رقدتهم التى كتب على العالمين.

هذا رمسيس الثانى بشعره الأشيب وما زال به أثر الخضاب بالحناء، (شكل ٨) . ثم هذا مرنپتاح شيخاً أصلع وقد كان بادناً (شكل ٩) .

ثم هذا سيتى مرنپتاح أو سيتى الثانى (شكل ١٠) .

ذلك من آيات الله .

وهى آية تتمثل فى كل هؤلاء وفى غيرهم من الفراعين ممن نراهم راقدين . واحد من هؤلاء كان يعذب بنى إسرائيل فيذبح أبناءهم ويستحى نساءهم، ثم واحد من هؤلاء رفض ملة موسى وكان صاحب خروجهم من مصر . ومع ذلك فما زال اليقين عند صاحب اليقين وما زال العلم عند رب العلم يؤتيه من عباده من يشاء وهو علام الغيوب .

ما بعد العبور

وبعد ، فلقد أفلت بنو إسرائيل من فرعون وجنوده وانطلقوا إلى سيناء ، وشغل المصريون عنهم بمصيبتهم فى مليكهم الغريق وتتويج خليفته الجديد . ولعل المصريين قد كفوا عن تعقبهم هناك وقد عرفوا أنهم طائفة هاربة لا تبغى سوى النجاة ولن يكون منهم على مناجمهم فى سيناء من خطر يحذرون . وكانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر مصر بالفيروزج والنحاس ، حيث تركت بعثات التعدين كثيراً من النقوش فى وادى مغارة وسرابة الخادم ، وكان المهندسون والعمال ممن يذهبون إلى سيناء يتعبدون للآلهة حتحور ربة تلال الفيروزج طالبين إليها الحماية والأمن ويقربون إليها الحمد والثناء على ما تقدم إليهم — فى عقيدتهم — من خير .

ولقد اقتضى استغلال المناجم المنتظم وقيام مجتمعات العمال فيها قيام معبد منذ الدولة الوسطى للآلهة حتحور فى سرابة الخادم نرى أطلاله

اليوم مصورة فى(شكل ١١) . والذى لاشك فيه أن بنى إسرائيل قد اتبعوا الدرب الذى كانت قوافل التعدين تسلكه إلى تلك المناجم فى سيناء وأنهم مروا بتلك المناجم فى تجوالهم هناك . حيث أشار القرآن — وحده — إلى مجتمع مقيم حول عبادة له فى تلك البقاع . ولقد أحس بنو إسرائيل بحكم مقامهم فى مصر واختلاطهم بالمصريين واتخاذهم حضارتهم بالحنين إلى حياتهم الأولى وتعلق قلوبهم بأرباب المصريين التى كانوا — معهم — يعبدون.

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » . .
(الأعراف ١٣٨)

لذلك فلم يكد موسى يتركهم لميقات ربه حتى تداعوا إلى عبادة العجل واتخاذ التماثيل .

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» ... « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين » .
(الأعراف ١٤٢ ، ١٤٨)

وأخبر الله موسى بضلال قومه .

« وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً... قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى » . (طه ٨٣ — ٨٨)(١) .

---

(١) انظر سفر الخروج اصحاح ٣٢ .

وكانت عبادة العجل فى مصر قديمة امتدت منذ أقدم عصور التاريخ حتى دخلت المسيحية وغلبتها فيها. وقد عرف أشهر تلك العبادات باسم مرور وحبى (منيفس وأبيس فى تصحيف اليونان) حيث عبد الأول فى عين شمس رمزاً لإله الشمس والثانى فى منف مدينة پتاح رمزاً لپتاح . وكان بتاح هذا يتمتع على عهد الأسرة التاسعة عشرة بالدرجة الرفيعة والمنزلة السامية ، كذلك حرص أمراء تلك الأسرة من أمثال مرنپتاح الذى صار إليه الملك من بعد رمسيس الثانى على تولى منصب الكاهن الأكبر للعجل حبى (أبيس) ومن قبله كان أخوه خعمواس كاهنه الأكبر كذلك، وذلك فضلا عن عبادات أخرى اتخذت صورة العجل فى مصر مثل مين ومنتو .

وكذلك عبدت حتحور فى صورة البقرة وكانت فى عقيدتهم مرضعة ربهم حور بن أوسير ، ثم ربة الحب والحنان والموسيقى ثم صارت ربة للجبانة ترعى الموتى وترأمهم ، وكانت صاحبة ألقاب ونعوت كثيرة منها « الذهبية » أو ربة الذهب و « صاحبة القلادة البراقة كالسماء بنجومها » ، كما كانت لها تماثيل مموهة بالذهب حفظت بمتحف القاهرة مثل منها .

ومن المحقق أن بنى إسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى إنما كانوا لما اعتادوا فى مصر من الآلهة مرتدين ، وإنهم إنما اتخذوه من حليهم من الذهب فتنة بحتحور الذهبية وما كان لها من منزلة فى النفوس ، وذلك فضلا عما تأثروا به من حب المصريين للذهب وصنع تماثيلهم الثمينة منه . وما ندرى لعل لله حكمة فيما كان من أمره بنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة وأنها « بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ولقد كان البقر فى مصر من أنواع وألوان ، حيث كان فيها كذلك الأحمر والأسود ونوع آخر لا نراه اليوم يجمع بين البياض والسواد ويشبه ما هو معروف فى أوربا اليوم . ولعل فيما أبدى بنو إسرائيل من تلكؤ ومراوغة

فى ذبح البقرة وما كان من تنطعهم فى التساؤل عنها وعن لونها من أثر ما كان وقر فى نفوسهم من تقديس حتحور .

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » . (البقرة ٦٧ — ٧١)

ولئن كان خرج بنو إسرائيل من مصر فقد ظلوا منها على تذكر وحنين ، فلقد ضربوا فى سيناء حيث وجدوا حياة فيها مع البساطة الحرية والأمن وفيها الخلاص مما كانوا يؤرقهم من الذلة والخوف ، وفيها من الرزق ما يأتيهم حلالا سائغاً بغير مشقة ولا جهد .

« وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم » (الأعراف ١٦٠)

كانوا يجدون المن أو العسل البرى يشتارونه فى غير مشقة ولا جهد وكانوا يجدون السلوى أو السمانى وفيراً يسيراً صيده ، وكانت سيناء وما زالت قبلة للأفواج الكثيرة من طيور الهجرة تقبل فى الخريف متعبة مرهقة بعد عبور البحر ، فما إن تجد الأرض حتى تحط فلا تكاد حتى تستريح تريم ، فإذا لاحت تباشير الربيع عادت إلى اجتياز سيناء فى طريقها إلى البحر تعبره إلى حيث تقيم ..[١] .

---

(١) Meinertztragen, Nicoll's Birds of Egypt, p. 41, 648-649.

ومع ذلك فلم يرض اليهود بما نزل عليهم من رزق الله، إذ كان الذل الذى احتملوه فى مصر أحب إليهم من الحرية فى الصحراء ، وقد تبعوا موسى فى الخروج مكرهين ، ألم يذكروه عند شاطئ البحر بقولهم : «كف عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية » .

فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية ، وقال بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع » (خروج ١٦ : ٢ — ٣)

ثم طفقوا يعددون ما كانوا يجدون فى مصر من الخير وألوان الطعام :

« فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً ، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم ، والآن قد يبست أنفسنا ، ليس شىء غير أن أعيننا إلى هذا المن » (عدد ١١ : ٤ — ٦)

وفى إعجاز قرآنه العظيم أخبر الله بذلك نبيه فى سورة البقرة قال :

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . (البقرة — ٦١)

كانت وجهة موسى بعد الخروج أرض كنعان ، فيقول كاتب التوراة « وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة ، لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر » (خروج ١٣ : ١٧)

على أن موسى قد طفق يوالى رسالته ، فيتحمل ما حمل من قيادة

هؤلاء الناس وقد جعلهم الله أحراراً، ملوكاً لأنفسهم، ملوكاً لأرزاقهم، وآتاهم من ظلال الغمام والرزق ما لم يؤت أحداً من العالمين، فهو يريد الخروج بهم من سيناء إلى أرض كنعان، ولكنهم بما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة وما رسخ فى أعماقهم لذلك من الجبن والخوف إذا هم يتقاعسون، كما كانوا عند خروجهم من مصر متقاعسين. وكذلك استشعروا من دخول كنعان.

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين.

قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ». (المائدة ٢٠ — ٢٦)

ما كان لموسى إلا أن يرفع شكاته إلى الله فى أمر أتباعه الفاسقين فكان أن حقت عليهم كلمة الله وحكمه بتحريمها عليهم وبتيههم فى الأرض إلى ما شاء الله.

* * *

وبعد، فأما وقد خرجوا من مصر يهيمون فى الأرض فقد خرجوا كذلك عن نطاق ذلك الكتاب، ولذلك فلنذرهم هائمين لنعود إلى ما قدر لمصر من حظ وما حظيت به من صفة فى كتاب الله، وسنة رسول الله.

موطن بنى إسرائيل فى مصر وفرعون من القرآن

دل القرآن على مقام بنى إسرائيل فى مصر من جملة آيات من كتابه العزيز ، فلقد ولد موسى ونشأ حيث كان أبواه وشيعته يعيشون فى عاصمة مصر أو عندها غير بعيد من مقر فرعون ، وآية ذلك أن أم موسى قد ألقته فى البحر « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب » . ولم يبتعد تابوت موسى إلا بمقدار مسرى النيل الهادئ ضحوة من نهار وبمقدار طاقة الفتاة أو الصبية على المسير من ورائه حتى ألقاه البحر بالساحل فالتقطه آل فرعون ، وبمقدار طاقتها على العودة إلى أمه لترتد بها متقدمة إليهم فى إرضاعه وكفالته .

« إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن » . (طه ٤٠)

ثم دل على مقام بنى إسرائيل - حين تقرر خروجهم بليل وتلقى موسى أمر ربه « فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون » . (الدخان ٢٣)

ولم يبتعد بنوا إسرائيل عن العاصمة إلا بمقدار مسيرهم بين منتصف الليل ومشرق الشمس ، إذ خرج فرعون وجنوده فى طلبهم مشرفين على البحر حيث أدركوهم حين تنفس الصبح مع مطلع الشمس أو داخلين وقت شروق الشمس كما يقول المفسرون فى قوله « فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون» .

(الشعراء ٦٠ - ٦١)

كان بنو إسرائيل إذن يسكنون إلى الشمال الغربى من البحر الأحمر وخليج السويس ، وكان مقامهم هذا فى وادى طميلابت غير بعيد من عاصمة مصر آنذاك ، وذلك فى البقعة التى سميت فى التوراة أرض جاسان مصحوفاً عن لفظ جسم أو جاسام ، حيث فرضت على بنى إسرائيل السخرة « فبنوا لفرعون مدينتى فيثوم ورعمسيس » .

كانت عاصمة مصر إذن على عهد يوسف أيام احتلال الهكسوس كما كانت على عهد موسى تقع شرقى الدلتا ، ولذلك فما ينبغى فى فرعون موسى إلا أن يكون ممن كانت عاصمتهم هناك . ولا سبيل إلى الأخذ بغير ذلك من قول . فلقد ظلت طيبة فى صعيد مصر عاصمة مصر من بعد الهكسوس حتى عهد رمسيس الثانى الذى نقل مقر حكمه منها إلى مدينة أنشأها على أنقاض مدينة الهكسوس سماها « بر رعمسى مرى آمون عانختو » بمعنى « دار رمسيس حبيب آمون عظيم الانتصارات » وكان المصريون كثيراً ما يكتفون بصدر الاسم دون نعوته فيقولون بر رعمسى كما كان يغفلون من أسماء مدنهم ومواقعهم الجغرافية ما صدر منها بلفظ « حوت » و « بر » بإسقاطه فيصير — كما جاء فى التوراة — رمسيس ليس غير، وربما كان فى قرب أرض جاسان من العاصمة على عهد رمسيس ما دعا كاتب سفر الخروج من بعد أمة من الزمان إلى تسميتها أرض رمسيس بدلا من أرض جاسان ، وكانت تمتد من غير شك حتى برتوم — فيثوم — كما تمتد إلى الغرب حتى المدينة التى أضفت اسمها على هذه البقعة كلها وهى جاسام . ويبدو أن هذا الاسم إنما عرف أول مرة فى أنشودة تصف ستوسرت الثالث بأنه درع نحاس من جاسام ، حيث ينصرف المعنى إلى صلابة القلاع فى جاسام كأنها النحاس ولم تكن هذه القلاع سوى قلاع امنمحات الأول التى كان أقامها على حواف الأرض المزروعة(١) . ولقد استقر القول فى تحديد موقع جاسان حيث عثر على زون لعاهل الأسرة الثلاثين تخت نبف (نكتانيبو الأول) فى صفت الحنة إذ ورد فيه أن الملك تكريماً لأبيه سوبد رب المشرق قد ذهب إلى جسمة عن مشورة من ربه الأقدس فى هذا المكان فأقام فى هذا الزون تمثال هذا الإله .

---

(١) Montet, ibid.

فرعون

عرف عاهل مصر فى عصورها القديمة باسم فرعون ، وهو لقب اختص به كما اختص كسرى عند الفرس والنجاشى عند الأحباش من ملوك العالم القديم . وعن فرعون تحدثت التوراة وبه نطق القرآن ، فجاء فى العبرانية بلفظ « فرعو » وفى العربية فرعون ، ولم يكن هذا اللفظ سوى تصحيف للفظين المصريين پرعو بمعنى البيت العظيم ، وكان يكنى بتلك العبارة منذ الدولة القديمة عن قصر فرعون دون شخصه ، أو يكنى بها أحياناً عما يتصل به من شئون القصر والحاشية ، فكان المصريون إذا ذكر اسم الملك اتبعوه بالدعاء له بالحياة والرفاهية والسلامة ، وكذلك صاروا يفعلون إذا ذكر پرعو ، وإن ظل القصد راجعاً إلى معنى البيت العظيم .

على أن دلالة اللفظ على شخص الملك نفسه لم تثبت إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة على عهد أخناتون — إذ لقب بذلك على بعض آثاره كما خوطب به فى بعض ما وجه إليه من الكتب . فلما كانت الأسرة التاسعة عشرة — وهى أسرة رمسيس الثانى وبنيه — ذاع اللقب فيما ورد عن الملك من الخبر والخطاب ، وحل فى أحيان كثيرة محل لقب الجلالة فقيل خرج « جلالته » أو خرج پرعو على سواء[١] .

ومهما يكن من شىء ، فإن القرآن لم يذكر « فرعون » إلا فيما روى من نبأ موسى ولم يذكره مرة واحدة فيما أورد من سيرة يوسف عليهما السلام . وتلك دقة الإعجاز التى قد لا تتوفر لأحرص الناس من العلماء والمؤرخين ، فلم يكن لقب فرعون بدلالته على ملوك مصر ذائعاً فى ذلك الزمان من عهد يوسف ، ولم يكن الملك الذى دخل يوسف فى خدمته مصرياً فيستحق لقباً اختص به الملوك من المصريين ، بل كان

---

(١) Gardiner, Egyptian Grammar (Oxford 1927), p. 75.

أجنبياً يناصبهم ويناصبونه العداء ، كذلك لم يكن الملك هو بطل القصة كي يخصه القرآن بلقب يفرده وينبه إليه ، ولكنه آثر فرعون موسى بذلك اللقب الذى أطلقه اسما له وأجراه علماً عليه تمييزاً من سائر الملوك وقصراً عليه وحده لما وصفه به من المروق والطغيان ، ذلك الطغيان الذى صار اسم فرعون — بغير الحق — فى نظر الناس علماً عليه . ولقد شاء الله — مع عزوفه عن أن يسمى فرعوناً بذاته — أن يعينه ويختص واحداً من سائر الفراعين ، ذلكم هو الفرعون الذى صحبه وخدمه رجل من خاصته هو هامان أو حورمين ، وذلك حين الحديث عمن أرسل إليه موسى بالدعوة وجهر بالتحدى والتكذيب فحقت عليه الكلمة ، إلا أن يكون مفهوماً متعيناً من سياق الآيات .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب » (غافر ٢٣ — ٢٤)

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

(العنكبوت ٣٩ — ٤٠)

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » . (القصص ٨)

« ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

(القصص ٦)

وفى غير ذلك يتعين فرعون بداهة فيما يوجه الله من حديث عنه إلى موسى وقومه أو فيما يجرى بين موسى وفرعون من حوار . أما التعميم فى أول القصص فينصرف الخبر فيه إلى ما وقع لموسى مع من عاصر من فرعون حكم مصر ، وذلك فى قوله تعالى :

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلوا عليك من نبأ موسى

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » (١ — ٤)

وذلك فضلا عن الحديث عن آل فرعون .

كان فرعون مصر ملكاً قوى النفوذ واسع السلطان ، وصفه الله فى قرآنه العظيم بأنه « فرعون ذو الأوتاد » وهو وصف جمع فى إعجاز معجز روعة البلاغة وغزارة البيان ، وذلك فى تصوير قرآنى محكم يوحى فى النفس بإحساس الهول والشموخ حين نستحضر صورة الجبل الباذخ فى قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً » . (النبأ ٦ —٧)

ولقد تمكن فرعون فكانت له فيها أوتاد أى أوتاد ، ولئن صح وهو الأرجح أنه رمسيس الثانى وبنوه ، فلقد كان له من الآثار والمعابد فى أنحاء مصر كلها ما يهول بكثرته وعظمته وشموخه العقول ويحير الأوهام ، وهى دليل ناصع على قوته وسطوته وبيان ناطق على سلطانه فى جيوش من العمال وفيالق من المفنيين وكتائب من المهندسين ، كانوا كأنهم جن سليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وصروح راسيات . ولعل فى تلك الآية من سورة ص وأختها فى الفجر تنبيهاً إلى ملك فرعون فى مصر وما فيها من آيات العظمة والشموخ .

على أن صورة الوتد من الخيمة قد سيطرت على فكر عرب المفسرين فقدروا الأوتاد مضارب كثيرة لأجناد له كثيرين ، أو كانت له أوتاد يلعب بها ، وفسروا كذلك الآية بأنه ذو الملك الثابت وذلك من ثبات البيت المطنب بالأوتاد وذلك من قول العرب لمن تمكن فى أرض إنه ضرب بها أوتاداً من الخيام .

كان لرمسيس — حقًّا — أجناد كثيرون خاض بهم مع المشرق حرباً عواناً وحافظ بفضلهم على إمبراطورية عظيمة امتدت من الفرات فى أقصى الشمال إلى الشلال الرابع فى أقصى الجنوب . ومع ذلك فما بال

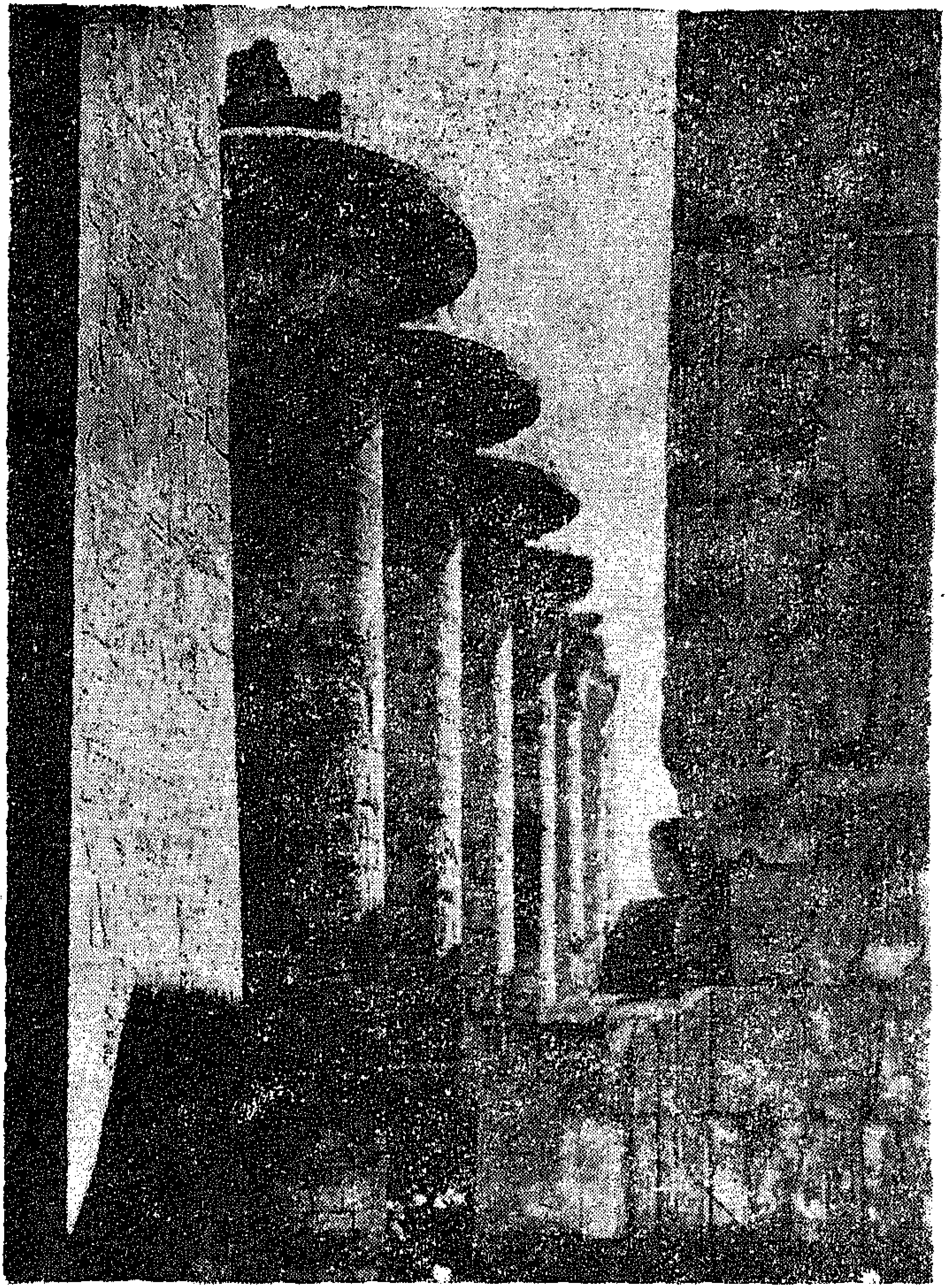

(شكل ١٢)

المفسرين يقولون إنه كانت له أوتاد يلعب بها ؟ ! وماذا عسى أن تكون هذه الأوتاد التى يلعب بها فرعون وذكرها الله مرتين — دليلا على التجبر بين المتجبرين : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يُخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد » . (الفجر ٦ — ١٠)

أفلم ينظروا إلى المسلات باسقات لها طرف حديد ، فإن كان لفرعون من أوتاد يذكرها له القرآن فلتكن تلك المسلات الرائعة تنطلق فارعة فى السماء من كتلة واحدة صقيلة من الجرانيت ، وقد تعلو فتجاوز قامتها عشرين قامة من ذلك الصخر الشديد . أو تكن تلك الأعمدة والأساطين صافات كأنها كثيف الغابات فى أروقة المعابد وأبهائها ، ومنها — كما فى الكرنك — ما نتق فى ارتفاعه فاستغلظ فاستوى على سوقه حتى لتقصر العصبة أولو البسطة فى الجسم باعاً أن تحدق بواحدها. (شكل ١٢) أو تكن الصروح التى تقوم بين أيدى المعابد قوية راسخة كالجبال . بل لقد عبر القرآن عما اعتاد الفراعين من بناء شامخ الصروح فى قوله تعالى :

« وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى » (القصص ٣٨)

فأوقد لى ياهامان على الطين !!!

على أن ما عرف عن فراعين مصر وما تشهد به اليوم آثارهم أنهم كانوا ينشئون ما شاءوا من الحجر — وهو كثير وافر يغنيهم عما سواه — إن أرادوا لما ينشئون الدوام والخلود . فكانوا يتخذون منه المعابد والمسلات والقبور ولم يصطنعوا الطين المحروق ، ولغير ذلك كانوا يتخذون اللبن من طين غير محروق ، فكانوا يتخذون منه بيوتهم سواء كانت للعلية والملوك أم للعامة وغمار الناس .

وربما تردد القارئ فيما يسمع من قول الله فى أمر فرعون أن يوقد

له على الطين ، وقد عرف أن المصريين فيما خلفوا من آثارهم لم يتخذوا الآجر المحروق فى البناء قبل عصر الرومان . ولكن المفسرين يذكرون فى تفسير أمر فرعون إلى هامان أنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ، وقد نقول بعبارة أخرى إن البناء بالآجر المحروق قد كان يومئذ فى طلائع استعماله. وأكبر الظن أن المفسرين — كما بدا لنا من قبل — قد كانوا يستندون إلى طائفة كانت بين أيديهم من الخبر الصحيح وإن اختلط كذلك بما لا قيمة له من الأوهام .

ومهما يكن من شيء ، فلقد أعثرتنا الأحافير على ما يوافق أقوال المفسرين من حيث البناء بالآجر . عثر عالم الآثار الإنجليزى پترى على طائفة من غير مألوف المصريين من الآجر المحروق ، بنيت به قبور كما أقيمت به بعض من أسس المنشئات ، وقد كانت هذه الأمثلة التى عثر عليها من عصر الأسرة التاسعة عشرة، عصر رمسيس الثانى ومرنپتاح وسيتى الثانى ، وكان عثوره عليها فى نبيشة ودفنة غير بعيد من عاصمتهم شرقى الدلتا . وقال پترى فى ذلك إن حرق اللبن قد ظل نادراً حتى عصر الرومان(١) . وهو قول لا يكاد يخالف قول المفسرين من بدء اتخاذ الآجر المحروق على عهد فرعون موسى . وهو كذلك من قرائن القرآن التى نتخذها مطمئنين فى تحديد عصر الخروج، وبأنه إذن إنما كان على عصر الأسرة التاسعة عشرة التى بدأت — كما أثبتت الحفائر وألمع القرآن — تصطنع فى بنائها الآجر من طين محروق .

وبعد، فلعل الذى ذكر القرآن فى دمار آثار فرعون أن يدل بقوة التعبير عن قوة ما تناول التدمير . . . روى أن الخليفة المأمون العباسى لما أقبل على مصر فأقام فيها أياماً لم تعجبه فقال ألا قبح الله فرعون ،

(١) Petrie, Nebesheh and Defenneh, pp. 18 - 19, 47.

ماذا أعجبه فى مصرحيث يقول: «أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى» * فقال له أحد جلسائه «يا أمير المؤمنين ولقد قال الله تعالى: «ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون» ** فإذا كان هذا هو ما بقى مما دمر الله فكيف كانت مصر قبل ذلك؟

فرعون الخروج

على أن عذاب بنى إسرائيل – كما ذكرت التوراة – إنما وقع فى عهد فرعون ووقع خروجهم فى عهد فرعون من بعده سواه، ولئن دلت القرائن على أن رمسيس الثانى قد كان فرعون العذاب فقد شاع بين المؤرخين والكتاب وأقروا على ابنه مرنپتاح بواقعة الخروج، وذلك بحكم خلافته لأبيه أولا، ثم بحكم ما عثر عليه من نص يوشك أن يكون أشهر النصوص المصرية القديمة وأوفرها حظا من عناية المؤرخين ثانياً. ذلكم هو نشيد النصر الذى نقش على لوح يحمل العام الخامس من عهد مرنپتاح ويعرف بلوح إسرائيل، إذ ورد إسرائيل عليه لأول مرة فى التاريخ فكان مرنپتاح بتلك الوثيقة الخطيرة فى رأى الكثيرين وإيمانهم الراسخ صاحب الخروج، ومع ذلك فقد أثار ذلك النص من الشكوك والجدل وانشعاب الآراء ما لم ينته إلى قرار يقين.

نقش ذلك النص فى العام الخامس من حكم مرنپتاح، وذلك فى أعقاب النصر الأكبر الذى أحرزه على شعوب البحر المتوسط وقبائل الليبيين، وكان خاتمة لما أحدق بمصر فى عهده من أخطار فى الشرق والغرب، حيث أحس الناس أن قد آن لهم أن يتمتعوا بالسلم بعد الحرب وبالأمن بعد الخوف. وقد أزيح عن كاهلهم بذلك عبء

---

* الزخرف ٥١

** الأعراف ١٣٧

كأنه جبل من نحاس كما يصف النص فى بعض مواضعه ، وهو يشيد لذلك بقوة مرنپتاح وشدة بأسه وشجاعته ويلهج بما أحرز من ظفر بالأعداء والعصاة والثائرين، وهو فى أثناء ذلك يحصى من غلبهم من القبائل والشعوب ومن بينهم إسرائيل فيقول :

الشمس قشعت غيماً كان على مصر
ومكنت الحبيبة أن ترى شعاع الشمس
فأزاحت جبلا من نحاس عن كاهل الناس
فمنحت الأنفاس للشعب الحبيس .

إنه الوحيد الذى ثبت أفئدة المئات من الألوف
إذ تدخل الأنفاس إلى أنوفهم .

الفرح العظيم حل بمصر
والحبور انطلق فى مدائن الأرض الحبيبة

إذ يتحدثون عن النصر الذى أحرزه مرنپتاح الراضى بالعدل فى تحنو أحبب بالحاكم المنتصر
وما أعظم الملك فى الأرباب
وما أسعده سيداً للحكم
وما أحلى الجلوس والناس يتسامرون
إذ يمشى المرء وسيع الخطى فلا خوف أبداً فى قلوب الناس
وقد هجرت القلاع لنفسها
وفتحت الآبار للرسل
ومتاريس القلاع آمنة فى الشمس حتى ينهض الحراس
والمازوى (الشرطة) ممددون نائمون

والناو والتكئن فى المروج كما يشاءون
وأنعام الحقول تركت تمرح بغير راع
بل تعبر لج الجعفر
ولا تنطلق صرخة ما فى الليل أن قف
إذ أتى آت بلغة أجنبى
بل يغدو الناس ويرحون بالغناء
فلا صياح للناس كما يكون فى الأحزان
وأسست المدائن من جديد
فحارث حصده سوف يأكله
فلقد عاد رع إلى مصر
ذلك الذى نشأ مقدراً عليه حمايتها ؟

الأمراء جاثون يقولون سلام
ما من أحد يرفع رأسه من بين الأقواس التسعة
القضاء على تحنو
وخيتا آمنة
ونهبت كنعان بكل سوء
وأخذت عسقلان وقبضت جازر
وجعلت يانوعام كأن لم تكن
وإسرائيل خربت وانعدمت بذرتها
وصارت سورية أرملة للأرض الحبيبة
البلاد كلها مجتمعة فى سلام
وكل من كان فى ثورة جعل فى الأغلال
بيد ملك الصعيد والدلتا بان رع حبيب أمون
مرنپتاح الراضى بالحق

وقد رأت طائفة من المؤرخين من هذا اللوح أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت فى فلسطين لهزيمة مرنپتاح ، فقد انبغى بالضرورة أن يكونوا خرجوا من مصر واستقروا ، بعد أربعين عاماً من التيه ، فى فلسطين فى عهد سلف من أسلاف مرنپتاح ، لذلك فقد افترضوا تحتمس الثالث ، وأمنحتب الثالث . وآخرون ردوا خروجهم إلى عهد يوعح موسى مع الهكسوس . ولكن طائفة أخرى لاتجد عما ذكر فى التوراة من حديث عن مدينة رعميس وبيثوم حولا ، وتجد فى ذلك ركيزة مكينة فى نسبة العذاب إلى رمسيس والخروج إلى مرنپتاج ، ولذلك فهم يحاولون تفسير ذلك النص بأن مرنپتاج وقد أخرج بنى إسرائيل من مصر فقد افترض أنه أهلكهم أو أنهم هالكون لامحالة فى الصحراء حيث يتعرضون لمذابح قبائل الشاسو (١) .

ومع ذلك فكيف يتعرضون لمذابح الشاسو ولا تتعرض للخطر قوافل التعدين المصرية .

على أن هناك أموراً فاتت المؤرخين فيما استندوا إليه من نسبة الخروج إلى مرنپتاح . ذلك أن خروج بنى إسرائيل قد شهد نهاية فرعون بغرقه وراءهم على حين عاش مرنپتاح خمس سنين أخر بعد مواقعه التى سجلها على ذلك اللوح ، وفضلا عن ذلك فقد قرر المؤرخون وسلموا فى أمر بنى إسرائيل على غير طبيعة الأشياء أن يكونوا احتملوا الذل والاضطهاد لا يريمون ولا يتحركون أجمعين ، وأقروا بغير جدل أنهم أقاموا برمتهم ما شاء الله فى أرض جاسان ثم ارتحلوا برمتهم إلى حيث شاء الله من أرض سيناء ثم فلسطين ، وكانوا فيما يمكن أن يستنتج من سفر الخروج وسفر العدد قرابة الملايين الثلاثة فضلا عن وفرة وافرة من الماشية والأغنام . وما أظن أو يظن معى مفكر أن يخرج بنو إسرائيل سرًّا بليل بهذا العدد الضخم من بين المصريين وهم لا يشعرون ، بل يخرجون من العاصمة كما ذكر سفر

---

(١) Montet; ibid.

الخروج فلا يتصل بفرعون فرارهم إلا وقد رحلوا من رعميس إلى سكوت إلى إيتام فى طرف البرية ثم إلى فم الحيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون ، وقد قدمنا من قبل تهافت ذلك التقدير ، وما كان لهم أن يشعروا بذلك الرعب حيال جند فرعون وهم بهذه الكثرة . فإذا رجعنا إلى كتابه تعالى – ونحن دائماً إليه راجعون – فقد وصفهم بالقلة فى سورة الشعراء فيما روى عن فرعون : « إن هؤلاء لشرذمة قليلون » .

وأكبر الظن – وتلك طبيعة الأشياء بل طبيعة بنى إسرائيل خاصة – أنهم كانوا حيث هم على تخوم مصر الشرقية يتسللون منها منذ اشتدت وطأة الحياة فيها عليهم ، وأنهم ازدادوا تسللا وفراراً منذ استن فيهم فرعون سنته تلك الرهيبة ، إذ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، وقد كان موسى نفسه ممن خرج منها فراراً مما قد ينزل به من عقاب . وفيما روينا من واقعة العبدين الآبقين مثل ناطق على ذلك التسلل الذى حمل السلطات المصرية يومئذ على استنفار شرطتها عليهما وتعقبهما فى جد وإصرار ، ولعل السلطات المصرية لم تجد هذا الجد إلا بعد ازدياد أحداث التسلل والفرار على عهد سيتى الثانى .

وقد كان بنو إسرائيل كما ذكرت التوراة وقرر القرآن حريصين – لولا رفض فرعون – على التحول عن مصر والتحرر مما هم فيه ، خليقين – ما دام فرعون مصراً على إمساكهم واستعبادهم – بالتفكير فى الخلاص سراً ما سنحت فرص التسلل والفرار ، ولنا فى المسلمين الأولين فى هجرتهم الأولى إلى الحبشة وتسللهم من مكة إليها مثال وبيان .

وأكبر الظن إذن أن أفواجاً من بنى إسرائيل قد تسللت من مصر حيث انساحوا فى البوادى من بقاع فلسطين فأقامت طوائف منهم حيث طابت لهم الإقامة قلة لا يقام لها وزن ، وطائفة لا يحسب لها حساب ، وقد عاشوا هناك مع أبناء جلدتهم من الساميين لا يختصون بأرض ولا يمتازون ، أو لا يكادون يمتازون عنهم فى خلق ولا خليقة – ولكنهم كانوا

على كل حال يذكرون جدهم الأعلى ويردون نسبهم إلى إسرائيل ، ولعلهم بدءوا تسربهم هذا أواخر عهد أخناتون منذ حال وجه الحياة فى مصر فى أعقاب الصراع الدينى العنيف ، وأنهم أقاموا على هذا التسرب الذى بلغ أقصى مداه فى عهد رمسيس الثانى وصدزاً من عهد مرنپتاح ؛ حتى عرف لهم فى فلسطين عدد يحمل اسم إسرائيل ولكنه لم يعل على أسماء القبائل هناك . إذ كانوا يومئذ قلة مستضعفة لا خطر لها ولا خطر منها إلا ما تثيره الأقليات والطوائف المنعزلة بنفسها من صدوفها عن أن تختلط بالشعب الذى تعايشه وتحيا فيه .

فلما اندلعت الثورة فى أملاك مصر غربى آسيا وقمعها مرنپتاح إذا بالشعراء من المصريين يتغنون بانتصاره وظفره وإذا ببعض هؤلاء الشعراء حرصاً منه على إجلال فرعون يعدد ما اتصل بعلمه — قل أو جل — من أسماء المدن والقبائل والشعوب ممن خضع للمليكه المظفر المغوار ، وكان اسم إسرائيل مما عرف أو سمع هناك فظهر فى قصيدته ، فكان ذلك أول ذكر لإسرائيل فى التاريخ . وقد تناغم مع إنشاد هذا الشاعر المصرى أن من هؤلاء الناس طائفة تعيش فى وطنه فى أرض جاسان .

غير أن الذى لا شك فيه أن الشاعر قد كان على يقين من أن بنى إسرائيل لم يكن لهم يومئذ مكان فى الأرض ومن ثم فى التاريخ ، فلقد درج المصريون فى كتابتهم الهيروغليفية أنهم كانوا يلحقون باللفظ صورة أو علامة تدل على المعنى وتخصصه . وكانوا فى ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسماً يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية ، أو رسماً يدل على الأرض الجبلية الوعرة — ورمز آخر للأجنبي — لغير المصرى ، وفى تلك القصيدة ورد ذكر تحنو وخيتا وورد ذكر كنعان وعسقلان وجزر وينانوعام ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء . أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من رسم الأرض حيث لا أرض يومئذ لها فى فلسطين ، ولا فى غير

فلسطين ، بل الحق باسمها رسم رجل وامرأة دلالة على الجمع من الناس ليس غير ، ولاسبيل فى هذه القصيدة إلى التشكيك بما قد يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه[١] ولا جرم يأتى هذا التشكيك من أستاذ أمريكى جليل يعيش وسط كثرة من يهود فهو يستشعر الحرج بين الحق الأبلج والتعصب الأخرق . وعندى أن الكاتب المصرى قد كان موفقاً واعياً ، فلقد وردت أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص تسع عشرة مرة لم يغفل رسم الأرض الأجنبية فى واحد منها مما سبق اسم إسرائيل أو لحق به ، بل كان من دقته أنه فى ذكره اسم الشرطة المصرية وقد كان رجالها يتخذون من بجاة النوبة قد اقتصر مع رسم رمز الناس على رمز يدل على الأجنبى دون رسم الأرض لأنهم فى غير أرض لهم .

نخلص من ذلك كله إلى أن لوح إسرائيل إنما دل على طائفة من بنى إسرائيل قد كانت فى بعض بقاع فلسطين أو عند تخومها حين خروج مرنتباح لقمع الثورة هناك ، وأن هؤلاء قد كانوا خرجوا من مصر عن طريق الهجرة أو التسلل ، وأن مرنتباح لم يكن إذن صاحب الخروج ، وقد عاش بعد قمع تلك الثورة التى شملت ذلك البطن من إسرائيل أعواماً خمسة ، حيث نعمت مصر على مدى تلك الأعوام بسلام تغنى به الشعراء ، وحيث بلغ من استتباب الأمن على التخوم أن القلاع قد تركت حيث قامت متاريسها فى ضوء الشمس ورجال الشرطة ممددون نائمون .

وتدل كذلك على انتهاء حركات التسلل — أو قلتها — فلا حاجة بالعسس إلى الصباح بليل آمرين أن «قف» ، مبلغين عن أجنبى قادم يدير لسانه بلغة أو لهجة أجنبية .

---

(١) Pritchard, op. cit., p. 378, note 18.

ثم يتأيد ذلك كذلك بوثيقة من عهد مرنتباح تدل على سواد الهدوء والنظام على التخوم الشرقية ، وتدل على ما كان لسلطات الأمن فى حكومته من سيطرة كاملة على حركات الناس والبدو فى تلك البقاع ، إذ كتب ضابط فى تقرير عنها يقول :

« لقد انتهينا من الإذن لقبائل لشاسو (البدو) من أدوم باجتياز قلعة مرنپتاح التى فى ثكو إلى بحيرات بيتوم مرنپتاح التى فى ثكو ، وذلك لإعاشتهم وإعاشة قطعانهم بفضل فرعون الشمس الوضاءة لكل أرض ، فى العام الثامن فى ثالث أيام النسىء يوم مولد ست »[١] .

وقد امتد العمر بمرنپتاح حتى اكتمل حكمه عشر سنين وقد طعن فى السن وتقدمت به الأيام ، إذ بدا من فحص مومياته[٢] ، تصلب الغضاريف من حنجرته فإذا هى عظام كلها ، وفى ذلك ما يدل — مع صلعه وما تبقى من بياض شعره الأشيب — على أنه بلغ من الكبر ما يقعد به أو يوشك أن يقعد به عن الخروج فى حملات الحرب والقتال . ولئن كان لا يخرج فى الحملات الخطيرة التى تتعرض فيها مصر للعدوان الاستيطانى من قبل الغرب فلم يخرج عند هجوم الليبيين فى العام الرابع ولا ثبت خروجه فى الزحف الأكبر الذى وجهوه على مصر فى العام التالى ، فأحرى به لو وقع الخروج أواخر حكمه ألا يخرج لإدراك هؤلاء الهاربين ، وهم كما وصف القرآن شرذمة قليلون ، ولذلك فأحرى بحكم السن أن تكون وفاته بحكم الشيخوخة فى ختام العمر .

وكذلك فالراجح أن يكون فرعون الخروج شابا أو رجلا مكتمل الصحة موفور النشاط ، وهو ما يتبين من جثة سيتى الثانى بمتحف

---

(١) Gardiner, op. cit., 76 - 77; Breasted, op. cit., III., § 636 - 638

(٢) Elliot Smith, Royal Mummies, p. 69.

القاهرة[١] (شكل ١٠) حيث الموت المفاجئ بغرق أدنى إلى العقل والاقتناع .

ومهما يكن من شيء، فظاهر من القرآن — والله أعلم — أن مرنبتاح قد كان أرحم من أبيه ببني إسرائيل وأن سيتي الثاني حين ولي العرش قد تابع ما اتبع أبوه من سياسة السماحة واللين ، وآية ذلك أن موسى حين جاءه بالبينات إذا بالملأ من حوله يحرضونه على استئناف سياسة جده فيهم من القتل والتعذيب وأنه أوعد بها على التحديد .

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » . (الأعراف ١٢٧) .

حيث نخرج من ذلك أن حياة موسى قد شهدت عهوداً ثلاثة :

١ — كان الأول حين مولده تحت فرعون يضطهد بني إسرائيل ويعذبهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فدفع ذلك بأمه إلى إلقائه في اليم .

٢ — وكان الثاني حين بلغ أشده واستوى على عهد بطل فيه ذبح البنين وخف العذاب وتمتع فيه بنو إسرائيل بقدر من سماحة ولين أغراهم بشيء من شجاعة وتبجح . فلم يكن لإسرائيلي أن يقتتل مع مصري فيستنصر عليه موسى فيقتله ثم يعود إلى قتال آخر بعد مقتل الأول إلا في ظل سماحة تمتعت بها طائفته وأهون استمرأته شيعته . وقد كان محتملا أن تتعرض لنقمة فرعون والناس بعد قتل مصري والشروع في قتل آخر ، ومع ذلك فقد بلغت السماحة يومئذ بحيث لم يطلب غير موسى بدم ذلك القتيل وبما عسى أن يكون فساداً في الأرض .

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين » . (القصص ٢٢٠)

---

(١) op. cit., p. 73.

وحسبنا تلك الآية دليلا عمن كان فى مصر يومئذ من قوم يعطفون على موسى ويرجون له النجاة .

٣ — وكان الثالث حين عاد موسى إلى مصر بالرسالة فإذا به يثير فى قوم فرعون مكان العداوة والبغضاء فيحرضون مليكهم كما قدمنا على استئناف ما كان انقطع فى بنى إسرائيل من التعذيب .

على أن هنالك مسألة نعرض لنا قبيل ختام ذلك الحديث فى أمر تعذيب بنى إسرائيل وما نفترض من شدته على عهد رمسيس الثانى وخفته من بعده . أكان ذلك مرتبطاً بكثرة ما أقام رمسيس من معابد ومنشئات وقلة ما أقام أخلافه ؟ فإن ما ملأ به رمسيس مصر من أقصاها إلى أقصاها من معابد وقبور ومدن وقصور ليجل عن الحصر والتقدير . حيث وجد كما نفهم من سفر الخروج (٥ : ٦ — ١٨) فى بنى إسرائيل يداً عاملة وقوة بشرية تحتمل عن المصريين الأعمال الدنيا والأعباء الثقيلة من اقتطاع الحجر وضرب اللبن ونقله إلى موضعه من البناء .

٥

مَوسى والخضر

ذكر القرآن موضعاً يلتقى فيه – بوعد من الله – موسى والخضر (عليهما السلام) وصفه بأنه مجمع البحرين فى قوله تعالى من سورة الكهف (آية ٦٠).

« وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً ».

وقد ذكر النسفى والبيضاوى فى مجمع البحرين أنه ملتقى بحر فارس والروم، وأضاف أبو السعود افتراض طنجة أو مواضع أخرى من أفريقية. غير أن المأثور من سيرة موسى أنه لم يغادر مصر إلا إلى مدين أولا ثم غادرها مع بنى إسرائيل فى خروجهم الذى أعقبه التيه فى سيناء حيث مات موسى من بعد هارون قبيل دخول فلسطين. وأكبر الظن من ثم أن موسى إنما وعد بلقاء الخضر فى مصر، حيث لقيه فى بعض رحلاته شرقى الدلتا، وأن مجمع البحرين لن يبعد عن برزخ السويس حيث يجتمع المتوسط والأحمر ويوشك أن تجمع بينهما بحيرات المنزلة والبلاح والبحيرات المرة وبحيرة التمساح، أو يكون ذلك عند أحد مصبات النيل.

وأكبر الظن أن موسى إنما تلقى ذلك الوعد وهو فى طريقه إلى مصر فى أعقاب الوحى فى سيناء، وكانت قلعة ثارو، غير بعيد من بحيرة البلاح محطًّا للمسافرين من مصر وإليها، وأكبر الظن أن موسى وتابعه قد بلغا مجمع البحرين فى هذا الموضع فهبطا هناك.

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً » . (الكهف ٦١)

ثم عادا فاستأنفا الرحيل .

« فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً » . (الكهف ٦٢ – ٦٤)

وقد عاد موسى وفتاه إلى حيث كانا قد هبطا من شاطئ البحيرة « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معى صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبراً . قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا . . »

(الكهف ٦٥ – ٧١)

كانت رحلة موسى كما هو بيّن من القرآن برًّا ، وكان موسى فى طريقه إنما يقصد مجمع البحرين هذا ، وأنه بلغه مشياً حتى نسيا حوتهما ، ثم عادا سيراً إليه حيث افتقد الحوت وعرف بضياعه فى البحر « فارتدا على آثارهما قصصاً » لما خلفت أقدامهما فى الأرض . هناك وجد الخضر عليه السلام ، وهناك انعقد بينهما العهد على الصحبة فى سبيل العلم والرشد اللذين يأخذهما موسى عنه ، فانطلقا حيث خلفا مجمع البحرين وراءهما إلى حيث يريدان .

ولا أكاد أشك فى أنهما دخلا إلى مصر حيث الملاحة فى النيل عماد الحياة فى مصر وحيث ينتقل الناس والأنعام والحصيله فى النيل بالسفائن فلا غناء عنها لملك ولا لشريف ولا لمالك أرض أو فلاح أجير ، بل لقد كانت حيازة السفن هى الفيصل أحياناً بين الحياة والموت أيام

المجاعة ، حيث تدعو الحاجة إلى نقل الغلال إلى بلد جائع من بلد بعيد. ولذلك فقد كان احتياج البلاد إلى السفن عظيماً . وكانت الدولة فى بعض الأحيان تفرض على الناس إمدادها بما كانت فى حاجة إليه من السفن إذا خرج الملك فى موكب أو رحلة إلى بعض بقاع ملكه . فكان على السلطات المحلية تدبير كل شيء لتلك الرحلة ، بل كان عليها تدبير أمر الرحلة لرسول الملك لا للملك نفسه . وكان الوزير منذ الأسرة الثامنة عشرة مسئولا عن نظام النقل بأسره فى مصر حيث ورد عنه ما نصه : « إنه الذى يمد بالسفن كل من ينبغى إمداده بها . » ولقد كان نقص السفن فى مصر أو الاضطراب فى مسيرها مدعاة إلى ضعف الرقابة على البلاد . وقد أدرك حورمحب ذلك حين تولى السلطة وقد هوت البلاد فى حضيض من الفوضى والفساد ، فرد الاضطراب وضعف السلطة فيها إلى الإسراف فى الاستيلاء على السفن ، فكان أن أصدر فيما أصدر من قوانين صارمة قانوناً بعقاب المستغلين لنفوذهم من المتهمين بأخذ السفن لأنفسهم غصباً ، بل لقد كانت هذه الآفات الخلقية عميقة الجذور فى مصر بحيث اضطر بطلميوس الأول من بعد حورمحب بألف سنة إلى إصدار قرار بمنع كبار الموظفين من أخذ السفن لأنفسهم غصباً(١) .

دخل الخضر وموسى مصر فى ظل تلك النظم والعادات

« حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً » (الكهف ٧١)

ولم تكن رحلة موسى والخضر بالسفينة إلى بعيد ، فلم تكن سوى رحلة نيلية ينزلون بعدها فى بعض بقاع مصر حيث يواصلون المسير ؛ « فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً .

(١) Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography, (London 1961), p. 102 - 104.

قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا » .

وكان مسيرهما في بلاد عامرة بالقرى والناس .

« فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني و بينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » . (الكهف ٧٧ – ٧٩)

وقد بينا ما كانت تلجأ إليه السلطات في مصر من استيلاء على السفن أحياناً ، فهي واقعة أشبه بمصر وأقرب إلى أحوالها ، ولعل فرعون يومئذ قد كان في إحدى جولاته فاقتضى لذلك جمع السفن مما يجرى في النيل .

« وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأراد ربك أن يبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ».

(الكهف ٨٠ – ٨٢)

وبعد فلقد كان للغلامين كنز من تحت الجدار . ونؤثر أن نترك الحديث عن الكنوز في مصر إلى حين .

٦

عيسى

وقدر الله لعبده ونبيه عيسى بن مريم أن يهبط مصر حين كان فى المهد صبيًّا . قال تعالى :

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » (المؤمنون ٥٠) .

أوى عيسى وأمه إلى ربوة ذات قرار؛ وهى فى تفسير النسفى والبيضاوى وأبى السعود أرض مرتفعة ذات مستقر من أرض سهلة يستقر عليها ساكنوها ؛ أو ذات ثمار وماء وزرع ليخلدوا إلى ذلك القرار ، بمعنى أن ساكنيها إنما يستقرون عليها لما فيها من ثمار . أما المعين فهو الماء الجارى الظاهر . ولكنهم فى ذات الربوة قد افترضوا جملة فروض لم يغفلوا مصر فى أى افتراض مما أخرجوا ، فقالوا هى بيت المقدس أو دمشق أو الرملة أو مصر . ومع ذلك فما نعلم أن عيسى بن مريم وأمه قد أويا إلى دمشق أو الرملة . أما جلال الدين السيوطى فقد نقل عن السلف ما يفسر تلك الآية ويؤول الربوة بأنها مصر (١) قال : «أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى الآية هى مصر ، قال وليس الربى إلا بمصر والماء حين يرسل يكون الربى عليها أى القرى . ولولا الربى لغرقت القرى ، وأخرج ابن المنذر فى تفسيره عن وهب ابن منبه فى قوله إلى ربوة ذات قرار ومعين قال مصر ، وأخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طريق

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٧هـ) ص ٣

جرير عن الضحاك ابن عباس أن عيسى كان يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى وآويناهما إلى ربوة قال يعني أرض مصر » .

ولعل فيما ذكر من وصف الربوة بكونها ذات قرار ومعين ما يوحي بامتيازها بالمياه الجارية وهو ما يرجح مصر في ذلك المقام . وكان الماء حين يرسل أوان الفيضان يكون الربى عليها أي القرى وذلك في الزمان القديم .

وفي ذلك حديث نفصله من بعد ذلك تفصيلا ؛

٧

الأرض

لم تحظ أرض من القرآن بوصف ولا تكريم بمثل ما حظيت مصر من وصف وتكريم . إذ أنزل الله على نبيه من محكم آياته صورة رائعة مشرقة عما حبيت به من فضل الله وما أوتيت من حظ عظيم : ويصور مع ذلك وصفها وسماتها التي برأها عليها وما أخرج فيها من نبات شتى وما وطن فى أرضها من كنوز. وقد جاء هذا التصوير صريحاً مباشراً من كلام الله عز وجل أو جارياً على لسان يوسف أو لسان فرعون، « ونادي فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون » : (الزخرف ٥١) . وقد دل القرآن بتلك الآية وما تشابه منها على ما أضل فرعون وأغواه فلم ير فيما وعده موسى من فردوس الآخرة مزيداً على ما لديه من ملك فأرسل تساؤله متعجباً مستنكراً عما يبشر به من جنات تجرى من تحتها الأنهار وعنده مصر جنات تجرى من تحتها الأنهار . ومن روائع الإعجاز فى تلك الآية ما تنطوى عليه وتكنى عنه من إيمان فرعون والمصريين معه بأن وطنهم صورة مثلى للفردوس لا يفوقه فردوس سواه. وهو واقع تاريخى ثابت تبرهنه آثارهم وما تركوا فيها من متون ونصوص ورسوم .

وكأنما نظر فرعون وهو فى مقره فى بر رعمسى فرأى النيل ينطلق من منابعه البعيدة ، حتى إذا شارف البحر إذا به يتفرع سبعة أفرع — لم يبق منها اليوم إلا فرعان — تجرى من تحته حيث يقيم .

ثم هو يرجع البصر كرتين فيشهد أينما حل من ملكه جنات ألفافاً ، ويرى فيها حباً ، وعنباً ، وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبّاً أجل : جنّات تجري من تحتها الأنهار .

وهى كذلك كما وصفها الله فى محكم آياته وكريم قرآنه، بل حسبها من وصف الله أن يكون المقام فيها نعمة للمقيمين والخروج منها نقمة على الخارجين . ألم يعاقب الله فرعون وملأه أن أخرجهم منها فى قوله تعالى :

« فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم » . (الشعراء ٥٨) وفى قوله عز وجل مؤكداً :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا . فيها فاكهين » . (الدخان ٢٥ — ٢٧)

وقد ذكر السيوطى — فى حسن المحاضرة — عن الكندى قوله فى هاتين الآيتين : لا يعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف ولا شهد له بالكرم غير مصر . ولا غرو تكون بما وصفها الخالق العليم مثابة للناس وأمناً، وتكون الحاضرة وما سواها بدواً. ألم يعلن ذلك فى قرآنه على لسان يوسف فيما روى عن يعقوب وبنيه :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًّا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » . (يوسف ٩٩—١٠٠) حيث أووا كما أوى عيسى بن مريم وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين . وذلك وصف لما كانت عليه مصر حتى عهد غير بعيد قبل إنشاء السدود. إذ كان النيل إذا أقبل بفيضه فى الصيف امتد فغمر الأرض بمائه فظلت تحت الغمر أمداً يمتد

ربع العام، ولذلك فقد عمد المصريون إلى إقامة بيوتهم من فوق روابٍ تعلو على الماء . ولقد شهدها عمرو بن العاص حين فتحها فوصفها فأحسن وصفها قال : « مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المركب وخفاف القوارب ، وزوارق النهر كأنهن فى المخايل ورق الأصائل، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته وطما فى درته فعند ذلك . . . يحرثون بطون الأرض ويبذرون فيها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب . . . فإذا أحدق الزرق وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى زبرجدة خضراء ، ثم إذا هى ديباجة رقشاء ثم إذا هى عنبرة سوداء فتبارك الله الفعال لما يشاء » .

وفيما عدد القرآن من خصال مصر ما يستحق النظر بشىء من تفصيل

جنات

كانت حياة المصرى منذ مطلع الصبح من تاريخه صراعاً مريراً وكفاحاً متصلا بين الرى والجفاف وبين الخصب والجدب وبين الأرض المثمرة والمفاوز القاحلة ، أو بين ما كان هو يسميه السوداء والحمراء . كان يبذل الضنى والعرق فى سبيل استخلاص الأرض من الصحراء فيعزق أراضى الغمر حيث يترسب الطمى الدسم لينقله إلى حيث يستنبت ما يشاء .وكان الحزن يبلغ أقصاه من نفسه أن يرى عدوان الصحراء على أرضه وزحف الرمال عليها . وكانت الحدائق والجنان أثيرة لديه محببة إليه ، اختلطت بحسه وفكره وشعوره منذ نشأ على ضفاف النيل ، وكان

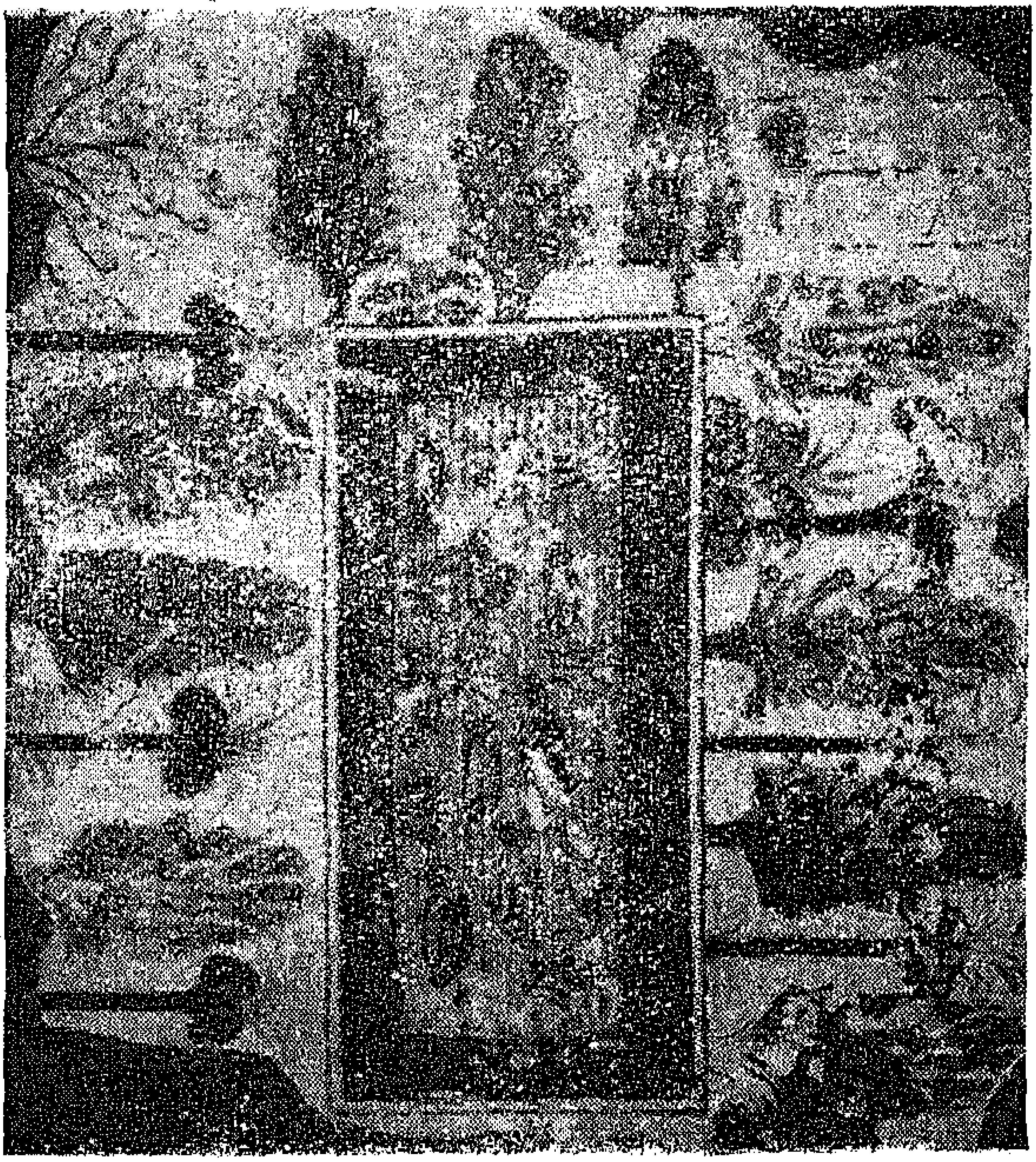

(شكل ١٣)

عامراً يومئذ من آثار فيضه كل عام بالمنافع والغياض والغدران ، حيث تنبت الآجام والأحراج من البردى والسوسن والبوص واليراع وحيث تعيش ألوان من الأسماك وتؤمها طوائف من الحيوان وأمم من الطير . وكان المصريون يؤمون تلك الأصقاع طلباً للصيد والقنص ، كان بالنسبة للأدنين من الناس رزقاً يطلبونه ويسعون إليه ، وكان لأهل الترف واليسار رياضة وتسلية يؤثرونها ويقبلون عليها ، فكان الرجل يخرج فى أسرته من زوجه وبنيه يطلبون النزهة والمتعة فى زورق خفيف من البردى يسرى بهم على صفحة الماء الهادئ الرقراق، بين سيقان البردى وأوراق البشنين وزهور السوسن . ولقد بلغت هذه الطبيعة الحلوة الجميلة من نفسه أن تخيل الفردوس فى الآخرة صورة من تلك البيئة التى عاش فيها وأحبها ونعم بها ، كما حرص على تصويرها فى بيته وقبره (شكل ١٣) .

كذلك وقر فى نفسه حب الزهر والإحساس بجماله وفتنته، فكان لهم زينة فى الموائد والأعياد ويتخذون منه هدية يقدمها بعضهم إلى بعض ، وقرباناً يقربون منه إلى الأرباب والأعزة من الأموات .

ولذلك فقد حرص المصرى القديم فضلا عن ذلك على غرس الأشجار ورعاية الحدائق أينما يولى وحيثما يقيم . فقد تعهدها فى المعابد حيث يتجه إلى ربه مصلياً متعبداً، وتعهدها فى سكنه مستروحاً متمتعاً، وتعهدها فى الجبانة مهيئاً لروحه السعادة والنعيم، ولقد انتهى إلينا من الخبر عن حاتشبسوت أنها حرصت على إقامة بستان للإله بين يدى معبدها فى الدير البحرى بالأقصر ، ولكنها لم تشأ أن تغرس فى ساحته من أشجار مصر التى عهد الناس وإنما بعثت إلى بلاد پونت ، أو بلاد الآلهة كما سمتها فى بعض حديثها ، تنقل أشجار المر العبق إليه ، وذلك حتى تقيم فى معبده أرضا كأرض پونت .

ولم يكن حرص المصرى على إقامة الحدائق فى داره بأقل من حرصه على إقامتها فى دار الآلهة. فلا تكاد تخلو لشريف أو أمير دار من حديقة

فسيحة تتوسطها بحيرة صغيرة يقيم من حولها الشجر. الباسق والأيك الوارف ، وكان الشريف يجد فى حديقته تلك الراحة والروح والأمن والسكن فى ظل الدوح ، أو فى ظل عريشه يقيمها عند بحيرته .

كانت الحديقة فى المنزل عنصراً اعتاده المصريون فى حياتهم بحيث أصبحت الحدائق فى آدابهم وقصصهم من المألوف المذكور فى كل أثر أدبى ، من قصة وأغنية ، حيث حفلت قصائد الغزل بذكر الحدائق والغدران . ولقد حرص الملوك إذا أنشأوا مدينة أو عاصمة جديدة على أن يجعلوا للحدائق فيها النصيب الأوفى،حيث البحيرات والزهور . كذلك فعل أخناتون فى عاصمته الجديدة أختاتون عند تل العمارنة،وكذلك فعل رمسيس فى بر رعمسى عاصمته الجديدة التى أنشأها شرقى الدلتا حيث ربى موسى وليداً ولبث فيها من عمره سنين ، ومنها خرج فرعون وراءه وكان من المغرقين . ولذلك فخليق بنا أن نقرأ ما حفظ لنا من وصفها الذى بعث به أحد كتاب فرعون إلى زميل له فيقول :

« لقد بلغت بررعمسى حبيب آمون فوجدتها أروع ما تكون ازدهاراً . وهى عاصمة أنيقة لا مثيل لها على نمط طيبة . إن بساتينها حافلة بكل شىء طيب ، وتتدفق عليها الأطعمة كل يوم كما تمتلئ مياهها بالأسماك وبركها بالطيور ، وإن أهراءها لمليئة بالشعير والقمح الذى يكاد يبلغ السماء ، وفيها حدائق الرمان والتفاح والزيتون والتين ، أما النبيذ فهو أحلى من العسل ، وفيها السمك الأحمر فى القنوات . . . إن شباب عظيمة الانتصارات فى عيد كل يوم ، والزيت والطيب على رءوسهم وهم يقفون بأبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور »(١) .

ولقد كانت الجنان والبساتين كذلك عامرة بالفاكهة والثمار من الكروم والتمر والبطيخ والشمام والخروب والنبق والجميز والتين ، ثم استنبتوا من بعد

(١) A. Gardiner, Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937), p. 40 - 41.

ذلك ما عرفوه منذ أيام الهكسوس من الرمان والتفاح والزيتون . ولقد أشار القرآن إلى العنب فيما ورد عن صاحب سجن يوسف فى قوله : « إنى أرانى أعصر خمراً » ، ولقد نبتت الكروم وفيرة فى أنحاء كثيرة من مصر . كما جاءنا من الأنباء خاصة عن كروم الواحات منذ طلائع التاريخ المصرى وقد بلغ من وفرتها ومنزلتها من إنتاج الواحة على عهد تحتمس الثالث أن النبيذ كان من جملة ما يؤدى أمراؤها من ضريبة إلى الملك .

أما الزيتون الذى عرفه المصريون باسمه هذا فله فى القرآن حديث أى حديث .

فهو الشجرة التى باركها الله وضرب بها لنوره الأمثال : «الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درىّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » (النور ٣٥) .

شجرة مباركة زيتونة أين تكون .

لا شرقية ولا غربية فلا هى إذن فى الشرق البعيد ولا فى الغرب البعيد ، ولقد نبت الزيتون وينبت فى بقاع كثيرة من أرض الله .

ولكن هناك شجرة أخرى تجود فى بقعة خصها الله بذاتها من أرض الله « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار » .

وما حاجتنا إلى الأحجية والاستقصاء وقد أعلنها الله صريحة فى قسمه العظيم :

« والتين والزيتون وطور سينين » (التين ١ ، ٢) .

وقال :

« وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة

ومنها تأكلون ، وشجرة تخرج من طورسيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» .
(المؤمنون ١٨ – ٢٠) .

طورسينين أوطور سيناء ، باب مصر ومدخلها الشرقي منذ العصور أقدم العصور هى بقعة من مصر وجزء منها ، سيناء وهى كذلك جزء من بقعة كانت منزل الوحى ومهبط الرسالات وتضمها مصر مرابع العلم وقبلة الأنبياء .

وزروع

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها و بصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم» .
(البقرة ٦١) .

ولو قد نظرنا فى تلك الحاصلات لأدركنا أنها من زروع الشتاء تبذر فى أعقاب انحسار فيض النيل فى شهر هاتور المصرى أو نوفبر الإفرنجى ، وقد جاد فى مصر يومئذ من البقل الفول والحمص والبازلاء والكراث ، وذلك فضلا عن الخس الذى كان من أحب الطعام إلى المصريين . وعن الفول فى مصر حدث ولا حرج فهو فيها طعام عريق . إذ كانوا – وما زالوا – يأكلونه أطباقاً وألواناً شتى ، أشهرها ما هو معروف حتى يومنا هذا – على الأرجح – باسمه القديم كما يقال ، فالمدمس من لفظ يعنى المكمور والبصارة من بسورو وهو الفول المطبوخ[1] ، كما اتخذوا من عجائنه طعاماً لعله يشبه الطعمية[2] . فمن نافلة القول إذن – وقد تأصل من نفوس المصريين تلك القرون أن نتحدث عن مدى حبهم له و إقبالهم عليه وعن انتقال ذلك الحب إلى بنى إسرائيل .

---

(١) G. Sobhy, Common words in spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin, (Cairo 1950), p. 11.

(٢) سليم حسن : مصر القديمة الجزء الرابع (١٩٤٨) ص ٦٠٥

وكذلك كانت القثاء أو الخيار إليهم ، وكانوا يقربونها على موائد الأعياد ويقدمونها قرباناً للأعزة من الأقرباء المتوفين (شكل ١٤) ، وفى قصة من عيون الأدب المصرى روى بحار حطمت الأنواء سفينته أن الأمواج حملته إلى جزيرة مقدسة وجد فيها من الفاكهة والأعناب والتين ومن الخيرات ما أعجبه وأرضاه وكان منها القثاء الذى عرف فى المصرية باسم ششبت .

أما الثوم فهى الحنطة أو هى الثوم على تعدد فى التفسير . وكان الثوم من الحاصلات المتوفرة فى مصر ، وقد وجدت فى مقابر طيبة طائفة من حزم الثوم الذى عرف فى مصر باسم خچان ، وكانوا أحياناً يطلقون عليه اسم البصل حج . وأما البصل فكان — كما هو اليوم — من أطعمة الفلاح اليومية وأدناها إلى نفسه كما كان من ألوان القربان . وكان العدس الذى عرفوه باسم عارشين من أحب الأطعمة إليهم — وما زال « العدس والبصل » عندنا من أشهى أطعمتنا . وكانوا يتخيلون الفردوس فى الآخرة عامرة بالحنطة والعدس الذى يرتفع نباته فيما قدروا عشرة أذرع فى أرض الجنة .

وحسبنا من دليل على ما حظيت به تلك الأرزاق من الحب والتفضيل أن بنى إسرائيل بحكم إقامتهم وما اعتادوا من طعامها قد اختاروها دون سواها من خيرات مصر ، وقد قدمنا من سفر العدد من العهد القديم ، (١) ما صور حنينهم إليها ، بل كادوا يضعونها مع الحرية والخلاص فى الميزان .

ولم يكن ذلك كل ما كانت تنتج مصر على عصر الفراعين ، فإذا كانوا أنتجوا ما يكفيهم من الغذاء فقد أنتجوا كذلك سرابيلهم من نبات الكتان الذى كانوا يزرعون ثم ينسجون ، وكانوا يتخذون منه ثياباً رقيقة وأفوافاً شفيفة كانت موضع إعجاب الناس أجمعين (٢) .

وفضلا عن ذلك فقد كفتهم أرضهم ما كان للحضارة والفكر المصرى

---

(١) انظر صفحة ١٢١

(٢) كتان مطرز من مصر هو شراعك (سفر حزقيال ٢٧ : ٧)

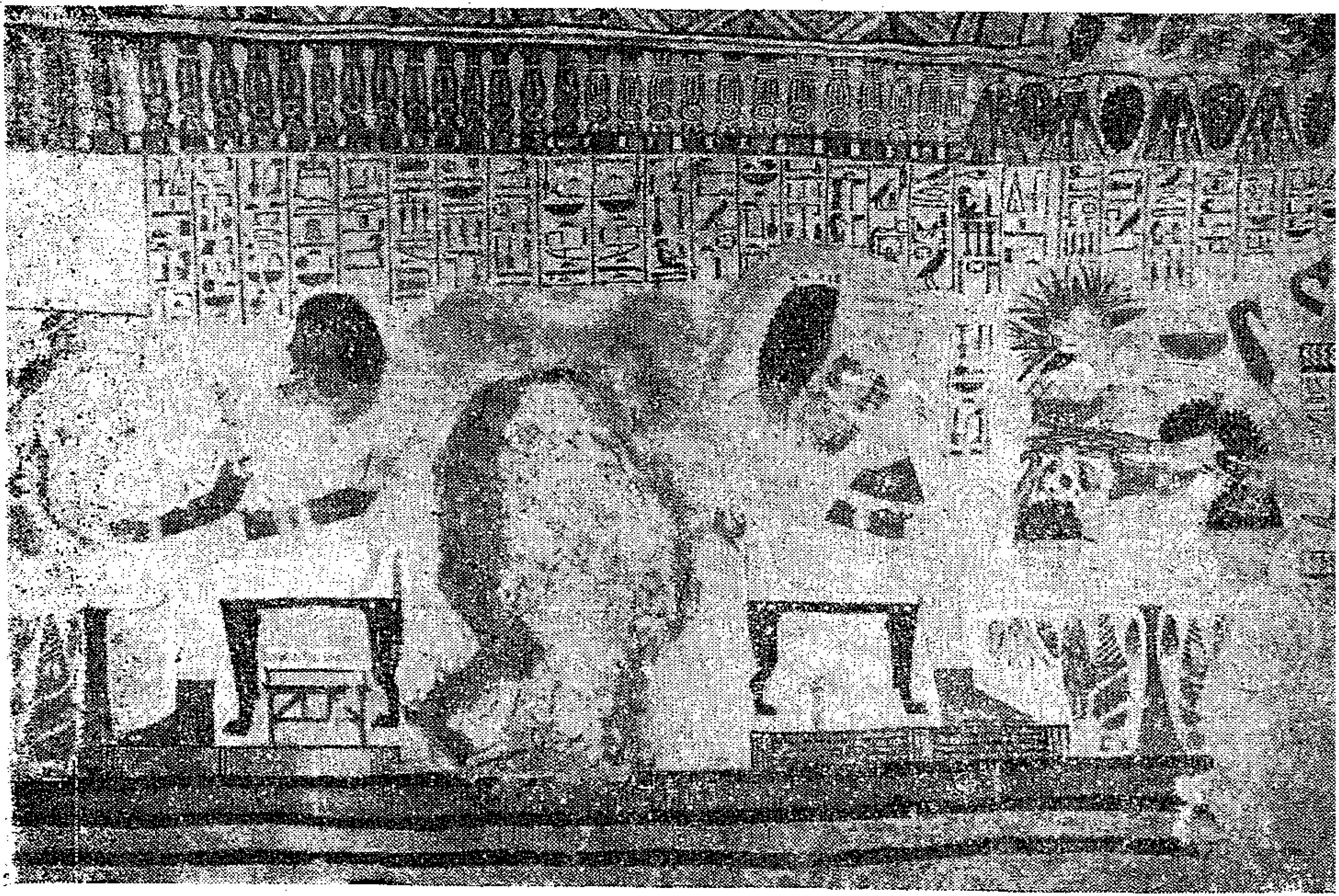

(شكل ١٤)

والبشرى أكبر معين ، إذ نبت فيها البردى والبوص ومنهما اتخذوا القرطاس والقلم واتخذه منهم الشعوب من حولهم إذ حمله إليهم من مصر الفينيقيون .

وعيون

عيون الماء مصادرها سواء كانت من الآبار أو الجارى من الأنهار . وقد ورد فى الذكر قوله تعالى فى سورة الغاشية : « فيها عين جارية » ، وفسر النسفى « العيون » بالأنهار الجارية . ولا حاجة بنا عندئذ إلى الإسهاب فيما تمتعت به مصر من « العيون » ففيها أعظم العيون وأغزر العيون ، فيها النيل العظيم وهو اليم كما ذكر فى القرآن ، وذلك أنه أقبل من قلب القارة السوداء ليدخل مصر فوق صخور الشلال الثانى ، ثم صخور الشلال الأول عارماً جياشاً ، حتى لقد خيل إلى المصريين فى بعض أساطيرهم أنه إنما ينبع من كهفين فى تلك البقاع فى جزيرة الفنتين أسموها قرتى ، ثم نراه من بعد ذلك يجرى سهلا ليناً حتى إذا بلغ رأس الدلتا إذا به ينساب كالمروحة أو يتفرع كالشجرة سبعة أفرع لم يبق منها اليوم إلا فرعان هما دمياط ورشيد ، وكان يقبل بفيضه كل عام فيغمر الأرض عن يمين وشمال ، فإذا بلغ حدته وطما فى شدته نكص على عقبيه مخلفاً وراءه كثيراً من المنافع والغياض والغدران فيكون فصل البذر وأوان الإنبات .

ومع ذلك فقد كان لاختيار لفظ العيون فى القرآن مقصده ومعناه ، وذلك لأن فى اللفظ من الاتساع والشمول ما يجمع على السواء بين المياه الجارية فى الأنهار والمياه النابعة فى الآبار ، وقد حبيت مصر من هذا وذاك أجمعين ، فكان اللفظ من جوامع الكلم القرآنى الذى أوفى على بلاغة الإعجاز بما يسوق من لفظ جامع دقيق عن تقدير وحسبان . فإن النيل ليجرى وسط صحراء شاسعة مرهقة عن يمين وشمال . ولقد اندفع المصرى منذ أقدم العصور يسلك فجاج الصحراء ويطوى رمالها العطشى بحثاً عما يقيم به حياته من المواد الغفل من المعادن والصخور أو طلباً للبيع والشراء مما

وراءها من الأقاليم والبلدان ، وكان إحرازهم للنجاح بمقدار ما يجدون إليها فى طريقهم من مصادر الماء . لذلك فقد حرص فراعين مصر على توفير الماء على طريق القوافل وفى بقاع التعدين فى الصحراء، وذلك بحفر الآبار وتلمس العيون ، فلقد كتب منتوحتب الثالث من الأسرة الحادية عشرة أنه احتفر أربع عشرة بئراً كبيرة فى وادى الحمامات ، كما روى منتوحتب الرابع عن عثوره على بئر حافلة هناك ، ومن أخبار سيتى الأول عاهل الأسرة التاسعة عشرة أنه خرج إلى وادى عباد بالصحراء الشرقية ليتفقد الأرض حيث يبنى معبداً ويحتفر بئراً تكون غوثاً للمرهق وبرداً لفؤاده المتأجج فى حمارة القيظ . هنالك أمر عمال الحفر فاحتفروا فى الجبل بئراً نبط منها الماء الغزير ، كأنها كهف قرتى فى الفنتين ، حيث يتفجر — كما تخيلوا — النيل . وبذلك عاد الطريق سهلا .

ومن أخبار ولده رمسيس الثانى أن حاكم النوبة العليا — وكان كذلك مشرفاً على وادى العلاقى — شكا قلة الماء على طريق المناجم وما يتعرض له الناس من الهلاك عطشاً فى تلك البقاع ذات الذهب الوفير ، وما يتهدد تلك الصناعة من انقطاع . فكان أن جمع الملك الأمراء فشاورهم فى الأمر ثم أمر بحفر بئر هناك نبط الماء منها على عمق اثنتى عشرة ذراعاً ، وكان رجال أبيه قد حاولوا ذلك من قبل فأخطأوا الماء حتى عمق مائة وعشرين .

وكان الفراعين فضلا عن ذلك يعينون على الآبار والعيون الحرس من الرماة والمفتشين يصونونها ويردون عنها العابثين والمعتدين ، ويحفظون عليها نظافتها وصفاءها ، سواء كان ذلك فى سيناء أو فى واحات الصحراء الغربية . وكانت الواحات محاط للقوافل حيث تجتمع الينابيع والعيون ، وكانت الواحات الخارجية أكبرها وأهمها جميعاً ، وقد توفر فيها من الماء ما مكن فيها من إنبات الأعناب والكروم كما قدمنا منذ طلائع التاريخ المصرى القديم .

وكان الملوك فضلا عن ذلك حريصين منذ أقدم العصور على مشروعات الرى فى أنحاء البلاد ، حريصين على إيصال الماء إلى حيث لا يصل النيل .

ومن أشهر وثائق تاريخ مصر العتيق منظر يصور احتفال البلاد بشق القنوات حيث ظهر الملك العقرب الذى حكم مصر من قبل مينا مؤسس الأسرة الأولى ممسكًا بالفأس وهو يهم بالضربة الأولى فى القناة ، كذلك كان المشرف على القناة « عج مر » من الوظائف والألقاب الكبرى فى الدولة القديمة ، ولعل أشهر ما نعرف من مشروعات الرى ما كان أقامه أمنمحات الثالث عاهل الأسرة الثانية عشرة من خزان الفيوم لتوفير الرى والزرع فى منخفض الفيوم .

وكنوز

وفسر النسفى الكنوز فى تلك الآية بأنها الأموال الظاهرة من الذهب والفضة . قال وسماها — أى القرآن — كنوزاً لأنهم لا ينفقون منها فى طاعة الله . وجاء فى المعجمات عن الكنوز أنها المال المدفون ، وما أكثر ما كان فى مصر القديمة من أموال ظاهرة من ذهب وفضة فضلا عن المال المدفون . وللمال المدفون فى مصر حديث ذو شجون .

على أننا لو أخذنا اللفظ بمعناه الواسع لشملنا بذلك مناجم الثروة المعدنية فى مظانها فى الأرض . وكانت هى مصادر الأموال الظاهرة إلا قليلا مما يبيعون. ولقد كانت أرض مصر وما زالت تدخر من ألوان الحجر وأخلاط المعادن ما لا يكاد يقع تحت حصر ، ومن كنوز الحجر نصف الكريم والمعدن الثمين الذى حبيت بوفرة منه وبسطة فيه ما عرف لها واشتهرت به فى أقطار الشرق القديم .

وكان المصريون قد خرجوا منذ فجر التاريخ البعيد فى طلب الذهب إلى الصحراء الشرقية حيث تقع مناجمه الوفيرة عند الفواخير فيما يلى قفط من وادى الحمامات ، وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر، ولقد كان فيما كشف من عصر فجر التاريخ من خرزات من ذهب مسمط فى نقادة وأخرى من رقائقه فى المحاسنة دليل على عراقة فى استخراجه وخبرة فى صياغته

وصناعته . كما كان فى اسم مدينة أمبوس القديم (قرب قرية البلاص قبالة قفط) دليل آخر على ما تدفق عليها من الذهب الذى خلع عليها اسم نبتى بمعنى الذهبية .

ومن صحراء النوبة الشرقية كذلك استخرج المصريون الذهب من بقعة من وادى العلاقى سميت يومئذ باسم إكيتا . ولذلك كله فقد حرص الفراعين على بسط النفوذ المصرى وإقرار الأمن فى النوبة بأسرها ، فقد تحدث ملوك الأسرة الحادية عشرة عما بذلوا فى هذه السبيل حيث عينوا رؤساء التراجمة لحسن التفاهم مع الناس هناك . وتابع ملوك الأسرة الثانية عشرة حملاتهم التأديبية على تلك البقاع حيث وضعوا النظم وأقاموا عند الشلال الثانى الحصون تأمينًا لها من الاضطرابات والغارات ، وكان خط الدفاع الأخير هناك فى البجة واليفانتين ، بل لقد كان سنوسرت الثالث عنيفًا فى حملته على الثائرين بحكم إغراء الذهب والحرص على تأمين موارده فى تلك البقاع .

ولم يفتأ الفراعين يرساون البعوث ويوجهون الحملات والقوافل بحثًا عن الذهب فى مظانه من أرض مصر . فإذا عثروا عليه وبشر بمحصول وافر عمدوا إلى إقامة المحاط وتيسير الطرق إليها بما يحتفرون عندها وفى طريقها من آبار وما ينشئون عندها من معبد يكون مركز المعسكر العمالى ، وبما يرسمون لهذا كله من خرائط تحدد مواقعها وتبين معالمها ومسالكها ، ولقد حفظت لنا على بردية بمتحف تورين الآن خريطة تصور منطقة الفواخير بمناجمها وطرقها التى يؤدى إليها وادى الحمامات وما يخرج منه بعد ذلك من طريق إلى البحر الأحمر ، وهى فضلا عما تبين من بئر لسيتى الأول و « جبال يخرج منها الذهب » وطريقين يؤديان إلى البحر الأحمر ومعبد لأمون فى مركز المعسكر العمالى فهى تبين على مسافة من المعسكر « جبال حجر بخن » المحبوب الأخضر من اردواز وادى الحمامات (شكل ١٥) .

وكان سيتى الأول من أحرص فراعين مصر على تعدين الذهب وزيادة الإنتاج منه ، وقد تقدم بنا كيف خرج إلى الصحراء الشرقية حتى منطقة

الجبال يتفقد مناجم الذهب ومواطن الماء على الطريق ، فساءه ما رأى من انعدام الماء الذى يهدد المسافر بالهلاك ويحول دون ما تردد فى خلده من عزم على استغلال تلك البقعة التى يتوقع الذهب منها ، ثم مضى يتفقد المكان بحثاً عن أصلح البقاع التى يحتفر بئراً فيها ، فكان أن وفقه الله فيما أمر من احتفار بئر فى الجبل وإقامة معبد ومحلة يستريح فيها الناس ، وقد أسفر ذلك عن إقامة معبد الكنايس فى وادى عباد فيما يلى إدفو على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً فى قلب الصحراء ، وتحدث ابنه رمسيس الثانى عما بذل جرياً على سياسة أبيه فى هذا السبيل ، قال إنه بلغه وهو يحصى مصادر الذهب ويضع التدابير لحفر الآبار حيث يشح الماء أن الطريق إلى إكيتا مع غناها بالذهب ووفرته خال من الماء ، وأن القوافل إليها لا تعود إلا بنصف رجالها لما يتعرضون له من العطش المبير ، وأنه لم يكد يبلغه ذلك حتى استدعى أمراء البلاط يشاورهم فى الأمر حيث قدم حاكم النوبة تقريره عما يعوق تعدين الذهب من ندرة الماء وما كان من جهود فاشلة بذلت من قبل على عهد أبيه . وقد أقر رمسيس لحاكم النوبة بما رأى من أمله فى انبجاس الماء ببذل مزيد من الجهد فحالفه التوفيق .

ومهما يكن من شىء ، فلقد توفر الذهب فى مصر وزادت بفضله ثروتها ، إذ يدلنا ما ذكر فى حوليات تحتمس الثالث أن مناجم النوبة السفلى وحدها قد كانت تغل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وسبعة عشر كيلوجراماً من الذهب كل عام . ولقد مكن الذهب للمصريين كثيراً من شئون الحياة . إذ استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى استيراده مما حولهم من الأمم والأقطار ، فتمتعت مصر بفضله بالرفاهية وخفض العيش ، بل لقد تمتع كثير مما وقع تحت حمايتها من ولايات آسيا بمثل رخائها ورفاهيتها بفضل ما تنفق فيها من أموال . وكان ميناء جبيل مثلا حياً ناصعاً لذلك ، يدل عليه ما عثر عليه فى مقابر أمرائها من حلى الذهب وأوعية السبج ذات الحواف الذهبية ، وكانت من

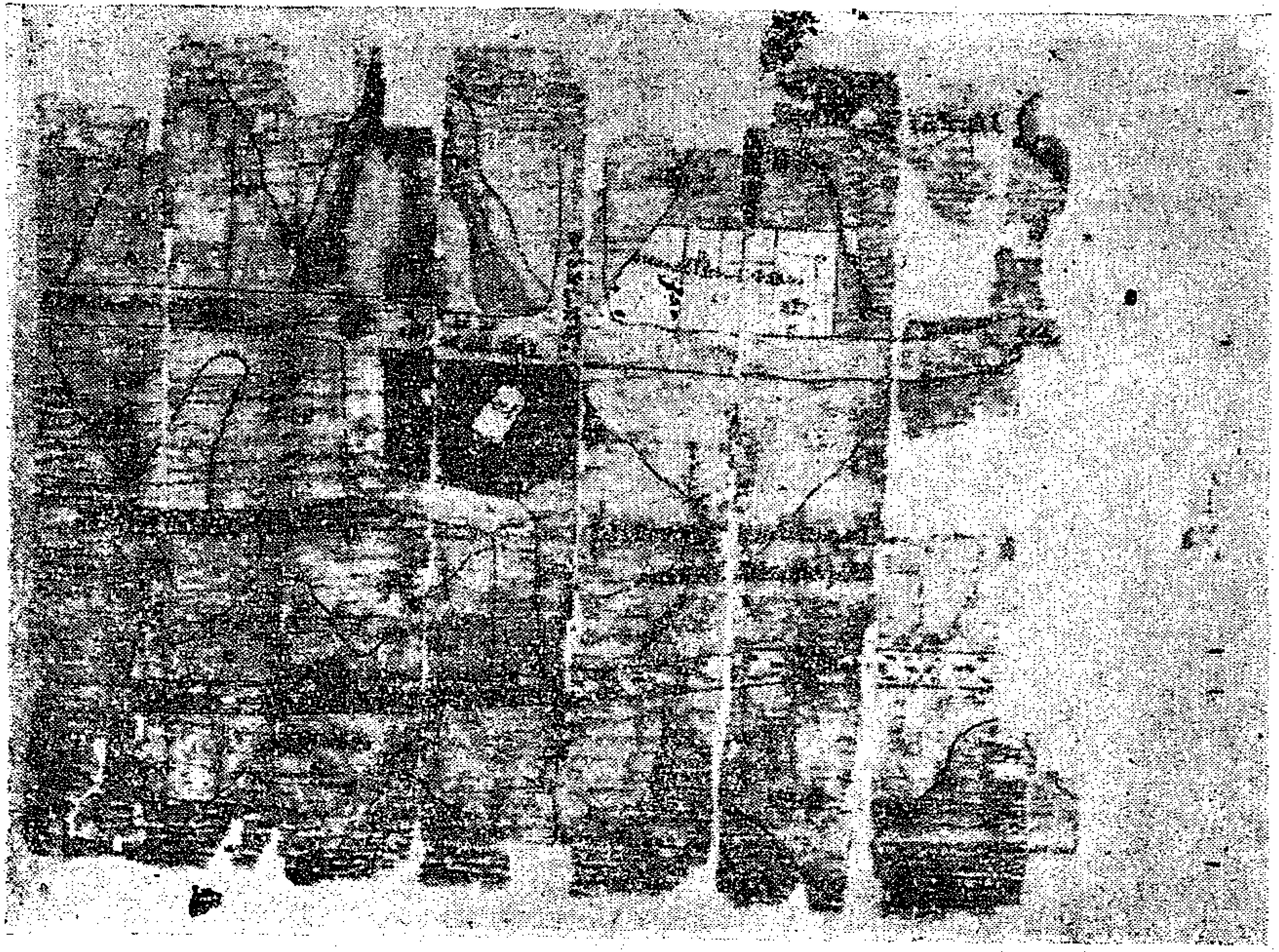

(شكل ١٥)

هدايا فرعون للأمير حين تقليده منصبه هناك . وكذلك أسلحة صنعت فى جبيل على الطراز المصرى عليها نصوص مصرية .

كذلك استطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة تحرزه بالغارة والعدوان . فامتد بفضله نفوذهم حيث لم تستطع الجيوش الوصول فيما وراء مناطق نفوذهم الطبيعية مما جاور مصر من البلاد ، فكان أن تولى الذهب مكان الجيش سبيل السياسة وإحراز النفوذ. وأصبح المصريون يشترون به الحلفاء فى آسيا منذ عهد تحتمس الرابع وإن فشلت تلك السياسة أواخر عهد ابنه أمنحتب الثالث ، وذلك لما أبداه الأمراء من جيران مصر من جشع تحت ضغط الغزو الحيثى من ناحية، ولما كان من سياسة أخناتون وتخاذله عن نصرة حلفاء مصر هناك من ناحية أخرى . بمعنى أن سياسة الذهب وحدها خليقة أن تفشل إن لم تكن وراءه قوة تسنده ، وأن الإغراء والإرهاب لا ينفصلان فى السياسة أبداً . ومع ذلك فقد كانت خزائن مصر يومئذ تمتلئ بالذهب برغم تسرب الفساد وسوء الإدارة إلى حكومة أخناتون ، حيث ذاعت شهرة مصر بأنها أغنى دولة فى الشرق القديم .

ولقد حفظت لنا من رسائل ملوك ميتانى وأشور وبابل على عهد أمنحتب الثالث وابنه أخناتون أطرافا مما كانوا يكتبون طلبًا للذهب من مصر ، بل استجداءه منها . من ذلك ما كتبه توشراتا ملك ميتانى إلى زوج ابنته أمنحتب الثالث يقول :

« أخى أرجو أن ترسل ذهبًا بكميات عظيمة جداً وبقدر لا يحصى ، أرجو أن يرسل أخى ذلك وأن يرسل من الذهب أكثر مما حصل عليه أبى ، أليس الذهب فى بلاد أخى كالتراب كثرة » .

كذلك ضربوا فى بطاح بلادهم ووديانها من النوبة إلى الصحراء الشرقية يطلبون فضلا عن الذهب فنونًا من الأحجار نصف الكريمة وألوانًا من الصخر الجميل ، حيث استخرجوا منها الزبرجد والجمشت والعقيق واليشب

والمرو والزجاج الصخرى وأحجاراً خلبت بألوانها وصلابتها عقولهم منذ أقدم العصور . فاتخذوا منها كثيراً من أعمال الصناعة وآيات الفن ، وكان يعجبهم منها بخاصة نوع من اردواز ضارب إلى الخضرة يكاد من صقله يضىء كالمرآة ، وذلك فضلا عن الألباستر وصخور الجرانيت الأسود والأحمر والديوريت المتين . وكان وادى الحمامات فى الصحراء الشرقية من أهم سبلهم إلى حيث يستخرجون من ذلك ما يشاءون ، وقد كان يغرى بسلوكه والرحلة إليه ما يمتاز به عن سائر الوديان من كثرة يخفيها فى حناياه من البقاع الخضراء والعيون .

وكانت سيناء كذلك مستودعاً غنياً بالنحاس ، ومن كريم الحجر بالفيروزج بنوع خاص . وكانت لذلك ميداناً لنشاط اقتصادى خصيب حرص ملوك مصر منذ طلائع الأسرة الأولى على رعايته وحمايته ، حيث تكثر مناجم الفيروزج فى وادى مغارة وسرابة الخادم ، وحيث أقيم معبد للآلهة حتحور ربة الفيروزج منذ عصر الدولة الوسطى التى عملت على استغلال تلك المنطقة بانتظام كبير . وما زالت تلك البقاع من سيناء تحفظ على صخورها آلافاً من نقوش المصريين ممن كانوا فى تلك البقاع عاملين .

أما المال المدفون فإن فى نظرة واحدة فيما تحفل به متاحف الأرض اليوم من آثار مصر. وفى كلمة يسيرة عنها الكفاية وفوق الكفاية . فلقد عثر على أكثر التحف فى القبور ، وكان المصريون يكنزونها للحياة الأخرى ويشيعونها مع المتوفى ذخيرة له ليوم البعث والنشور . وما زالت كنوز توت عنخ آمون تروعنا وتروع العالم كله بما فيها من أثاث ومتاع وما تحفل به من الحلى والذهب ، ومع ذلك فلم يكن توت عنخ آمون هذا من عظام الملوك ولا أشباه عظامهم ، ولا كانت مصر على عهده تتمتع بمثل ما كانت تتمتع به على عهد أسلافه من أمثال الملكة حاتشبسوت وتحتمس الثالث القائد المغوار أو أمنحتب الثالث ، من القوة والثروة والاستقرار . أو فى عهد أخلافه من أمثال

سيتى الأول ورمسيس الثانى . لم تتمتع مصر بشيء من هذا على عهده ، بل كان فتى حدثاً لم يحكم سوى تسع سنين كانت مليئة بالاضطراب السياسى والاجتماعى ، فإذا كان الذى تراه لتوت عنخ آمون بهذا القدر على صغر قبره وبساطة حليته ، فماذا عسانا أن نجد لو كانت سلمت من النهب والسلب قبور من ذكرنا من الملوك ، ومنها ما بلغ فى امتداده واتساعه تحت الأرض مبلغاً عظيماً ، وذلك مع ما يدل عليه من أنيق حليته ووسامة زخرفه أن كان خليقاً أن نجد فيه بالنسبة إلى ودائع توت عنخ آمون ما يبهر العيون كثرة وثراء . ولقد عثر لغيره على أمثلة متفرقة عبر عصور مصر القديمة بما يشهد لها من غير شك أنها ذات مال وكنوز ، فمنها ما هو من قبر چر عاهل الأسرة الأولى ، ومنها ما هو لحتب حرس أم خوفو ، بل لقد انتهى إلينا من آيات الصياغة من عصر الدولة القديمة ما لا يقل جمالا عما نرى اليوم من حلى ، وذلك فضلا عن حلى الدولة الوسطى من تيجان وخناجر وعقود وقلائد ، ومن حلى الأسرة الثامنة عشرة من آثار يوعح حتب إلى آثار زوجات تحتمس الثالث ، ثم ودائع پسونس عاهل الأسرة الحادية والعشرين . ومع ذلك فليس يخلو من مغزى عميق فى هذا المقام أن نذكر عن المصريين تسميتهم لغرفة الدفن حيث تحفظ جثة الملك فى تابوته : كانوا يسمونها پرنوب بمعنى دار الذهب .

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين

وتلك شهادة فيما خلق ووهب العليم الوهاب . وحسبها من نعمة أن تشرف من وصف الله بما وصف بها جنته التى أعدت للمتقين . ولنقرأ قوله تعالى فى سورة الدخان :

« إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون » .   (٥١ — ٥٢) .

ومن يس قوله :

« إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » .   (٥٥) .

ثم لنقرأ فى فرعون وقومه قوله تعالى فى سورة الدخان :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين » . (٢٥ – ٢٧) .

كذلك كانت مصر وما زالت كذلك .

وستظل إن شاء الله حتى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون . ولو مشينا فى مناكبها وبحثنا وعملنا لوجدنا فيها غزيراً من نعمائه وخرج علينا من أرضها كل يوم جديد ومزيد . لأنه حكم ربانى وقضاء إلهى يبقى بقاء الزمان وليس له فى الأحقاب والدهور حدود .

ففيها من العيون ما يجرى به النيل وما يتفجر تحت أقدامنا فى الوادى الجديد ، وفيها من الكنوز ما يعلم الله وما يعدل الذهب من النفط والحديد ، وما ندرى لعل فيها من منطلقات النواة والذرة ذخائر من بأس شديد .

ومع ذلك فما كانت الأرض لتدر علينا من رزقه بغير بذل الكادحين وعمل العاملين .

بذلك – مقبلين غير معرضين – يكون لنا فيها المقام الكريم ونعمة نكون فيها فاكهين .

ولقد قضت إرادة الله أن يحفظها وأن تظل بمأمن من كل سوء ، إذ كرمت على الله حين تأذن بعقاب فرعون وملئه فلم ينزل عقابه بغير المارقين ومالهم من ناصرين ، ولم يأخذ أهلها إلا بما يكون بلاءً للمؤمنين : « بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » . وخص فرعون وقومه بما صنعوا .

« ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وشتان – ولنعتبر ولا نأمن مكر الله – بين ما نزل بها ، وما حاق بعاد وثمود وما وقع لسبأ وقوم تبع وأصحاب لوط .

ثم لنعتبر بقوله تعالى :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . (النحل ١١٢) .

٨

حُكماً وعِلماً

أقام بنو إسرائيل أمداً قدر فى التوراة بخمسة وسبعين وأربعمائة عام ، ظلوا فيها يعملون للمصريين ويتكلمون لغتهم ويتداولون فكرهم . ثم خرجوا يحملون ، مع ما سلبوا من ثياب وحلى ، من ثقافة مصر وحضارتها وآدابها الكثير ، وذهبت الحقائق بما أورثتهم مصر فى نظمهم وآدابهم وعقائدهم مذهب البدائه التى لا تقبل الجدل ولا تفتقر إلى دليل ، ولا يكاد ينكر ذلك أو يتردد فيه إلا صهيونى أعماه التعصب والحقد عن حقائق العلم ونور اليقين ، أو عميل يستطعم الصهيونية ، أو ضعيف يخشاها فيجاملها وهو فى حرج وتنازع فى نفسه بين باطل يتملقه وحق فى أعماقه يؤمن به ويخفيه .

ولقد كان استقرار يوسف فى مصر كما قلنا مكانة مكنه الله منها ، ولو وقع ذلك فى ظل العبودية ونخاسة الرقيق ، لأنه إنما أقبل على قدر الله ليعلمه من تأويل الأحاديث . وكذلك نشأ موسى فى قصر فرعون ليؤتى من التربية والعلم والحكمة على أيدى المصريين ما يؤهله لرسالة الله بعد حين . وبذلك اعترفت التوراة التى جعلت من حكمة المصريين نموذجاً ينفرد من حكمة أهل المشرق وخصته بالذكر وجعلت فى تجاوزه حد المبالغة والتبريز ، وكانت مقياساً لأرفع آيات الحكمة وفصل الخطاب ، إذ تحدثت عن سليمان فى سفر الملوك قالت :

« وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر »
(الملوك الأول ٤ : ٢٠)

ومع ذلك فلسوف نرى مصدر حكمة سليمان وأنى أتى بها ، وقد كانت مصر مضرب المثل فى أحاديث سليمان وأناشيده . وهل من صورة أروع من إعجاب سليمان بمصر وانبهاره بحضارتها ونعمتها من قوله فى نشيد الإنشاد :

« لقد شبهتك يا حبيبتى بفرس فى مركبات فرعون » (١ : ٩) وإنما يكون التشبيه بالمثل الأعلى الذى يراه المشبهون ، وكان سليمان ملكاً له من أبهة الملوك وزخرف الثراء ما يتبوأ منها حيث يشاء ، بل لقد كان فى قصره الأسراب الكثيرة من حسان النساء . ولكنه لم ير تشبيهاً لحبيبته أحسن غضارة ورونقاً ونعمة ونعيماً ولا أجمل من فرس من عداد خيل فرعون ، تعيش فى حظائره ولا تعيش فى قصره. وحسب مصر دليلا على فضلها و إشعاع حضارتها أن تكون قبلة يتطلع إليها بالإكبار والإعجاب العواهل والملوك .

كان سليمان حكيماً عالماً ، ومن قبله كان أبوه داود عليهما السلام ولقد أثر عن داود وسليمان ما حفظ فى العهد القديم من مزامير داود وأمثال سليمان :

« ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » . (النمل ١٥)

ولكن الحكمة إنما تسبقها الخبرة وحصيلة التجربة والتعليم ، ولهذه الحكمة من غير شك منابع وأصول . وقد كان لهما من غير شك وسائل وسبل قدرها الله كى تصل إليهما . ولئن كان داود وسليمان قد عاشا فى فلسطين . فلقد تعلما عن المدرسة التى أخذ عنها وعلمت من قبل يوسف ثم هارون وموسى . إنها مصر التى شاعت فى فلسطين حضارتها وثقافتها ووقر فى النفوس علمها وحكمتها . وكذلك فما ينبغى أن نغفل من الحسبان ما كان بين سليمان ومصر من علائق وثيقة ووشائج متينة توجت بالمصاهرة بينهما :

« وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها »

(الملوك الأول ٣ : ١ — ٢)

« صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان » .

(الملوك الأول ٩ : ١٦)

كان لمصر بحكم تلك العلائق القديمة تأثيرها فى حضارة الشرق القديم وثقافته . ومع ذلك فقد شاء الله أن ينكشف الدليل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه للعالمين ، وأن يتبين مقدار ذلك التأثير العميق ، حين تأذن فوفقهم إلى قراءة طلاسم الهيروغليفية والهيرطية فى القرن الماضى ، وحين ظهر الناس على أناشيد أخناتون وسلطت أضواء الدراسة والبحث على ما كان عثر عليه من قراطيس البردى ، ومنها ما ظل حبيس المتحف البريطانى فلم يعرف محتواه إلا منذ أقل من نصف قرن من الزمان . هنالك عرف علماء الحضارة المصرية اسم بتاح حتب وأمن م أوپت وقرءوا حكمة هذا وذاك وراعهم ما وجدوا بينها وبين مزامير داود وسفر الأمثال من شبه مدهش غريب ، فهما لا يتفقان ، معنى وروحاً فحسب بل إنهما ليتفقان فى المعنى واللفظ جميعاً . وعاد العلماء إلى دراسة الكتاب المقدس وإمعان النظر فيه ليخرجوا من الدراسة والنظر إلى رأى قاطع وقول صريح ، فقرروا أن كاتب العهد القديم إنما كانت تحت يده ترجمة عبرية كاملة للكتاب الذى وضعه أمن م أوپت المصرى وأنه كان ينقل منها بغير تحفظ ، بل لقد مضت بهم الدراسة بفضل النص المصرى إلى تصحيح ما كان مشكوكاً فيه من ألفاظ النص العبرى من سفر الأمثال وإلى ترجيح معنى من معنيين لهما فى العبرية لفظ واحد

أو لفظان متجانسان (١) .

ولو قد تعقبنا آثار الفكر المصرى فى العهد القديم لما اتسعت لها تلك الصحائف والفصول . والذى لا شك فيه اليوم أن الديانة العبرية لما بلغت مرحلة تحتاج فيها إلى أساليب القول وأدوات التعبير قد تلمست فيما حولها من آداب الأمم الأخرى ما يكفى طلابها ويسد حاجتها ، حيث وقعت بحكم موقعها الجغرافى وأقدار التاريخ فى فلك مصر الثقافى (٢) فضلا عن السياسى ، وما كان من التحام فلسطين بمصر منذ أقدم العصور ودخولها الإمبراطورية المصرية على عهد الدولة الحديثة حيث عمد العبرانيون إلى الأخذ والاقتباس عن مصر والمصريين . وإذا بنا نجد فى العهد القديم فصولا عبرية منقولة عن فصول مصرية أو عبارات وأخيلة مصرية متغلغلة فى تضاعيف النصوص العبرية وآيات العهد القديم . وسنضرب الأمثال من هذا وذاك ونبدأ بمقارنة فصول من المزامير بأخرى من أناشيد أخناتون ومن بعدها مقارنة سفر الأمثال بحكم أمن م أوبت :

مزامير داود ١٠٤	نشيد أخناتون
تجعل ظلمة فيصير ليل	فإذا غربت فى الأفق الشرقى صارت الأرض فى ظلام كأنه الموت
فيه يدب كل حيوان الوعر ولتلتمس من الله طعامها	وكل أسد يخرج من عرينه .

(١) انظر : فجر الضمير تأليف جيمس هنرى برستد وترجمة سليم حسن صفحة ٣٩٨ وما بعدها حتى صفحة ٤٠٧ وكذلك انظر
Gardiner, Writing and Literature in Glanville, The Legacy of Egypt (1947), p. 66 - 79.

(٢) Ronald J. Williams, Some Egyptianisms, in the Old Testament in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969), p. 93 ff.

مزامير داود (١٠٤)

تشرق الشمس فتجتمع وفى
مآربها تربض
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى
شغله إلى المساء
ما أعظم أعمالك يارب
كلها بحكمة صنعت
ملآنة الأرض من غناك
هذا البحر الكبير الواسع
الأطراف
هناك دبابات بلا عدد
صغار حيوان مع كبار
هناك تجرى السفن

نشيد أخناتون

وفى الصباح، إذا أشرقت فى
الأفق انكشف الظلام
وإذا الناس يقومون على أقدامهم
فى العالم كله يؤدون أعمالهم
ما أكثر أعمالك
إنها خفية على أنظار الناس
خلقت الأرض كما تشاء .
والسفن تجرى فى النهر صاعدة
هابطة على سواء .
والسمك يثب فى النهر أمامك
ونورك ينفذ إلى قلب
الأخضر العظيم (البحر)

وورث سليمان داود . ولكنه ورث فيما ورث حكمة المصريين التى وجدها عند أبيه ومن أوتى العلم فى فلسطين . وقد تجاوز سليمان الأناشيد والمزامير إلى الموعظة الحسنة وضرب الأمثال ، فإذا ما قرأناه لم نجد عن تذكر حكمة أمن م أوبت مصرفاً » .

سفر الأمثال لسليمان

أمل أذنك واسمع كلام الحكماء
ووجه قلبك إلى معرفتى
لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك
إن ثبتت جميعاً على شفتيك
ألم أكتب لك ثلاثين فصلا
من جهة مؤامرة ومعرفة

حكم أمن م أوبت ونصائحه

أمل أذنيك واسمع كلامى
ووجه قلبك إلى فهمها
لأنه مفيد إن حفظتها فى جوفك
واجعلها مستقرة فى صندوق جوفك
تبصر لنفسك هذه الثلاثين فصلا
فإنها مسرة وتعليم :

سفر الأمثال لسليمان

لأعلمك قسط كلام الحق
لترد جواب الحق للذين أرسلوك
لا تسلب الفقير لكونه فقيراً
ولا تسحق المسكين فى الباب
لا تستصحب رجلا غضوباً
ومع رجل ساخط لا تجىء
لا تنقل التخم القديم

أرأيت رجلا مجتهداً فى عمله
أمام الملوك يقف

إذا جلست تأكل مع متسلط
فتأمل ما هو أمامك تأملا
وضع سكيناً لحنجرتك إن كنت شرها
لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب

لا تتعب لتصير غنيًّا
كف عن فطنتك

حكم أمن م أوبت ونصائحه

معرفة كيف تجيب الذى يتحدث
وكيف ترد على تقرير لمن أرسله
احذر أن تسلب الفقير
وأن تظلم المحزون
لا تستصحب غضوباً
ولا تثقل عليه فى حديث
لا تنقل العلامات من تخوم الحقول ولا تكن شرهاً نحو ذراع من أرض ولا تعتد على حدود أرملة

إن الكاتب الماهر فى وظيفته يجد نفسه جديراً بأن يكون من رجال البلاط

لا تأكل خبزاً أمام عظيم
ولا تكشف فاك أمامه
وإذا أشبعتك لقمة حرام فإنما هى لذة ريقك . انظر إلى الوعاء الذى أمامك وعليك أن تجعله يكفيك .

لا تتعب طلباً للمزيد
إذا كفيت حاجتك
فإذا جلب إليك بالسرقة لم يبت معك
وفى الفجر لا يكون فى بيتك

سفر الأمثال لسليمان	حكم أمن م أوبت ونصائحه
هل تطير عينيك نحوه وليس هو	انظر مكانه وليس هناك
لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة	لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة
كالنسر يطير نحو السماء	كالإوز يطير نحو السماء

ومن العبارات والأساليب البلاغية المصرية التى انتزعت من بيئتهم وعقيدتهم ما نجدها كثيرة عند العبريين . من ذلك ما نجد فى سفر الخروج (١٣ : ٢) من وصف بكر البنين بأنه فاتح رحم أمه «قدس لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل» وهى عبارة من أقدم العبارات المصرية التى وردت فى نصوص الأهرام ، وما نجد فى مراثى أرميا (٤ : ٢) من وصف فريد للملك صدقيا بأنه «نفس أنوفنا» وهى عبارة مصرية شائعة فى اللغة والفن ، نجدها مثلا فيما ورد عن أخناتون من أنه «نفس كل الأنوف التى يتنفس بها الناس» ولا شك أن مثل تلك العبارات التى تنطق عما كان لفرعون فى عقيدة شعبه من طبيعة إلهية تجعله مصدر حياتهم وسعادتهم ، وقد كانت وجدت سبيلها من قبل على عهد الإمبراطورية إلى فلسطين ، إذ كتب «ابيما لكى» والى مصر على صور إلى مليكه أخناتون يقول ممتدحاً : «ماذا تكون حياة امرئ لا تأتيه الأنفاس من فم سيده الملك» . وفى رسالة أخرى كتب يصور فرعون بأنه رب الشمس «الذى يمنح الحياة بنفسه الحلو» . كذلك كان من المدائح التى حظى بها رمسيس الثانى بأنه «نفس الحياة للناس أجمعين» وفى نصائح «لمريكارع» عن أبيه من عصر الفترة الأولى ورد عن إله الشمس رع : «إنه خالق الريح حتى تحيا أنوفهم» وفى ترنيمة لرب الشمس «إنك تمنح النسيم لأنوفهم» ، وذلك فضلا عما نرى فى التصاوير المصرية من مناظر الآلهة وهى تقرب رمز الحياة من أنف الملك (شكل١٦) . وكذلك جاء فى سفر التكوين (٢ : ٧) «وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً

حية » كما روى عن أيوب قوله (٢٧ : ٣) « . . . ونفخة الله فى أنفى » .

ومن مألوف العبارات المصرية الخالصة التى تدل على ما يتخذ الإنسان من أسلوب حياته ما جاء فى مراثى أرميا من قوله (٣ : ٦٣) « انظر إلى جلوسهم ووقوفهم » وفى مزامير داود (١٣٩ : ١) « يا رب قد اختبرتنى وعرفتنى ، أنت عرفت جلوسى وقيامى ، فهمت كل فكرى من بعيد » . وهى عبارة واردة فى نصوص الأهرام (٢١٩٨) أقدم مصادر الأدب المصرى الدينى . حيث ينادى الملك : « أيا ونيس عش قبالة فؤادك مثل أنوبيس ، قم واقعد على الف من الخبز والجعة » وعن كاجمنى من الدولة القديمة أن أولاده بعد أن تلقوا نصائحه « قاموا وقعدوا عليها » أى اتبعوها وساروا على منهجها . وفى نصائح بتاح حتب من الدولة القديمة كذلك قوله : « قم واقعد على مكانتك » بمعنى اتبع من السلوك ما يتفق ومكانتك » وعن رخميرع وزير تحتمس الثالث أنه قال « قمت وقعدت على الأمامى والخلفى من أمراس السفينة » بمعنى أنه أنفق شطراً من حياته سفانا .

ومما ورد فى العبارات المصرية فى أسفار التثنية وأشعياء ما حير المفسرين ممن لم يتنبهوا إلى مصدرها الأصيل حتى كادوا برغم صحتها اللغوية يتلمسون لها التعديل[1] والتصحيح . إذ جاء فى سفر أشعيا (٤٥ : ١٥) قوله « حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص » وقد كان مبعث الصعوبة والحيرة تفرد معنى العبارة فى هذا الموضع من العهد القديم واختلافه عما ذكر فى المزامير مجازاً من أن يهوه يحجب نفسه (١٠ : ١ ، ٨٩ : ٤٧) وذلك بمعنى امتناعه عن بذل العون إذا ما دعى ، حيث نجد عبارة المزامير أدنى إلى الشكوى من أن الرب قد حجب وجهه عن الشاكى ، ولذلك فإن المعنى من عبارة أشعياء إنما ندركه من النظر فى الأدب المصرى حيث تسود عقيدة الخفى الغامض ، وكان آمون عند المصريين إلهاً خفياً ويعنى اسمه « الخفى » وقد ورد عنه فيما ورد

---

(١) Ronald J. Williams, op. cit.

(شكل ١٦)

من أنشودة بمتحف القاهرة أنه « الخفى اسمه عن بنيه فى اسمه هذا آمون »[١]. وفى بردية من منتصف القرن الثالث عشر من قبل مولد المسيح يمتدح آمون من حيث هو قوة خفية تسود كل شىء « آمون الوحيد الذى يخفى نفسه عن الأرباب ولا يعرف امرؤ طبيعته . هو أبعد من الشمس وأعمق من العالم السفلى»[٢] . وكذلك جاء عن رع فى تعاليم مريكا رع : « لقد أخفى نفسه العليم بالخلائق » .

وجملة فريدة أخرى من سفر التثنية وأشعيا (٥٤ : ٢) واضح أنها مستمدة من الأدب المصرى أن « أوسعى مكان خيمتك » إذ هى من العبارات المألوفة المعروفة فى المصادر المصرية منذ الدولة القديمة كما جاء عن كاجمنى قوله « واسع مكان السعيد » كناية عن حرية السعيد فى الوصول حيث يشاء وقول بتاح حتب « رحب مكان المدعو » . ومن عصر الدولة الوسطى عن سانوهى فى منفاه أنه قال « رحب مكانى » بمعنى حريته فى التنقل حيث يشاء ومن عهد حاتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة عن موظف صغير اسمه سنمى عنخ قوله « رحب المكان فى بيت الحياة » أى أن له حرية الوصول إلى بيت الحياة . ويؤكد تحتمس الثالث فى نصوص تتويجه أن « آمون قد منحنى الملك حتى أوسع أمكنة خالقى » وقريب من ذلك التعبير البلاغى عبارة « وسيع الخطى » بمعنى حرية الحركة والتقدم والنصر ، وقد ورد أقدم مثل لذلك فى متون الأهرام فى وصف الولد على سبيل المثال بأنه وسيعة خطاه[٣] ، وفى أبيدوس يتوجه رمسيس الثانى بالخطاب إلى أبيه سيتى فيقول « خطاك وسيعة فى العالم السفلى»[٤] . وذلك فضلا عما نجد فى بردية انسطاسى

(١) ibid.

(٢) ibid.

(٣) Pyr. 886 c; cf. 2123 c, 917 c.

(٤) H. Gauthier, La Grande inscription dedicatoire d'Abydos (Le Caire 1912), l. 91.

(شكل ١٧)

من الدولة الحديثة من عبارة « وسيع الخطى فى المكان السرى »[١]، ومن العصر البطلمى قولهم : « كانت خطاى وسيعة من أجلك فى القصر[٢] . وقد وجدت هذه العبارة بنصها سبيلا إلى آداب الكتاب المقدس ؛ فيقول مزمور يتردد مرتين فى العهد القديم « توسع خطواتى » (٨ : ٣٦) وفى آخر « أقمت فى الرحب رجلى » (٣١ : ٨) على حين ورد المعنى معكوساً فى سفر الأمثال (٤ : ١٢) « إذا سرت فلا تضيق خطواتك وإذا سعيت فلا تعثر » وفى سفر أيوب (١٨ : ٧) « تقصر خطوات قوته وتصرعه مشورته » .

وبعد فما زال فى العهد القديم من مثل ذلك كثير ، وذلك فضلا عما فيه من عبارات أخذت عن الحياة الدينية فى مصر وتصاويرها . من ذلك ما جاء فى سفر الأمثال (٢١ : ٢) « والرب وازن القلوب » وهى عبارة لا شك فى صدورها عن الديانة المصرية ، يوم انفردت فى الشرق القديم من دون ما كان فيه من عقائد بقولها إن الإله يزيد قلب الإنسان ، وقد كان ذلك يجرى بين يدى أوزيريس فى الآخرة حيث حفظت لنا من مناظر القبور وتصاوير كتاب الموتى أمثلة كثيرة كان قلب الميت فيها يوزن لقاء ريشة الحق والعدل « ماعت » وذلك تحت إشراف رب الحكمة جحوتى (شكل ١٧) . ثم عبارة أخرى وردت فى سفر ملاخى (٤ : ٢) لا شك فى صدورها عن أصل مصرى : « ولكم أيها المتقون اسمى ، تشرق شمس البر ، والشفاء فى أجنحتها » .

وتلك صورة لا حاجة بنا إلى الإفاضة فى الحديث فيها بالنسبة إلى صورة الشمس المجنحة وكانت من الرموز المصرية التى لا يكاد يخلو منها أثر من آثار الدين فى مصر ، فإذا كان لنا أن نضيف فإنما نتحدث

---

(١) Pap. Anastasi III; 2.

(٢) Sethe, Urkunden II 3 1. 12.

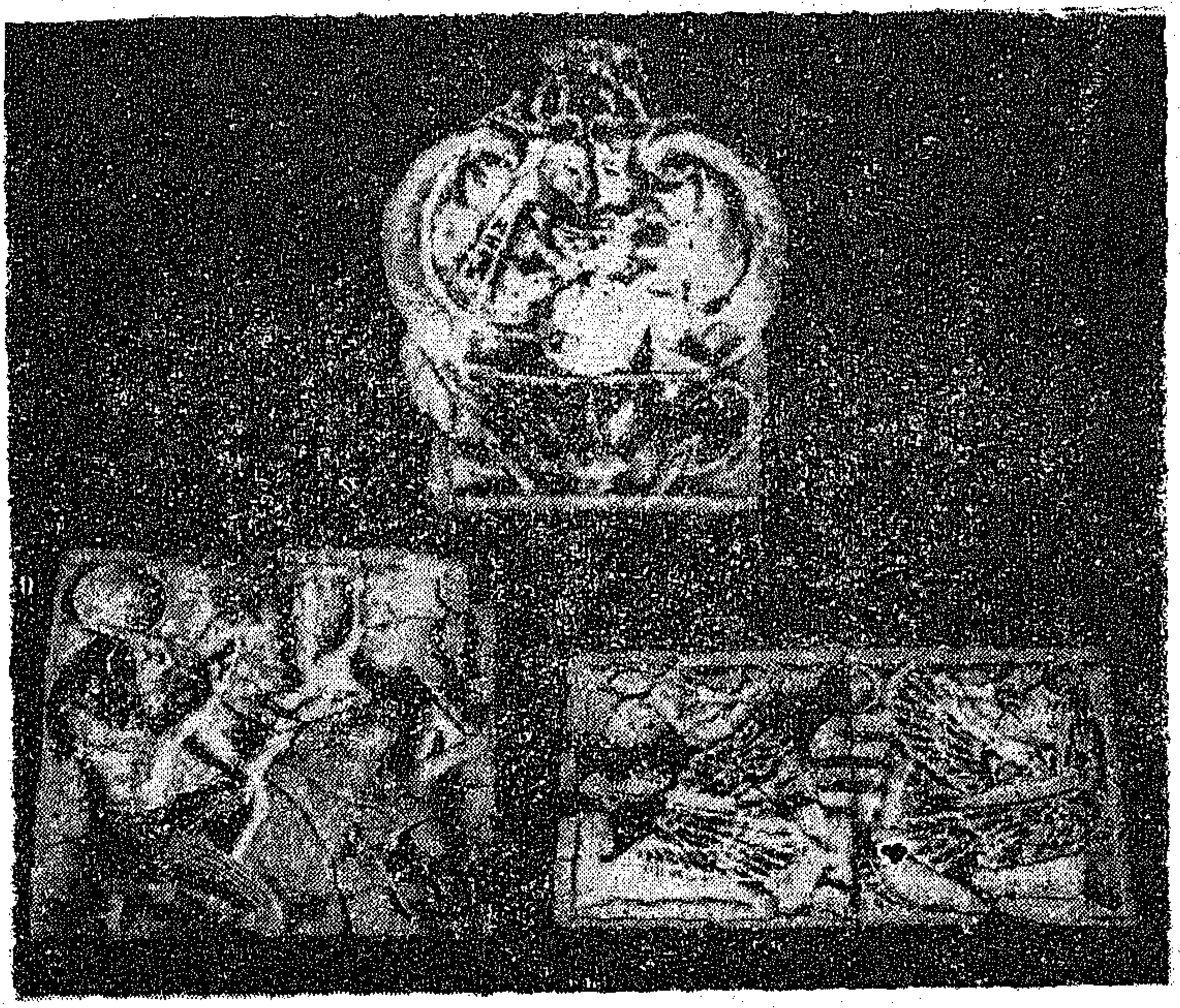

(شكل ١٨)

عن « البر » فى تلك الآية . وقد وردت فى الترجمات الإنجليزية[١] والفرنسية[٢] والألمانية[٣] بمعنى الحق والعدل والقانون والمساواة وهى المعانى التى شملها كلها اسم الإلهة المصرية القديمة ماعت رمز تلك المعانى وربتها جميعاً (شكل ١٨) . وقد كانت بنت معبود الشمس فى مصر ، ولذلك فإن الحديث فى العهد القديم عما تفيض شمس العدالة من شفاء وما لها من أجنحة تشرق بها إنما هو لا شك مستنير بما كان فى الحياة المصرية والديانة المصرية لا مراء .

ومع ذلك فقد تأيد ما كان شائعاً فى بنى إسرائيل من تلك التصورات المصرية بما عثر عليه فى السامرة من تصاوير فلسطينية الصنع مصرية النمط والموضوع ، وذلك فى خرائب قصر الملوك من بنى إسرائيل ، حيث كشفت الحفائر عن بعض ما كانت تطعم به قطع الأثاث من ألواح العاج المنقوشة ، فنرى فى أحدها صورة لرب من أرباب الشمس بجسم الإنسان ورأس الصقر راكعاً يقرب فى كفه رمز الحق والعدل ماعت ، وفى الثانية صورة حورس الطفل أو حربوخراد منبعثاً من زهرة من زهور السوسن ، وأما الثالثة فتصور إيزيس ونفتيس فى هيئة الطير تكتنفان أخاهما أوزيريس (شكل١٩) .

ولقد بلغ من شيوع تلك العبادات والعقائد الوثنية منذ عهد باكر فى بنى إسرائيل وتغلغلها فيهم[٤] أن صاحب سفر الملوك الثانى قد نسب إلى موسى صنع حية من نحاس ظل بنو إسرائيل يقربون لها ويوقدون بين يديها حتى أزالها وسحقها حزقيا ابن آحاز ملك يهوذا .
(الملوك الثانى ١٨ : ٤) .

---

(١) righteousness.

(٢) justice.

(٣) Gerechtigkeit.

(٤) سفر الملوك الثانى : إصحاح ١٧ : ٧ — ٢٣

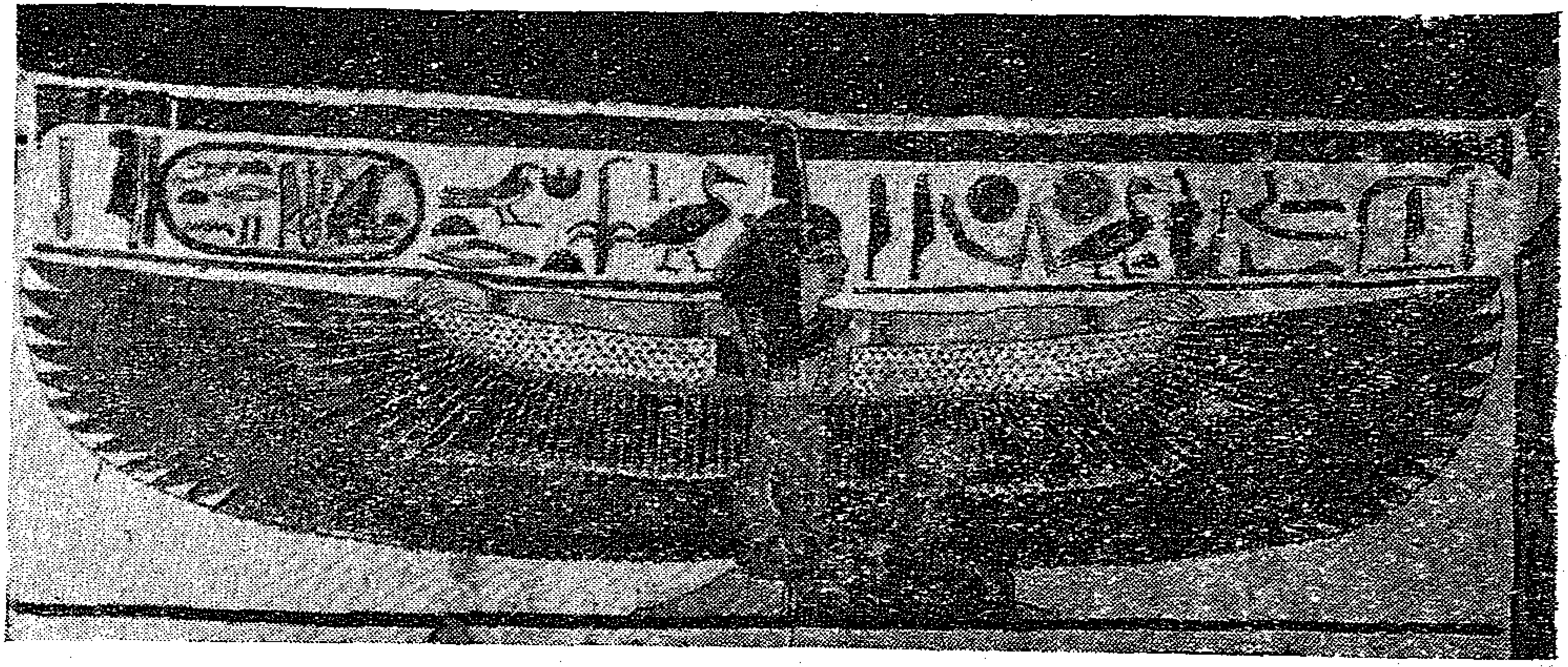

(شكل ١٩)

ولا حاجة بنا إلى القول أن الحية كانت من مصر ، حيث اتخذت صورة الحية لكثير مما قدس المصريون من معبودات .

على أن أجل ما يستحق الذكر عادات مصرية خرج بها بنو إسرائيل من مصر فتحولت شعائر مقدسة فى ملة اليهود . إذ خرجوا بعادة الختان والغسل من الجنابة وتطهر الوالدة بعد أن تضع حملها ثم المحرقات أو تصعيد ذبائح القربان بالحريق .

أما الختان فكان معروفاً منذ أقدم العصور حيث كشف عما يدل عليه مما عثر عليه فى جبانات فجر التاريخ من قبل أربعة آلاف عام من قبل مولد المسيح ، وذلك من جسوم بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال على اتباعهم الختان ، وذلك فضلا عن صورة من الدولة القديمة فى قبر عنخ مع حور من أطباء الأسرة السادسة وأخرى من الدولة الحديثة بالكرنك . وظاهر من أخبار التوراة كذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يختن إلا بعد عودته من مصر وإنجابه إسماعيل . ومن طريف ما ورد فى خبر الختان فى التوراة أنه كان يجرى بأداة من صوان ، وكان المصريون قد بدءوا صنع أسلحتهم وسكاكينهم من صوان وكانوا يسمونه « دس » ثم لم تلبث السكينة نفسها ولو كانت من المعدن أن سميت دس ، وإن كان كتاب التوراة قد ظلوا يترجمون عن المصرية ما يدل عليه اللفظ من معنى أصيل .

وأما الغسل من الجنابة فقد دل عليه ما روينا من قصة الكاهن الذى تربص لعشيق زوجته وهو يغتسل فى البحيرة(١) . وكان المصريون يحرصون أشد الحرص على الاغتسال قبل دخول المعابد أو القبور ويحذرون من دخولها أقصى غاية الحذر على غير تطهر . وكذلك كان على المصرية التطهر إذا وضعت حملها بعد أربعة عشر يوماً من الوضع ، كما تحدثت بذلك بردية وستكار عن تطهر ردچدت فى أعقاب وضعها توائمها

---

(١) Lefebvre, op. cit., p. 76.

الثلاثة[١] ، وكذلك فعل العبريون لولا أنهم نزلوا بتلك الفترة إلى النصف إذا وضعت غلاماً :

« إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة ، وفى اليوم الثامن يختن لحم غرلته ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها . كل شيء مقدس لا تمس وإلى المقدس لا تجيء حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها . . » (لاويين ١٢ : ٢ — ٥)

وفى سفر الخروج توصية من موسى — من قبل نزول الشريعة — « وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث لا تقربوا امرأة» (خروج ١٩ : ١٥)

وكذلك فى سفر صمويل الأول (٢١ : ٤ — ٥) نجد داود وهو يتساءل عن إمكان أكله من الخبز المقدس فيقول : « ألم نتجنب النساء منذ ثلاثة أيام . . . فكل رجالى طاهرون » .

أما المحرقة أو الصعيدة فكانت من أهم ما أخذ اليهود عن المصريين من شعائر ، وكان المصريون يصعدون القربان فى شعائرهم الجنزبة[٢] أو شكراً إذا خرجوا إلى سفر ويسمونه « سب ن سجت » وقد قدم البحار الغريق الذى حطمت الأنواء سفينته ثم ألقته الأمواج على شاطئ جزيرة منعزلة فى البحر الأحمر ذلك فأقام محرقة[٣] ، كما عهدنا تلك الشعيرة فى قبر سنب بالجيزة وفى قبر منا بالأقصر . وكانت شعائر المحرقة عند اليهود تقضى بتقديم ذبيحة تحرق فى الصباح وأخرى فى المساء[٤] — وكذلك كان المصريون من قبل يفعلون .

---

(١) op. cit., p. 89.

(٢) Junker, Das Brandopferim Totenkult in Miscellania Gregoriana (1941) p. 109 - 119.

(٣) Lefebvre, op. cit., p. 34.

(٤) الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه للدكتور حسن ظاظا (القاهرة ١٩٧١) ص ٨٦ — ٨٧

فى سنة رسول الله

شرفت مصر من محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته إلى الإسلام ، إذ كتب إلى المقوقس والى الروم عليها كتابه المشهور إذ يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم كل القبط »

« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وقد رد المقوقس فبعث إلى رسول الله جارية هى مارية القبطية التى أنجبت له ابنه إبراهيم .

ثم كان لرسول الله فى مصر وأهل مصر من أحاديثه الشريفة من جوامع الكلم ما قدر لها ولهم من الفضل والكرم ماننقله هنا عن جلال الدين السيوطى من كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة قال :

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى فتوح مصر ، حدثنا أشهب بن عبد العزيز وعبد الملك بن مسلمة قال حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق بحير بن داجر المغافرى

عن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة .

وأخرج الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى دلائل النبوة بسند صحيح عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته فقال : الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً فى سبيل الله .

وأخرج أبو يعلى فى سنده وابن عبد الحكم بسند صحيح من طريق ابن هانئ الخولانى عن أبى عبد الرحمن الجيلى وعمرو بن حريث وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنكم ستقدمون على قوم جعد رءوسهم فاستوصوا بهم خيراً فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله، يعنى قبط مصر .

وأخرج ابن عبد الحكم من طريق ابن سالم الجيشانى وسفيان ابن هانئ أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم ستكون أجناداً وخير أجنادكم أهل المغرب منكم فاتقوا الله فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر .

وأخرج ابن عبد الحكم عن مسلم بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : استوصوا بالقبط خيراً فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم .

وأخرج ابن عبد الحكم عن موسى بن أبى أيوب اليافعى عن رجل من المربد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأغمى عليه ثم أفاق فقال : استوصوا بالأدم الجعد ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك فقال القوم لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدم الجعد فأفاق فسألوه فقال قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على

عدوكم وأعوانكم على دينكم ، فقالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله فقال يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة فالراضى بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم ، والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمستنزه عنهم .

وأخرج ابن عبد الحكم عن أبن لهيعة قال حدثنى عمر مولى عفرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله الله فى أهل الذمة أهل المدرة السود السحم الجعاد فإن لهم نسباً وصهراً . . قال عمر مولى عفرة صهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى منهم ، ونسبهم أن أم إسماعيل عليه السلام منهم فأخبرنى ابن لهيعة أن أم إسماعيل هاجر من أم العرب .

وقال إمام بن عبد الحكم حدثنا عمر بن صالح أخبرنا مردانى القصاص قال : صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة ، إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسرى هاجر ، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب عين شمس ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية .

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم عسلا من عسل بنها فأعجب النبى صلى الله عليه وسلم فدعا فى عسل بنها بالبركة . مرسل حسن الإسناد .

وأخرج ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض ، فقال ولم يا رسول الله ؟ قال لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة .

القبط

تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما تحدث مؤرخو عصره عن المصريين باسم القبط والأقباط ، ومن ذلك اللفظ كان

اسمها الذى عرفت به عند الإغريق والرومان ، ثم عند الأوربيين ، من بعد ذلك ، أجمعين . ولم يكن لاسمهم هذا من دلالة على ما كانوا ينتحلون من ملة أو يعتنقون من دين. فكل من فيها إذن قبط وأقباط . ولم يكن ذلك اللفظ إلا تصحيفاً لاسم من أسماء مدينتهم منف التى كانت فى مصر عاصمة كبرى من عواصم الدنيا والدين ، حيث نشأ فيها لمعبودهم بتاح معبد عظيم عرف باسم حت كا بتاح بمعنى دار روح بتاح ، بلغ من الشهرة والعظمة بين المصريين ومن ساكنهم من الجاليات الأجنبية الكثيرة أن أضفى اسمه على المدينة كلها ثم على البلد كله ، فإذا بمنف ثم مصر كلها تعرف باسم حت كا بتاح ، ومنه كان إيجيبتوس وقبط ثم إيجيبت EGYPT ، فالمصريون بذلك قبط وأقباط من قبل الإسلام ومن بعد الإسلام ، وهم كذلك ، سواء من أقام على ملة المسيح أو دخل فى ملة الإسلام ، ولا فرق بين أن يقال مصرى وقبطى إلا كالفرق بين القول شامى ودمشقى أو إنجليزى وبريطانى أو كالفرق بين النسبة إلى العراق والنسبة إلى اسمها القديم بابل أو بلاد النهرين Mesopotamia

ومهما يكن من سند ما أوردنا من أحاديث رسول الله فى أهل مصر ، وهى عن رجل من كبار علماء المسلمين المفسرين ، فهى تتناول أموراً ثلاثة نجد مصدقاً لما بين أيدينا منها ، من أحداث التاريخ وأحوال أهلها .

الأول : أن للعرب فيهم صهراً وذمة .

الثانى : أنهم يكونون قوة وبلاغاً إلى عدوهم .

الثالث : أنهم خير الأجناد وأنهم يكونون نعم الأعوان على قتال عدوهم .

وهى من الحقائق الناصعات التى صدقتها وقائع الأحداث ، وأثبتها التاريخ على مر القرون والعصور .

فهم — فيما روى عنه صلى الله عليه وسلم للعرب أخوال وأصهار ، فمنهم هاجر — أو — هاقر — أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولا حاجة بنا إلى التفصيل فيما أسلفناه وفصلناه ، ومنهم كانت مارية القبطية التى تسراها وأنجب منها إبراهيم محمدٌ رسول الله .

ومع ذلك فلم يكن المصرى قصى العرق من العربى فى غابر الأعوام ولا حاضر الأيام . فلقد شهدت العصور الأولى من فجر التاريخ شعوباً وبطوناً عربية تنطلق من قلب الجزيرة العربية كل منطلق إلى مواقع الخصب والاستقرار ، فمنهم من استقر فى أرض الفراتين فكانوا من أصول العراقيين ، ومنهم من استقروا فى أرض الشام فكانوا من أصول السوريين واللبنانيين وغيرهم عبر سيناء إلى أرض مصر على ضفاف النيل ليكونوا مصريين ، وآخرون استقروا فى أقصى الجنوب من الجزيرة أو أقصى الشرق منها يمانيين وحضارمة وعمانيين . أولئك وهؤلاء كانوا شعوباً وقبائل سامية تتفرع من أصل واحد ترد نسبته إلى سام بن نوح ، ويتكلمون لغات نبطت من معين واحد وإن بعدت فيما بينها الشقة من بعد التفرقة والانشعاب حيث كان التوطن والاستقرار .

ولم يكن لقبيلة يومئذ أن تؤثر نفسها وكلها من أصل واحد بصفة العروبة دون غيرها من أهل تلك الأمصار أو هذه الديار ، فلم يكن معنى العروبة قد نبت بعد إلى الوجود ، ولقد أتى على العرب حين من الدهر كانوا يتكلمون فيه لغات ولهجات شتى لا يكاد يجمعها إلا العرق والدم برغم عسر التفاهم بل عسر التقارب والوئام ، ولم تكن لغة السبئيين والحميريين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية بأقرب من المصرية إلى النبطية والآرامية فى أقصى شمالها[1] .

ولقد كانت اللغة المصرية القديمة لغة ذات صبغة سامية فى

(١) التاريخ العربى القديم تأليف ديتلف نيلسن وفريتز هومل ول . رودوكاناكس ادولف جرومان . ترجمه واستكمله د. فؤاد حسنين على ص٢٧.

بنيتها وكثير من ألفاظها ، فهى تقوم على الفعل الثلاثى الذى يصرف ويشتق منه اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة ، وتتشابه فيها الضمائر المنفصلة والمتصلة بنظائرها فى العربية والعبرية والأكدية والآرامية والجعزية الحبشية والسبئية ، ويثنى فيها الاسم فضلا عن جمعه بل جمعه بالواو . كل ذلك فضلا عن شبه لا يكاد يقع تحت حصر فى ألفاظ اللغة وكلماتها ، فمنها ما يبدو صريحاً لا لبس فيه ومنها ماهو مستخف من وراء القلب والتصحيف أو تبدل المتشابه من الحروف (١) .

فلما تأذن ربك بفتح مصر تحت راية الإسلام إذا بها بمن تغلغل فيها من العرب وأقبل عليها من أنصار القرآن تنصهر بصهرهم وتستحيل عربية صريحة بقلبها ولسانها ، وإذا بها تنقاد لقدرها المقدور فتكون الإمام والزعيم .

على أن زعامتها لم تكن فريسة غصبتها ولا غنيمة افترصتها من دون الآخرين ، بل كانت أمراً منطقياً تتداعى إليه وقائع الأحداث والتاريخ ، كأنها حقائق العلوم وأفلاك النجوم . لذلك كانت وتكون فى تلك الرقعة من الأرض الزعيم وصانع الزعماء ، ثم تكون وأهلها كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم الأعوان . ولئن كان صلاح الدين الأيوبى زعيما وبطلا فى العرب والمسلمين فما كان لزعامته أن تستقيم ويورى زنادها بغير مصر . وما كان لمحمد علىّ أوائل القرن الماضى أن يبلغ ما بلغ بغير مصر . ومن قبله أدرك المعز لدين الله من عرشه فى المغرب ألا غناء — فيما أراد لنفسه ولدولته — عن مصر ، ولقد كان قوله فى خطبته عند إنفاذه جوهراً لفتحها قولا عن بصر وبصيرة وعن تقدير وتدبير إذ قال : « ولسوف يفتح جوهر مصر ويبنى هناك مدينة تقهر الدنيا » .

وقد فتحها وأنشأ القاهرة .

---

(١) انظر الملحق فى آخر هذا الكتاب .

ومع ذلك فلم تكن تلك الزعامة ادعاء منها فرضته أو ادعته على خلاف المنطق من الوقائع والأحداث . وحسبها من ذلك أن يرشحها لذلك الأعداء ويقروا لها به فيما صدروا عنه ممن فعل لمصلحتهم هم لا لمصلحتها هي . فلقد أدرك الصليبيون أن لا مستقر لهم فى الشرق باستقرار مصر ، ولا نصر لهم يحقق المطامع وفى مصر عرق ينبض بالمقاومة والصراع فلم يبالوا أن تتحول حملاتهم عما خرجت له من بيت المقدس إلى مصر . لأنهم أدركوا أن لا مناص لهم من تحطيم الرأس والقضاء على الروح المحرك والقوة الدافعة (١) أو أنهم أدركوا أن فى أهلها — كما روى عن رسول الله صلوات الله عليه — قوة وبلاغاً إلى عدوهم . فتصدت لهجومهم بقيادة جان دى بريين على عهد الملك العادل الأيوبى وخليفته الملك الكامل ، ثم استقبلت حملة السلام التى جاء بها الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى ؛ ثم عادت فتصدت لحملة لويس التاسع المشهورة على عهد الصالح أيوب وابنه توران شاه . فبذلت لكل منهم مثل الذى أراد ، فجنحت مع من جنح إلى السلم وأذاقت الهوان من أراد بها الهوان .

بل لقد ظل إقرار الأعداء بتلك الزعامة واستشعارهم ما فى طاقتها من قدرة قائماً فى عصور ضعفها ومحنها واضطرارها إلى الاستكانة — حيناً — لحكم غاصب دخيل . فما خضعت لسلطان إلا وضع لحكمها نظاماً متميزاً يخيل به لنفسه أنه يحول بينها وبين التحلل من قيوده والتحرر منه أولا ، ويحول بينها وبين الامتداد إلى جيرانها بالعون والتأييد ثانياً :

كذلك فعل الرومان ، وكذلك فعل الترك من آل عثمان .

ومع ذلك فهيهات هيهات ، مهما طال الأمد أو بعدت الشقة ،

---

(١) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, (London 1914) p. 218.

أن يعرقل برية الخالق إنسان ، أو يعطل مسير الزمان . فلقد ظلت وستظل من العرب بمثابة القلب والمقتل من الجسم لمن أرادهم بمكروه ، من أصابها أصابهم ومن عزلها عنهم فكأنما عزل عن الجسم الرأس وشل مراكز الأعصاب .

وكذلك دبرت وتدبر دول المطامع فى العصر الحديث .

وكذلك أقامت بينها وبين أخواتها العربيات حائلا من أحقاد الصهيونية وأطماعها .

ولكن هيهات هيهات – مهما طال الأمد أو بعدت الشقة – أن يعرقل برية الخالق إنسان أو يعطل مسير الزمان ،

ومع ذلك فهل يدرك الإخوة العرب اليوم أن الأوان للعمل قد آن ؟ وما أصدقها من قولة لعظيم من عواهل العرب المحدثين هو « الواثق بالودود عبد العزيز آل سعود » قال :

صلاح العرب بصلاح مصر .

إذا استقامت أمور مصر استقاموا

وإن أصابها – لا قدر الله – العوج ضلوا الطريق(١) .

وفضلا عن ذلك فلم يبعد بنا العهد عام ١٩٥٦ بمن قال من ساسة فرنسا يومئذ « إن معركة الجزائر إنما تقاتل فى القاهرة » . فتلك إذن حقيقة الحقائق لا ريبة ولا مراء .

وحسبها وقد اختلطت بالعقول والأحاسيس والمشاعر أن يقول بها حكيم من عواهل الشرق وأريب من ساسة الغرب ، ويقول بها على لسان مصر شاعر ترجم بها عن حس كل عربى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق :

أنا إن قدر الإله مماتى ... لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

ولقد لقيت مصر ما لقيت بحكم ما احتملت من كفالة فرضت

---

(١) مقال بصراحة لمحمد حسنين هيكل بصحيفة الأهرام يوم الجمعة ٢٢ ديسمبر ١٩٧٢ .

عليها بما جبلت عليه من خلقها وخليقتها ـ شهامة والتزاماً فى سبيل أخواتها ـ مصرفاً ، وإدراكاً منها مع ذلك أنها وأخواتها كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وصدق رسول الله بما روى عنه من قوله فيها :

« فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض » .

« فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم » .

« ويكونون لكم عدة وأعواناً فى سبيل الله » .

ولقد مكن الله لها ذلك بما توفر لها من أموال وبنين وبما حباها به من جنات وعيون وكنوز وزروع ومقام كريم ، فطوع لها المدد بل الأمداد من الجند الكثيف ، وما زال فى طوعها بالتنظيم والتسليح تجنيد خمسة آلاف ألف من المقاتلة مدججين . أولئك ينبعثون من أرض فرضت عليهم ـ مع سخائها ـ الدأب والمثابرة والكد والكفاح ، حيث نشأ المصرى عاملا بطبعه منشئاً بفطرته على مدى تاريخه القديم والحديث ، من الهرم العالى إلى السد العالى ، ومن كفاح مع الهكسوس فى هوارة وشارود حان إلى معارك تحمس الثالث فى مجدو وقرقميش ومعارك ابنه أمنحتب الثانى فى شمش أدوم والأورونت والنهرين ، ثم معارك رمسيس الثانى فى قادش ودابور وتونب وحلب ، ثم كفاح مع الصليبيين والمغول ثم الترك والفرنسيين والإنجليز والصهيونيين . كفاح للرزق مع الأرض وكفاح العدو من أجل الأرض ، واختلاف الأيام عليها بالنحوس والسعود وبالهزيمة والانتصار ، ولكنه فى هذا كله جلد دءوب قوى صبور ، فما تغشاه من محنة إلا تغلب عليها واجتازها وفرض نفسه عليها . ولقد أقبل على مصر البطالمة فحكموها وحرموا أهلها الجندية إلا خدماً معاونين ، فلما اضطر فيلوپاتور إلى تجنيدهم حين اشتدت عليه وتأزمت الأمور إذا بهم برغم طول عزلة عن الجندية يخوضون عام ٢١٧ ق . م معركة هائلة فى رفح انتزعوا فيها من السليوكيين النصر المبين ، وأثبتوا ما فى أعماقهم من قوة كامنة تنطلق

ما أتيح لها التفجر والانطلاق .

لقد صدق رسول الله فيما قدر لأهل هذا المصر من مصير . كفاح لم ينقطع ولن ينقطع ما دام فى الأرض – يضطرب فيها بغرائزهم ونزعاتهم الناس من أخوة قابيل وهابيل ، ولذلك فهم كما قال « فى رباط إلى يوم القيامة » ولاغرو يكونون لذلك خير أجناد الأرض . وهم مع ما جبلوا عليه من القوة والدأب قد امتازوا كذلك بقوة تهون معها قوة العضل و بأس الحديد .

تلك هى .

قوة الإيمان

إيمان بربه هون عليه الموت حيث أنكر الموت فما رآه إلا مجازاً إلى حياة الخلود .

إيمان أقام فى نفسه على اختلاف الملل والنحل على مر القرون والعصور : من نحلة أوزيريس بن إيزيس إلى ملة عيسى بن مريم إلى دين الإسلام ، فهو صائر بنص هذه أو تلك إلى حقول يارو أو الحياة الأبدية أو جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار .

ثم إيمان بوطنه الذى تخيل فردوس الآخرة على صورته ، أو إيمان بأن بلاده « أم الدنيا » . ولذلك فهو يلاقى مصيره وأقداره مقبلا غير مدبر ، ولذلك فهو وآله من قبل فى رباط ، وصدق رسول الله « ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم » . فما تنزل من محنة يتعرض لها العرب إلا كانت مصر صاحبة الكفل الأعظم فيما تحتمل من تلك المحنة ثم صاحبة السهم الأكبر فيما تبذل لإبلاغهم النجاة والخلاص .

كانوا هم الصخرة التى تحطمت عليها أمواج المغول وجحافل المغول فى عين جالوت ، حين تدافعوا كالسيل العرم على العراق يدمرون ويخربون ، حتى « احمرت الأرض من دم العباد واسود ماء دجلة من

المداد » .. إذ كانوا هم القوة التى أنقذت حضارة الإسلام من جند هالاكو ثم إجند غازان.

وكذلك خاضت ما شاء الله من معارك ضد جحافل الصليبيين. حيث شاء الله لها وبيد بنيها أن تخلى المشرق ممن تستروا بالمسيح واعتصموا بأطماعهم من وراء الصلبان ، وشهدت لها صحائف الأيام بما بذلت فى أرسوف وحطين وفى المنصورة وفارسكور ثم فى عكا وأرواد .

لذلك فقد كتب على المصريين بحكم موقعهم كما قدمنا وتكرر أن يكونوا كما قال رسول الله فى رباط ، أو كما نقول نحن فى تأهب واستعداد. ولقد علمهم التاريخ وما ينبغى أن ينسوا أنهم منتصرون ماأقاموا فى رباط متأهبين ، ممسكين أسلحتهم متمسكين بالأخلاق ساهرين ، وأنهم أذلة صاغرون إن أعرضوا وتركوا السلاح أو أهملوا النضال والكفاح .

ووالله إنها لهم وللعرب بدر أو أحد أو هى الأحزاب أو حنين لا اختلاف مهما بعدت الشقة أو تقلب الزمان .

إيمان ونظام يحفظ القوة ويأتى بالنصر .

أو أطماع ومغانم وغرور وتهريج تجر الهزيمة وتستتبع الهوان .

وما أرى رباط اليوم بغير العلم الذى لا غناء عنه فهو اليوم صنو الحياة والأنفاس .

ولا رباط اليوم بغير سلاحنا نصنعه مهما غلا فلا نتكفف فى سبيله وعوداً قد لا تجاوز الشفاه .

لقد كانوا وما زالوا خير أجناد الأرض منذ عصور الفراعين حتى هذا الجيل من أبنائها المحدثين .

وقد أثبتوا للبطالمة فى موقعة رفح بعد طول حرمان من الجندية أنهم جنود محاربون ، وأثبتوا تحت محمد على كيف يغلبون الترك ويبهرون الأوربيين ويروعون .

ومع ذلك فقد لا تبدو شجاعة الشجاع ولا صلابته فى معارك الظفر

والانتصار ، بقدر ظهورها فى محن الهزيمة والانكسار ، ولسوف يعلن التاريخ كيف قاتل القلة من أبنائنا فى بعض بقاع سيناء عام ١٩٥٦ وكيف قاتلوا برغم حلول النكسة عام ١٩٦٧ .

هم خير أجناد الأرض مطبوعين فلنتعهدهم بالتربية والتعليم صانعين .

ولنعد إلى ماروى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته فى أهل مصر: « فإنهم قوة وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله » . ولقد اختار عليه الصلاة والسلام هذا الوصف بأنهم هم القوة لأن القوة جوهر فى ذاتها تتمثل فيهم وليست صفة عارضة تنسب إليهم يوماً وتنفى عنهم فى غيره من الأيام . ولقد كان المصريون قوة تفجرت عنها وانطلقت منها ما تسامعت به أجيال من بعد أجيال . على أن المتأمل لايحتاج إلى النظر وإمعان الفكر فى قوة القوى إذا قضى أو أراد .

وإنما تمتحن القوة إذا اعتورتها المحن المدلهمة والمصائب الشداد ولقد عرفت فى المصريين القوة بما ركب فى طبعهم ورسخ فى أعماقهم من قدرة على المقاومة والصمود .

هم قوة بما جبلوا عليه من المصابرة والعناد .

فلا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو وقع الإكراه من أهل التجبر والطغيان .

فلم يستطع أخناتون حملهم على التوحيد من حيث رفضوه .

كما لم يستطع دقيان حملهم على الكفر لأنهم كرهوه واستنكروه .

ولم يبالوا مع الأول تعرضهم لعسف واستبداد .

ولا مع الثانى لقتل واستشهاد .

وربما هادنوا الطغيان تحينًا للصدام والصراع .

وسايروه سخرية على غير طاعة ولا انصياع .

أقبل عليهم الهكسوس فأقاموا فيهم نيفًا وقرنًا من الزمان متسلطين فاتحين ، وأقام المصريون يتحينون الفرصة أيقاظًا ساهرين .

فلما آن الأوان خرجوا عليهم خروج العازم المنتقم الذى لا يرضى بغير الحرية أو الحمام . ووقف الشعب من وراء حماته وأجناده يبذل عن طواعية وسخاء ، ولا يبالى بغير غايته ومبتغاه .

ولم يخدعهم البطالمة عن أنفسهم ولا دينهم فأقاموا على المقاومة والثورات ولم يطمئنوا إلى دين خرجوا به وابتدعوه ، بل ظلوا بتراثهم مستمسكين وعلى عاداتهم عاكفين. وأقاموا على إنشاء المعابد ورعاية الهياكل والمحاريب . بل لقد شكا هيرودوت من المصرى اشمئزازه من الإغريقى أن يقبله أو يصطنع أدواته أو يشرب من إنائه . وفى ذلك مظهر من أشد مظاهر المقاطعة للطارئ والترفع على الدخيل . ومع ذلك فقد أخذت حضارة الغالب عن حضارة المغلوب . واعترف فلاسفة الإغريق بحكمة المصريين . وغزا دين المصريين قلوب اليونانيين والرومان أجمعين .

وأقبل الفاطميون يحملون مع الإسلام مذهبًا فى التشيع لم يرضوه ولم يسيغوه ، ثم زالت سلطتهم وانحسرت دولتهم فما تركوا فى مصر من شيعى واحد .

وقد تتبين صلابة المصريين وعنادهم مما اتبع الفاطميون فى سبيل نشر المذهب قرنين كاملين من دعوة منظمة تولاها مع داعى الدعاة سيف المعز وذهبه وتولته بطانته وأنصاره . وتغلغلت الدعوة فى المجتمع مواكب وأعياداً ومآدب وحفلات ، وأخباراً كثيرة عن كرامات ومعجزات . بل كان للدعوة مدخلها المقبول اللطيف إلى نفوس الناس وهى تدعو إلى إجلال آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أغرم المصريون وما زالوا بآل البيت وإجلال آل البيت ، بل إن حب آل البيت لمقيم فى النفوس راسخ فى القلوب . وما زال من المصريين من يشرف ويفخر بنسبه إلى ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

على دين واحد كان الحاكم والمحكوم .

وعلى رأى واحد فى حب آل البيت وإجلال آل البيت كان الحاكم والمحكوم ، فأما أن يتعدى الحب والإجلال إلى ما ليس له به علم فتلك

حدود الصدوف ومواقع الوقوف .

لأنه إنما يدرك بما رسخ فى أعماقه من دقيق الحس والشعور وما منح من ذكاء فطرى يميز به - مظان الخلل ومواطن الخلاف ، وإذا بالأزهر الذى أسس لدراسة المذهب الشيعى يتحول إلى أكبر مدرسة لتعليم الدين على مذاهب أهل السنة والتابعين .

ثم أقبل على مصر الترك من آل عثمان .

أولئك حملوا راية الإسلام على مذهب السنة فلا خلاف فى المذهب ولا خصام .

وجاء السلطان فحشر فنادى ، فقال أنا سلطان البرين وخاقان البحرين ، وأنا حامى حمى الحرمين ، وأنا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .

وأقبل الترك على المصريين أفواجاً يزعمون لأنفسهم تفوقاً لا أدرى - بغير الفتح والغلب - كيف كسبوه إن كانوا بالحق برهنوه وما برهنوه . فكل رفيع ممتاز عندهم تركى وعثمانلى وإسلامبولى أو اسطمبولى . وغير التركى فى عينهم « فلاح » أو من فلاح « خيرسيس » .

هنالك تجلت قوة المصرية فى المصريين كأروع ما تكون قوة الإحساس بالنفس والإحساس بمكانته من حضارة الإنسان من قديم الزمان . ذلك أنه قادر على أن يميز الطبل الأجوف ولو دوى دوى الرعود ، والومض الخلب ولو كاد سنا برقه يذهب بالأبصار . أقبل التركى باسم الخلافة والإسلام ولكن المصرى بحسه المرهف وحكمته العريقة قد فرق بين دعوة الإسلام السمحة وبين التسلط المرفوض فى الحكم المفروض . واتخذ سياسة من أدق ما اتخذ إنسان من سياسة وأبرعها مسلكاً . كره التركى فى تسلطه واستعلائه وخالفه وقاومه . ولكنه حالفه على قوى البغى الأوربى واستعمار الغاصبين .

لذلك فما تلبث تلك الأفواج التركية أن تدخل فيمتصهم كعادتهم المصريون ، ويهضمهم المصريون . يمتصونهم بشراً وإخوة ويهضمونهم نسباً وصهراً بغير سيادة مقحمة أو استعلاء مزعوم . ويقيم المصرى على

اعتزازه بنفسه وتقدير ثقافته وحضارته ، فلا يثير استعلاء التركى منه إلا السخرية المريرة والضحك العريض ، فإذا زال السلطان التركى لم يترك فى المجتمع المصرى إلا ما يتركه الماء الصافى على الجلاميد الملساء فلا تركية ولا عثمانلية .

وقد شاء نابليون أن يوطئ لأحلامه فى مصر بما شاء أن يزعم ويدعى من المزاعم والدعايات . فما كان جواب قومها إلا ثورة القاهرة الأولى وثورتها الثانية ثم مقتل كليبر خليفته فيها وضابطه الكبير .

وقد يبدو للمخدوع وصاحب النظر السطحى كأن المصريين يخدعون عن أمرهم حيث يراهم كأنما أيدوا السلطان الجائر ونصروه ؛ وتعشو عينه عن سلاح عجيب من أسلحة الخذلان والتضليل عرفوه واتبعوه ؛ ذلكم هو سلاح السلبية والإهمال وما عبر عنه شوقى رحمه الله فى قوله :

لقد أنلتك أذناً غير واعية ورب مستمع والقلب فى صمم

ولعل فى الدارج من أمثلتهم ما يصور أسلوبهم وطريقتهم إذ يقولون : « خليك مع الكداب لحد باب الدار » . وهم يعلمون ألا مصير للكذاب إلا الخذلان والبوار . وهى السياسة التى عبر عنها داهية العرب معاوية بن أبى سفيان فى قوله لابنه « كل من حاول أن يخدعك فتخادعت له حتى بلغت منه مأربك فقد خدعته » . لذلك فلا حرج عندهم فى الأخذ بما أشاع الفاطميون من المواكب والأعياد ، ثم لا خوض فيما وراء ذلك من الدعاوات والغيبيات ، ومن عجب أن يتخذوا يوم عاشوراء وهو يوم حزن عند الشيعة — عيداً يأكلون فيه الحلوى وأطايب الطعام .

ومع ذلك فقد ركب فى طبعهم ما لا أدرى أيحسب للمصريين أم يحسب على المصريين ، ذلكم هو طول الصبر وامتداد الأناة ، كأنما طبع تاريخهم الطويل فى أنفسهم مقاييسه البعيدة الضاربة فى أعماق القرون والدهور .

ولقد احتل الإنجليز ، مصر كما احتلوا غيرها من أمصار العرب سنين ، وتفتحت أبوابها معهم لشذاذ الآفاق وطلاب الثراء والنهازين ، وامتلأت

بأجناس اليهود والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والأرمن واليونانيين والمالطيين ومالت إليهم طبقة من المتمصرين والمتفرنجين مقلدين ، واندفعوا إلى ما لهؤلاء من مدارس لم تستقبل أبناءهم لوجه الله ولا لوجه العلم والحضارة مخلصين . « وإنما الأعمال بالنيات » .

وقامت في القاهرة والإسكندرية ومدن القناة أحياء ونواد بدت كأنها وتكاد تحرم على المصريين . بل كان على المصرى إن شاء أن يدخلها — وسمح له — أن يلوى لسانه بلغة غير لغته ويتكلف غير طباعه أو تنوشه — على الأقل — العيون ، ثم لا طعام ولا شراب إلا باسمه الأجنبي وإلا تعرض المسكين للهوان وعد من أسفل سافلين .

ثم امتلأت مصر بالآلاف من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٥ . ونطق الخدم والباعة والعمال والتجار بالإنجليزية لا يكاد يخلو زقاق في مصر منها ، ومع ذلك فقد بقي كله زبداً على السطح لا يغوص أبداً إلى الأعماق ، لأن في أعماق المصريين من حضارته وثقته بنفسه ما يغنيه .

ثم انحسر حكم الأجنبي وتقاص نفوذه ، وإذا بمصر على ديدنها وعهدها تحمل لواء الثقافة العربية والنهضة العربية في أرض العرب من الخليج إلى المحيط . وإذا بها من قوة الروح تتعقب آثار التسلط الأجنبي فلا تبقي عليها ولا تذر ، وتعود اللغة العربية والنفس العربية فيها خالصة صافية ، فلم تصف اللغة من تأثير الأجنبي في قطر عربي بقدر ما صفت في مصر ، فلا يتخذ المصرى لفظاً من ألفاظ الحضارة الحديثة وعنده عنه من لغته ما يغنيه ، ولا يكاد يجد في لغته عن الأجنبي بديلا مقبولا حتى ينصرف إليه . فلقد فضل لفظ السيارة والعربة على الأتوموبيل أو الموطر ، وفضل الثلاجة على الفريجيدير والتكييف على الكنديشن .

وأولى به لذلك ألا ينصرف عن لفظ عربى يعرفه إلى لفظ أعجمى دخيل . فلم يجز لسانه — كما يجرى فى غير مجتمعه لفظ جلاس أو قلاس بديلا عن الكوب على سبيل المثال . فإن أعوزه اللفظ الحديث للمسمى الحديث فإنما ينطق أو يأخذ عن الأجنبى أخذ المريد القادر لما يشاء من بضاعة ينتقى منها ما يرضى ويختار . ولو قد تعاونت الصحافة والإذاعة وكتب المدارس مع المجمع اللغوى لصفت اللغة العربية وخلص اللسان العربى فى أقل من عشر سنين مما ينبو عنها من غريب الألفاظ .

وفضلا عن ذلك فقد أصبحت لهجة مصر العربية قياسًا ونموذجًا للعرب المحدثين فى الإسلام كما صارت لهجة قريش قياسًا ونموذجًا لعرب الجاهلية قبل الإسلام .

وبعد فتلك لمحة من مصر ومن أهل مصر . فهل أتاك حديث مصر ؟

صلابة وقوة لا تدركها جهالة الحاكم فى صلافة التجبر والغرور . إذ لا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سلك سبيل الحيلة وبدا فى مسوح الرهبان .

ولا مبدل لإرادتهم بغير إرادتهم ولو سعى إليهم بالمنصب الجذاب أو البارق من القناطير المقنطرة من الورق والعقيان .

وتمضى عجلة الزمان ويكونون اليوم نعم الأعوان .

كما كانوا فى غابر الزمان .

وهم اليوم إنما يبذلون عن طواعية وإقبال ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . إذ يبذلون من علمهم وخبرتهم لإخوتهم ما عندهم وما يستطيعون ، حيث تفتح مصر أبوابها لمن أقبل عليها يطلب العلم أو الدين أو يطلب الملجأ الهادئ أو المستقر الأمين ، أو ترسل أبناءها بالعلم والخبرة ملبين مسرعين ، مهندسين ومعلمين ، وقراء للقرآن أو عمالا وصانعين ، لأنهم آمنوا منذ القدم بعون إخوتهم وأشقائهم مخلصين .

ولقد أقبلت على مصر الشعوب فى عضور قوتها وعصور ضعفها على

سواء ، لأنها كانت دائمًا صاحبة شىء تعطيه أو شىء يراد ، فليكن لدينا أبداً ما نعطيه وعندنا — مع العزة والقوة ما يراد — ولا محالة كى يراد أن يبرأ من شبهة الزيف ويتنزه عن مظنة التمويه .

خختام :

وبعد . . .

فتلك هى مصر وهذا شأنها وحظها من كتاب الله ومن سنة رسول الله .

وخليق بها لذلك أن يظل اسمها بعمل أبنائها خفاقًا فى العالمين جذابًا للأقربين والأبعدين ، لأنه اسم شاء الله أن يكون له مكانه من كتبه ومنزلته من أنبيائه ورسله .

وتخفق له قلوب الناس على اختلاف الملل والنحل فى المشرقين والمغربين كلما قرءوا ما نزل من كتبهم أو سمعوا لسيرة من سير أنبيائهم . بل إن المورمون فى أمريكا ليردون عقيدتهم إلى ما أوحى إلى نبيهم چوزيف سميث عن البردى المصرى باللسان المصرى .

وإن الشعوب لتبذل النفس والنفيس وتنفق جليل الأموال فى سبيل إذاعة أسماء بلادها وبثها فى العقول والأفئدة والشفاه .

فكيف بنا واصر من جذور العقيدة سهم ينفذ إلى سواد القلوب وحنايا الصدور .

ولنا من ذلك رصيد لا شك ينمو ويتعظم إن تعهدناه وخلصناه من الشوائب ورعيناه .

تلك هى مصر وهذا قدرها .

ترى هل يتردد اسمها بعمل بنيها قويًا فى النفوس راسخًا فى الأعماق ! !

صنعاء يوم الأربعاء ٢٣ من ربيع الأول سنة ١٣٩٣

٢٥ من أبريل سنة ١٩٧٣

ملحق ١

أزمان الفراعين

عصر بداية الأسرات (الأسرة الأولى والثانية) ٣٢٠٠ – ٢٧٧٨ق.م

الدولة القديمة :

الأسرة الثالثة ٢٧٧٨ – ٢٧٢٣ ق.م
الأسرة الرابعة ٢٧٢٣ – ٢٥٦٣ ق.م
الأسرة الخامسة ٣٥٦٣ – ٢٤٢٣
الأسرة السادسة ٢٤٢٣ – ؟

عصر الفترة الأولى

الأسرات ٧ – ١٠ ٢٢٤٢ – ٢٠٦٠

الدولة الوسطى

الأسرة الحادية عشرة ٢١٦٠ – ٢٠٠٠
الأسرة الثانية عشرة ٢٠٠٠ – ١٧٨٥

عصر الفترة الثانية

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة ١٧٨٥ – ١٦٨٠ق.م
الهكسوس ١٧٣٠ – ١٥٨٠ق.م تقريباً

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة	١٥٨٠ — ١٣٢٠
الأسرة التاسعة عشرة	١٣٢٠ — ١٢٠٠
رمسيس الثانى	١٢٩٨ — ١٢٣٢
مرنبتاح	١٢٣٢ — ١٢٢٢
سيتى الثانى	١٢٢٢ — ١٢١٦

ملحق ٢ – الضمائر المصرية والسامية

عربى	مصرى	عبرى	أرامى	أكدى	سبئ	حبشى
أنا	أنوك	أنى – أنوكى	إنو – إنا ه	أنا كى	أنا (؟)	أنا
أنت	انتوك	أتّا	أت ، أنت	أتّا	أنت (؟)	أنت
هو	أنتوف ، سو	هو	هو	سو	هو	وِ إتو
هى	انتوس ، سى	هى	هى	هِى	هىَ	ى ايتو
نحن	أينن	أنحن	انحنان	انينى	نحن	نحنا
أنتم – انتن	أنتوتن	– أتم	أتّن	أتّينا	–	انتّن
هم	أنتوسن	– هم	هتون	شونو	همو	امونتو وايتومو
هن	أنتوسن	هنا	هنين	شنا	هن	أمانتو وايتون

ثم انظر : أحمد بدوى : اللغة المصرية القديمة ومكانتها بين اللغات .

Marcel Cohen, Langues Chemito-Semitiques, dans les Langues du Monde, 1924; Essai comparatif sur le Vocabulaire et la phonetique du chemito-semitique. Paris 1947.

Calice, Grundlagen der Ägyptisch-Semitischen Worterverzeichnis. (Herausgegeben von Heinrich Balcz.) Wien 1936.

أهم المراجع

١ ـــ القرآن الكريم

٢ ـــ تفاسير القرآن

(ا) تفسير النسفى

(ب) تفسير البيضاوى

(ح) تفسير أبى السعود

(د) تفسير القرطبي

٣ ـــ الكتاب المقدس بترجماته العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية .

Baikie, The Amarna Age. (London 1926)

Barguet, La Stèle de la Famine a Sehel (Le Caire 1953).

Barsanti et Gauthier, Stèles Trouvées à Ouadi Es-Sebouâ (Nubie). Annales du Service des Antiquités de l'Egypte XI (1911) p. 84.

Breasted, Ancient Records of Egypt 5 Vols.

The Dawn of Conscience.

Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. (London 1912).

The Ras Shamra Statue of Sesostris-Onekh. Syria XVI, p. 318-320, Paris Tours, 1935.

Brugsch, Die Biblichen sieben Jahre der Hungesnoth (Leipzig 1891).

Caminos, Late Egyptian Miscellanies. (London 1954).

Calice, Grundlagen der Ägyptisch-Semitischen Worter-verzeichnis (Wien 1936).

Černy, Greek Etymology of the Name of Moses; Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, T. XLI (1942), p. 349.

Erman, Gespräch eines Lebensmüden mit seiner Seele (Berlin 1896).

Erman, Die Märchen des Papyrus Westcar.

The Ancient Egyptians. Asourcebook of their writings. Translated by Aylward M. Blackman (New York 1966).

A. Gardiner, Egyptian Grammar. (oxford 1927).

Egypt of the Pharaohs (Oxford 1961).

Late Egyptian Stories (Bruxelles 1932).

Late Egyptian Miscellanies (Bruxelles 1937).

Erman & Sethe, Egyptian Letters to the Dead (London 1928).

Gauthier, La Grande inscription dedicatoire d'Abydos (Le Caire 1912).

Glanville, Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum, Vol. II. The Instructions of Onkhshash-anky (London 1955).

The Legacy of Egypt.

Hayes, A Papyrus of the Late Middle Kingdom in the Brooklyn Museum (Brooklyn Museum 1955).

Hieratic Papyri in the British Museum 3rd series, Vol. I & II.

Kees, Ancient Egypt, A Cultural Topography (London 1961).

Kitchen, Ramesside Inscriptions (Oxford 1971).

Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London 1914).

Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de l'Epoque Pharaonique (Paris 1949).

Möller, Hieratische Lesestücke II (Leipzig 1927).

Montet, Le Drame d'Avaris.

Tanis.

L'Egypte et la Bible (Neuchatel 1959).

Naville, Pithom.

Ottley, A Short History of the Hebrews (Cambridge 1932).

Pritchard, Ancient Near East Texts Relating to the Old Testament (Princeton 1969).

Petrie, A History of Egypt — Nebesheh adn Defenneh.

Ranke, Die Ägyptischen Personennamen, 2 Vols. Glückstadt 1935, 1952.

Vandier, La Famine dans l'Egypte Anciennne (Le Caire 1936).

Whiston, The life and work's of Flavius Josephus (Philadelphia 1957).

Williams, (Ronald J.,) Some Egyptianisms in the Old Testament in Studies in Honor of John A. Wilson (Chicago 1969) p. 93 ff.

Youssef, Merenptah's Fourth year Text at Amada, in Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, T. LVIII (1964), p. 273.

إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية (القاهرة ١٩٢٩) .
برستيد : فجر الضمير ترجمة سليم حسن .
حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه .
دريوتون وفانده‍يه : مصر ترجمة عباس بيومى .
ديلتف نيلسف وفريتز هومل ود . رودوكاناكس وأدولف جروهمان : التاريخ العربى القديم ترجمة فؤاد حسنين على (القاهرة ١٩٥٨) .
سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ترجمة د . السيد يعقوب بكر
سليم حسن : مصر القديمة .
عبد العزيز صالح التربية والتعليم فى مصر القديمة .

الفهرس

صفحة

١ ــ مقصد الأنبياء ٩

٢ ــ إبراهيم : تخوم مصر ، حمايتها ، القلاع ، العلاقات بين مصر وجيرانها ، خوف إبراهيم على سارة من ملك مصر ، أخلاق المصريين ، حديث النبي فى إبراهيم ، هل كذب إبراهيم ، اللغة المصرية تبرر قوله ، عدل المصريين وتقديس الحرمات ، كفاح المصريين فى سبيل العدل ، تطور الفكر الذى شهده إبراهيم ١٥

٣ ــ يوسف : عصر يوسف ، الهكسوس وعاصمتهم فى مصر دخول الكنعانيين مصر ، قصة يوسف ، مجتمع الدخلاء فى مصر ، مجتمع المصريين من آدابهم ، المجاعات فى مصر ، بقية القصة ٣٩

٤ ــ موسى : بنو إسرائيل فى مصر ، عدو بنى إسرائيل ، لمحة من التاريخ ، رمسيس ، مرنبتاح ، فرعون وبنى إسرائيل ، مولد موسى ، المراضع فى مصر ، تربية موسى وتعليمه ، قتله المصرى وفراره إلى مدين ، العودة ، بعث موسى ، لقاء فرعون ، الخروج ، ما بعد العبور ٧١

موطن بنى إسرائيل فى مصر وفرعون من القرآن ، فرعون ، فأوقد لى يا هامان على الطين ، فرعون الخروج . .

٥ ــ موسى والخضر : مجمع البحرين ، اللقاء فى مصر . ١٤٩

٦ ــ عيسى : إيواؤه وأمه إلى مصر . ١٥٤

صفحة

٧ ـ الأرض : مصر فى القرآن ، جنات ، وعيون ، وزروع . ١٥٧
وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . .
٨ ـ حكماً وعلما : مصر والشرق ، مزامير داود ، أمثال ١٧٩
سليمان ، عبارات مصرية فى العهد القديم وعادات مصرية
قبسها العبريون . . . .
٩ ـ فى سنة رسول الله : أحاديث الرسول فى مصر ، القبط . ١٩٧
المصرى والعربى ، زعامة مصر ، الأعداء يقرون بذلك ،
قوة الإيمان ، الصمود المصرى . . . . .
١٠ ـ ختام ٢١٥
١١ ـ أزمان الفراعين ٢١٦
١٢ ـ الضمائر المصرية والسامية ٢١٨
١٣ ـ المراجع ٢١٩
١٤ ـ الفهرس ٢٢٣

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٤٦٠٤ /١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

م
٢٥

مصر

مصر

مصر

٢٠/٧١١٤٠٤